



أعمال خالدة




لورد بايرون

أسفار شيلد هارولد

ترجمة : عبد الرحمن بدوي





ketab.me
Best Books

أسفار شيلد هارولد

أعمال خالدة

Author : Lord Byron
Title : Childe Harold's Pilgrimage
Translator:Abdel-Rahman Badawi
Al- Mada P.C.
Second Edition : 2007

اسم المؤلف : لورد بايرون
عنوان الكتاب : أسفار شيلد هارولد
المترجم : عبد الرحمن بدوي
الناشر : المدى
الطبعة الأولى : ٢٠٠٧

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦ -فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

لبنان -بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

العراق - بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
تلفون: ٧١٧٠٣٩٥-٧١٧٠٥١٣ فاكس: ٧١٧٥٩٤٣
www.almadapaper.com
almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com

لورد بايرون

أسفار شيلد هارولد

ترجمة

عبد الرحمن بدوي



تصدير عام

"كان فيه احتقار مستمر لكل شيء، حتى ليخيل إليك أنه عانى أسوأ ما يمكن أن يكون؛ وكان يعيش على الأرض غريباً عنها، وكأنه روح شاردة أُلقِيَ بها من عالم آخر؛ وكان له خيال مظلم يخلق لنفسه الأخطار التي يكون قد أنقذ منها؛ ولكن عبثاً، فذكراها كانت لنفسه مصدر انتصار وندم معاً.

"وُهب قدرة على الحب لم يتيسر مثلها لكائن من الناس؛ فكانت أحلامه في الفضيلة تتجاوز منذ البدء نطاق الحقيقة والواقع؛ وشبابه الذي خاب أمله قد تلته رجولة عاصفة. فلم يبق لديه إلا الأسف على كل تلك الأعوام التي بدّدها في مطاردة شبح وخيال، وعلى سوء استخدامه للطاقة التي وهبت لروحه من أجل الاستفادة منها على وجه أحكم وأتم. لقد كان فريسة لوجدانات عنيفة نثرت في طريقه الخراب والشقاء، ولم تترك لأجمل عواطفه غير اضطراب باطن وأفكار قاسية تستثيرها حياة عاصفة مضطربة. ولكنه كان من الكبرياء والبطء في الإدانة بحيث ألقى نصف المسئولية في هذا على الطبيعة، وعزا كل أخطائه إلى هذا البدن الذي قضت عليه الطبيعة أن يكون سجناً للروح وقوتاً لدود القبر؛ حتى انتهى به الأمر إلى الخلط بين الخير والشر، فقال عن أفعال إرادته إنها أوامر القدر.

"لقد كان أرفع من أن يحمل أثرة العاديين من الناس، فعرف كيف يضحي بنفسه في سبيل خير الآخرين، حينما يقتضي الأمر. أفكان هذا منه عطفاً أو واجباً؟ كلا؛ إنما كان بالأحرى نوعاً من الفساد الغريب في طبعه، كان يدفع بكبريائه إلى فعل ما لم يجرؤ على فعله غير قليل من الناس. وهذا بعينه قد كان الدافع الذي كان يجعله من قبل يفضّل سبل الجريمة: لأنه كان شديد الرغبة في الانفصال- إن بالخير أو بالشر- عن هؤلاء الذين تلقوا مثله حياة فانية! إن روحه لم تكن تسمع لغير الكراهية التي يحملها

لهم في نفسه، فوضعت عرشها بعيداً عن هذا العالم، في مملكة خيالية قد خلقتها لنفسها؛ هنالك، في هذه التأملات الباردة لاحتقاره، كان دمه يبدو كأنه يسيل على نحو من الهدوء أكبر. ما كان أسعده لو أنه لم يحترق بعد بناء الجريمة! وما كان أسعده لو أنه نعمَ دائماً بهذه الطمأنينة البادرة.

"أجل، إنه سلك من السبل ما سلكه كل الناس؛ أجل، إنه بدا في الظاهر وكأنه يتحدث كما يتحدثون ويفعل ما يفعلون، دون أن يهين العقل بأي انحراف عن سبيله. إلا أن جنونه كان جنون قلب، ولم يكن جنون عقل: فلم يكن يهذي في أقواله إلا نادراً، ولم يرفع النقاب عن أعماق نفسه إلا قليلاً من أجل إزعاج من كانوا يستمعون إليه".

في هذا التحليل الدقيق لشخصية بطله لارا [1] قدم لنا بيرُن أصدق صورة عن نفسه. فقد كانت روحه عاصفة من الأحاسيس المضطربة والوجدانات الهائجة التي كانت تدور دائماً حول نفسها، مرتطمة حيناً بصخرة البشر الجرداء الباردة التي لا تلبث أن ترتد عنها قانطة من بني الإنسان، ناظرة إليها بإزدراء متهانف؛ ومنطوية على نفسها حيناً آخر لِواذاً بالوحدة من تفاهة الناس. وفي كلتا الحالتين وحدة، الأولى إيجابية معتدية، والأخرى سلبية ليس فيها معنى الكراهية، "لأن تجنب بني الإنسان ليس معناه بالضرورة كراهيتهم؛ فليس كل امرئ مهيأ للدخول في غمرتهم ومزاحمتهم في مشاغلهم. وليس من الزراية بهم أن تحتفظ بقلبك عميقاً في ينبوعه، خوفاً من أن يفيض غلياناً من حميم الطغام، حيث نصير فريسة لداء عياء، إلى أن نندب، متأخراً ولزمان طويل، ضرورة كفاحنا ضد العدوى، وننتقل من خطأ إلى خطأ ومن شقاء إلى شقاء، وسط عالمٍ تشيع فيه روح معادية لا نقوى على صدها والتغلب عليها ـ ")أتشيلد هارولد"، ٣:٦٩، ص ١٥٧ من هذا الكتاب). ذلك أن روحه المتوثبة المجاهدة لا تستطيع أن تستمر في جهادها العملي حتى النهاية، لأن سلاحه فيه غير سلاح أعدائه من البشر من ناحية؛ ومن ناحية أخرى، لأن روح النضال عنده ليست روح نضال في مملكة الواقع، بل في مملكة الفكر؛ ومثلها إذا استيأس من الواقع، لاذ بنفسه. ومن هذا اللّواذ المستمر بالذات تولدت في نفسه نزعة ذاتية هدامة للباطن، قد أحالته إلى أتون من اللهيب الوجداني الذي يحرق نفسه، ويكتوي بنيران ذاته؛ مما أوجد من نفسه

(١) "لارا" ١: ١٨

دوامة مرضية، إن صح هذا التعبير، تمزق النفس بأحوالها المختلفة، مما من شأنه أن يجعل التناقض طابعاً أصيلاً في تكويننا .ولهذا التناقض من الحدة ما يجعل السيطرة على النفس مستحيلة، وتنظيم الوجدان فيما بينها وبين بعض عسيرا؛ لأنه لم تعد توجد بعد هذه السلطة المركزية التي تستطيع الهيمنة على كل هذه القوى المتضاربة. ومن شأن هذا كله أن يجعل صاحب هذه النفس "يعيش على الأرض غريباً عنها، وكأنه روح شاردة ألقيَ بها من عالم آخر"؛ لأن المشاركة في أحوال الناس لا تتم إلا بواسطة التوفيق والمساومة والانسجام بين مختلف القوى النفسية في داخل الذات الواحدة من ناحية، ثم في صلتها بالناس والعالم الخارجي من ناحية أخرى. أما الذين يعجزون عن هذا التوفيق، فيبدون غرباء في أوطانهم، يشذ وينأى عنهم أقرباؤهم من بني الإنسان. وليس له بعد هذا إلا أن يحيى في وحدة هائلة مع نفسه؛ وحدة هي في الآن نفسه اجتماع إلى أعلى درجة، لأن نفسه ستكون حينئذ عالماً بأكمله، إذ هو خليط هائل من الأنفس المتعددة المنقسمة على نفسها. هذا من ناحية، ومن ناحيةٍ أخرى فإن الوحدة مع النفس الخاصة هي في الوقت عينه وحدة مع الكون بأسره. لهذا ترى صاحبها يشعر بدخول الوجود كله في نفسه، حتى تصير "الجبال والأمواج والسموات بضعة مني ومن روحي، كما أني أنا بُضعة منها" ("أتشيد هارولد"، ٣:٧٥، ص ١٦٠ من هذا الكتاب). فإلى هذا الشعور بوجود الوحدة تفضي الوحدة السلبية.

أما الوحدة الإيجابية فستحيل إلى ازدراء متعالٍ يخيل إلى صاحبه فيه أنه فوق مستوى الكل، وأنه لم يعد في حاجة إلى أن يتلقى عن الآخرين درساً أو تجربة، لأنه يتوهم في نفسه أنه قد عانى كل التجارب، وأنه "عاش طويلاً في عالم الأحزان، وتعمق الحياة حتّى القاع بالأفعال لا بالسنوات، حتى لم يعد يدهشه شيء، ولم تعد سهام الحب أو الألم أو الشهرة أو الطموح أو الكفاح تصيب قلبه بنصل الاحتمال الصامت الحاد"(٣:٥)؛ فيلوذ حينئذ بقلعة من الكبرياء المتمرّدة؛ مما يشيع في نفسه الهدوء البارد الذي هو أقرب ما يكون إلى اليأس. ولكنه يأس حي، لأن "في يأسنا حياةً وأي حياة، ألا وهي حياة السّم: إنه جذر حيّ يغذي هذه الأغصان الذابلة، لأن اليأس لن يكون شيئاً ذا بال إذا أماتنا" (٣:٣٤). إنه يأس قد علته "بسمة كالحة، بسمة إن تكن وحشية..... فإنها مع هذا توحي بابتهاج لم يفكر في طرده عن نفسه"

(٣:١٦). وقد يخيل إليه حينئذ، بعد أن تحصن بعدم الاكتراث، "أنه يستطيع أن يعاشر الناس من جديد... وأن روحه قد صارت اليوم من المناعة والأمان بحيث لم تعد تخش أن يصيبها ما يحزنها، وإن لم يأتها ما يسرها" (٣:١٠)؛ "غير أنه سرعان ما يتبين أنه أقل الناس قدرة على استبطان سواد الناس، ممن لا تجمع بينهم وبينه وشيجة ولا مشابهة. فإن روحه لم تعرف مطلقاً كيف تخضع أفكارها لأفكار الآخرين، ولم تكن تستطيع أن تخضع إلا لنفسها. إنما كانت ثائرة على كل إيحاء أجنبي، فخوراً بقنوطها، قد حملتها الكبرياء على عدم الانقياد إلى أي مخلوق كائناً من كان" (٣:١٢). فيضطر حينئذ أن يعود إلى الطبيعة الحية كما يجد فيها الأصدقاء له، بعد أن يئس من بني الإنسان.

غير أنه لا يستطيع أن يستسلم لهذه الطمأنينة الباردة، لأن "الهدوء جحيم بالنسبة إلى النفوس المتوثبة..... إن ثمة ناراً وحركة في النفوس التي تأبى أن تنحصر في دائرة وجودها الضيقة، بل تصبو إلى ما وراء حدود الرغبة المتوسطة المعتدلة. إنها حين تشتعل مرة بهذه النار العسيرة الإطفاء، لتتحرق عطشاً ولواحاً إلى المخاطر العالية، ولا تتعب من شيء إلا من الراحة" (٣:٤٢). لهذا نجد في طبيعة هؤلاء نزوعاً مستمراً نحو آفاق جديدة وأفكار ممتازة، يخلقونها لأنفسهم إذا لم يتيسر لهم أن يحصلوا عليها حقّاً؛ أو بالأحرى هم لا ينشدونها إلا في مملكة خيالهم، لأنهم في الواقع إنما يجرون دائماً وراء شبحٍ يحاولون اقتناصه وهو يفر منهم أبداً، مما يكوّن في نفوسهم ذلك القلق العنيف الوثاب الذي يميزهم من دون الناس.

ومن أهم ما يمتاز به هذا النفر من الناس محاولتهم الانفراد عن سواد الناس، كنتيجة لهذه العزلة التي يأوون إليها أو يخلقونها لأنفسهم خلقاً. فتراه يأتي من الأفعال ما يميزه منهم على أي نحو حتى لو خالَفَ ذلك مبدأه. فعلى الرغم من أنه يكره الناس، فإنه مع هذا لا يشعر بأثرة؛ بل هو متأهب للتضحية بنفسه في سبيل الآخرين عند الحاجة. وما هذا منه واجبٌ أو من باب العطف على الناس؛ إنما ذلك لأن الناس نادراً ما يؤثرون غيرهم، وقد يبلغ به هذا الميل إلى التميز من الناس حد إتيان الجريمة لا لسبب غير هذا. وهي حالة نفسية معروفة تشاهد عند كبار المجرمين المصابين بجنون العظمة الذي يستحيل أحياناً أو يبدو على هيئة رغبة في إيذاء الآخرين واضطهادهم.

ولأن الحب الحقيقي ليس من هذا العالم الأرضي في شيء، فإن هذه العاطفة تراها نامية عنده إلى أقصى درجة، مما يدفع به إلى نشدان أوهام تجور به عن سبيل الوقائع وتقوده إلى خيبة أمل تعصف بحياته. فاتشيلد هارولد قد وُهب قدرة على الحب كبيرة غير متيسرة لأحد من الناس، فاتجه بها أولاً إلى ابنة عمه ماريا أتشوورت، وخيل إليه أن حبه سيتوج بالنجاح، لكن "هذه التي عشقها وهام غراماً بها، لم يستطع، يا للتعاسة، أن يظفر بها" (١:٥)، فكانت له عن هذا تجربة مرة كان لها في نفسه أبلغ الأثر، مما دفع به إلى التجوال الطائر بين الغادات الحسان دون أن يشعر بالحب نحو إحداهن. ثم كانت له تجربة ثانية أشد من الأولى مرارة وتعاسة، هي تجربة زواجه البائس، الذي كان كارثة عظمى في حياته، لأن وضاعة امرأة متحذلقة متزمتة قد دفعت بغيرتها إلى التعلق بأوهام كاذبة، فراحت تكيل التهم لزوجها المسكين؛ وساعدها في هذا الاتهام الآثم لِداتُها من بنات جنسها اللائي وجدن الفرصة سانحة للانتقام الرهيب من هذا الذي احتقرهن وأمعن في هذا الاحتقار كلما ازددن تعلقاً به. وما أعنف شهوة الانتقام في المرأة حين تحتقر! فكان لبيرن عن هذه التجارب الأليمة خيبة أمل هائلة في الحب، فقنط من الظفر به في هذا العالم الدنيء: "أيها الحب! لست من سكان هذه الأرض؛ أنت ملك خفي نؤمن به؛ وأنت دين شهداؤه القلوب المحطمة؛ ولكن العين المجردة لم ترك ولن تراك كما يجب أن تكون. إن روح الإنسان هي التي أبدعتك، كما أبدعت عليين، بواسطة أحلام تخيلاتها وأهوائها" (٤:١٢).

فإذا كان الحب هو الآخر على هذا النحو، فماذا بقي له بعد؟ لم تبق إلا الطبيعة، ثم نفسه: "أيتها السماء والجبال والنهر والرياح والبحيرة، إن لي روحاً قادرة على أن تفهمكم؛ وفي وسع الليل والسحاب وبروق الصواعق على أن تفهمكم؛ وفي وسع الليل والسحاب وبروق الصواعق أن يلهمني؛ وإن أنغام أصواتك الراحلة لهي كالصليل لكل ما في نفسي من قلق" (٣:٩٦).

إن الطبيعة هي الأم الحنون التي يستطيع أن يرقد على صدرها ويقتات من حليب ثديها؛ وهي المعبد الذي يقدّم فيه صلواته؛ وهو لن يحيى بعد في نفسه بقدر ما يصير جزءاً مما حواليه.

غير أن هذه الطبيعة ليست الطبيعة الخارجية بقدر ما هي صورتها الخيالية عنده.

فهو لا يريد أن يفنى بها، بقدر ما يريد هو منها أن تفنى فيه. لأن العامل الفعّال في كل أفكاره هو ذاته الخاصة. والنزعة الذاتية المغالية هي ما يميز حبه للطبيعة من حب غيره لها، خصوصاً الأقدمين من اليونان والرومان. ذلك أن بيرن يريد أن يمتد بنفسه إلى ما وراء كل حد ونهاية، حتى تنتظم الوجود بأسره، فلا يكون له قانون غير قانونه هو. وهذا الامتداد غازٍ معتدٍ يدفع بجيوشه الجرارة من عواطف ملتهبة ووجدانات مشبوبة وانفعالات حادة إلى اكتساح كل العالم بروحه وخياله. ومن هنا يمتاز هذا العلاء بالنفس عند بيرن منه عند غيره بأنه عند الآخرين، وبخاصة المتصوفة والفلاسفة، مُسالم وهميٌ يجري كله في قمة العقل الباردة، ولذا يتسم بالهدوء؛ أما عند بيرن فهو عنيف أهوج صاخب، فيه حرارة وفيه اضطراب، تحدوه قوة زخارة هدامة شيطانية تحاول أن تنال كل شيء بالتحطيم لا بالتسليم، وبالهدم لا بالسلم. لذا تشاهد على جبينه ندوباً وأثاراً حارة لعواصف عاتية تضطرم في داخل مملكة خياله. وهذا من شأنه أن يعطي للشعور بالوحدة عنده طابعاً من القسوة والتعالي يرغم الآخرين ويبهظ كاهلهم.

كل تلك خصائص نفسية لها نظائرها الفنية. فصفة الازدراء والفردية عنده قد جعلتناه يرغم الطبيعة والموضوعات الخارجية على الدخول في قوالبه الخاصة، بدلاً من أن يتكيف هو وإياها ويستخلص روحها؛ فكان يفرض عليها نفسه وروحه، ويطبعها بمزاجه الخاص. وما في طبيعته من اضطراب عاصف قد جعل آثاره الفنية مضطربة النظم، لم يسيطر على تكوينها عقل هادئ ينميها خطوة فخطوة، ويحاول أن يوفق بين أجزائها، ويبنيها حجراً حجراً، حتى يتكون عن هذا بناء متلاحم متماسك الأجزاء. إنما كان محموماً في كتابته، غير منتظم في تأليفه، سريعاً في الانجاز لأنه لا يصبر على التنميق والتوفيق وإحكام الربط بين الأجزاء. ومن هنا لم يبرع في الموضوعات التي تحتاج تسلسلاً ولا تقوده فكرة تنظيمية موجهة لبناء كُلّي. فلا تجده يسرد الأفكار بطريقة متصلة، إنما يقذف بها على هيئة خواطر مستقلة، كأنها لمحات ولوائح ولوامع تهجم على عقله فترتد بَوادهَ شاردةً كأنها البروق. ومن هنا جاء ميله إلى اتخاذ أسلوب الفقرات المنفصلة، كما يشاهد خصوصاً في اروع آثاره: "أتشيلد هارولد"، و"دون جوان": فالأول مكون من الفقرة المعروفة باسم فقرة اسبنسر، وتتكون من تسعة أبياتٍ كلها ذوات طول واحد (٥ أقدام) ما عدا البيت الأخير الذي يزيد عنها بقدم سادس،

ويسمى باسم الاسكندري. والثاني مكون من فقرات كل منها ذات أبيات ثمانية. فأسلوب الفقرات هذا قد يَسَّرَ له أن يعبر عن خواطره المتناثرة غير متقيد بتسلسل أو اتساق؛ وإن كان قد خرج عن هذا الاستقلال بين الفقرات في بعض الأحيان، خصوصاً في النشيد الأخير "اتشيلد هارولد". ولهذا أيضاً لم يبرع إلا في النواحي الغنائية. فعلى الرغم من أنه طرق كل أنواع الشعر: من قصيدة غنائية ورواية مسرحية وملحمة وشعر قصصي، فإنها كلها تمتاز بهذا الطابع الغنائي، لأنها دائماً تعبيرات عن خوالج نفسية متناثرة لا تلتئم لتكوين وحدة كاملة متسقة كما تقتضيه طبيعة المسرحية والملحمة على وجه التخصيص. ذلك أن الفردية المطلقة تستلزم الغنائية في الشعر، وتحول إذن بين الفنان وبين السرد المتصل. لذا لا نستطيع أن نعد مسرحياته وملاحمه وقصصه الشعرية قصصاً وملاحم ومسرحيات بالمعنى الصحيح. ففارق هائل بين مسرحية لشكسبير أو موليير أو راسين أو جيته أو شلر، وبين مسرحية لبيرن. في الأولى وحدة واتساق بين الأجزاء وإفضاء من البداية إلى النهاية وإحكام لوضع الأجزاء ونمو مستمر؛ بينما لا نشاهد في هذه الأنواع من الشعر عند بيرن غير الانفصال والتمزق والارتجال والاستطرادات التي تجور بالسرد عن غايته. وهذا راجع أيضاً إلى كون هذه الأبنية الأدبية لا يُحكم بناءها إلا صاحبُ العقل المسيطر على العواطف والانفعالات؛ أما الذي ينساق وراء أي انفعال طارئ وتتجاذبه الوجدانات المتضاربة، فلا يقدر على البناء والتركيب وإحكام النسج.

وعَرامة الوجدان عند بيرن هي التي تضفي على أوصافه ألواناً زاهية براقة وتشيع فيها روحاً عنيفة قوية. فأكثر أوصافه عادي لا يرتفع إلى ما فوق مستوى المتوسطين من الشعراء؛ وصوره كثيراً ما تخلو من الطرافة؛ والخواطر التي يعبر عنها نادراً ما تجد فيها جديداً أو عميقاً؛ وإحساسه بالطبيعة لا يبلغ من العمق مبلغ إحساس رجل كشلي أو وردزورث في الشعراء الإنجليز، أوتيك ونوفالس في الشعراء الألمان؛ ولكنه يمتاز من هؤلاء جميعاً بأنه يشيع في كل أوصافه وصوره وخواطره وإحساسه اضطراباً وعنفاً يهز النفس ويملأ القلب رعدة وقشعريرة، لا تجد منها شيئاً عند هؤلاء. والغالبية العظمى من أفكاره مبتذلة مشاعة لا جديد فيها ولا طريف؛ غير أنها ذات طابع خاص، لا تستطيع أن تسمية إلا باسم الطابع البيرني، لأنه نسيج وحده، وإن لم تقدر على وصفه بوضوح.

واللحن السائد في كل أشعاره هو لحن الحزن. وهنا لا يكاد يضارعه شاعر آخر، إن قصدنا بالحزن هنا الحزن الإيجابي الوثاب، لا ذلك الحزن المستسلم المريض الذي نجده عند بقية الرومنتيك، وبخاصة في المدرسة الرومنتيكية الفرنسية. لذا مهر في وصف هذه الشخصيات الأسيانة التي تناضل في الحياة مع أعظم القوى الشريرة. فمن النادر أن تجد شاعراً آخر قد رسم هذا القدر من الشخصيات مثل أتشيلد هارولد ولارا ومنفردة وكونراد (بطل قصة "القرصان") وقابيل. وهذه المهارة إنما ترجع إلى أن هذه الشخصيات المختلفة إنما تمثّل الجوانب المتعددة لشخصيته هو: ففيها أكبر توكيد لذاتيته: فهارولد هو بيرن نفسه، بكل حياته وآماله وأسفاره وتجاربه في الحياة. وعبثاً حاول بيرن أن يتنصل في مقدمة النشيدين الأول والثاني من هذه الهوية بين كليهما. إذ سرعان ما وجد القراء في هارولد شخصية بيرن بأكملها، حتى عدّوهما شخصاً واحداً منذ البداية، وحتى اضطر بيرن نفسه إلى الاعتراف بهذا في النهاية، إذ ما لبث في النشيدين الثالث والرابع أن هتك قناعه نهائياً وتبدى سافراً؛ ولم يعد اسم اتشيلد هارولد غير ذكرى لاسم استعاره لنفسه. ولارا وكونراد يعبران عن جانب الطموح والنزوع إلى الأعمال والميل إلى المخاطرة في طبيعة بيرن، على الأقل كما حلُم بها أن تكون.

وَمَنْفْـرِدْ يمثل جانب السمو والتعالي إلى مرتبة الإله والحنين إلى اللانهائي واللامحدود في شخصية بيرن؛ إذ كان يود أن يكون فاوستَ آخر يسعى إلى اكتناه أسرار الوجود والقبض على مفاتيح الحياة وحلّ لغز الكون. كما نشاهد طبيعة العنف المتحرر والثورة المجدّفة والعصيان العرم في تصوير بيرن لقابيل: فهنا قد أراد أن يعبر عن تمرده على الخالق، نظراً لما يراه في الكون من شر وفساد، الإنسان المسكين منها بريء. وتراه يخيل إلى نفسه أنه إبليس آخر يود أن ينتقم للإنسان البائس من باريه الذي يعذبه ويرهقه دون ما ذنب أتاه. وأخيراً نجد شخصية دون جوان تمثل الجانب الحسي الشهواني في بيرن؛ كما تمثل تهكمه القاتل وسخريته الهدامة التي تهزأ بكلّ ما الوجود، بعد أن يئست من الظفر بشيء فيه. فإذا كان اتشيلد هارولد يصوّر بيرن الشاب المتوثب إلى تجارب جديدة، الظامئ إلى الانتهال من ينبوع الحياة قدر المستطاع، فإن دون جوان يمثل بيرن اليائس الساخر غير المكترث بشيء ولا بحيٍّ من

الأحياء؛ فكأن الأول يمثله إذن قبل هجرته النهائية عن وطنه (سنة ١٨١٦)، ودون جوان يمثل بيرن في الدور الأخير من حياته بعد هذه الهجرة.

لكن أصدق الشخصيات تعبيراً عن نفسه بأكملها هي شخصية اتشيلد هارولد. فهي تصور بيرن الشاب العاكف على اللذات؛ لكن بدرجة أقل مما حدث لهارولد- الذي ورث اسماً ماجداً وقصراً عتيقاً كان مأوى للفضيلة من قبل، وصار على يديه ملاذاً للعربدة والفجور. فلما بلغ منه الملال، وخيبت آماله التجارب القاسية لأحوال الناس- من نفاق وخداع- ، فارق قصر أبيه معتزماً التجوال في القارة الأوربية، غير آسف على شيء من الأشياء ولا على حي من الأحياء الذين خلفهم من ورائه. وركب سفينة أقلّته إلى اسبانيا، حيث كانت الحرب الضروس قائمة بين نابليون من جانب، والاسبان والإنجليز من جانب آخر. فجلس خلال هذا الإقليم الرائع الجمال وتغنى ببطولة أبنائه وجمال بناته، وأنحى بأعنف اللوم على المستضعفين منهم الذين لم يحملوا السلاح لطرد الغازي المغتصب، ووصف المعارك الطاحنة التي دارت بين كلا الفريقين، وعرّج على الملاهي الوحشية لهذا الشعب الفطري مثل مصارعة الثيران. ثم لما انتهى من رحلته في شبه الجزيرة الإيبرية غادرها إلى بلاد اليونان وألبانيا؛ فتلبث ملياً عند أثينا، واستلهم ماضيها المجيد تحت وحي آثارها الرائعة، وبكى على أطلالها الدارسة، واستعاد ذكرى مواطنها المقدسة للفن والجمال، وثار على استسلام الشعب اليوناني للأتراك. ثم ارتحل إلى ألبانيا. وهناك أعجب بشعبها الأبيّ الباسل، الفطري الغرائز، الوحشي الطباع، في حمية وأنفة ومروءة، وأشاد بحاكمها علي باشا يابنا. ثم عاد يبكي حظ هلاس وينعي على أبنائها الأذلاء، مستنفراً إياهم إلى الحرب في سبيل الاستقلال والحرية. وبذا تنتهي هذه الرحلة الأولى.

وبالنشيد الثالث تبدأ الرحلة الثانية التي غادر فيها بلاده إلى غير رجعة؛ أولاً إلى بلجيكا حيث زار مسرح القتال الأخير، فوصف الأردن وساحة ووترلو؛ وبكى على صديق له مات شهيداً في هذه المعركة. وهناكَ تلبث طويلاً كيما يمجد نابليون، فكرس لوصفه فقرات خالدة هي من أروع ما كتب عن هذا البطل الجبار. وغادر بلجيكا إلى بلاد الرين، حيث وصف مفاتن هذا النهر الجليل الذي يقع في بقعة من أجمل بقاع الدنيا؛ واستمر يتابع النهر في مجراه حتى منابعه في سويسره إلى أن بلغ بحيرة ليمان

(بحيرة جنيف) ذات الذكريات الغرامية الشعرية الخالدة، حيث استعاد نفسه ونصاعة روحه واتحد بالطبيعة الكلية في أبهى مجاليها؛ وعطف على روسو يذكره بكلمات أقرب ما تكون إلى وصف نفسه. وأخيراً وصل إلى إيطاليا، فحياها بكلمة أولى؛ ثم أخذ في زيادة بلادها، مبتدئاً بالبندقية، عرافة البحر التي انبعثت من أعماق المحيط، فتغنى بجندولها الخالد وبحرها الفاتن، وقصورها وكنائسها، وتاريخه المجيد في عالم البحار. ومضى منها يستعيد ذكرى بلادها التي كانت مأوى ناعماً لشعراء إيطاليا الممتازين. حتى وصل روما، فأقام بها طويلاً يشاهد آثارها التي تتحدث بأبلغ عبارة عن أعظم الأمجاد الحربية وأروع الظواهر الدينية. وفي خلال هذا كله، كان يُعنى بالبكاء على الديار الخالية والرسوم الدارسة التي تشهد بأن مجداً أو جمالاً أو حقاً كان يقطن هنا، فكاد أن يستعرض أهم أحداث التاريخ: القديم منه والحديث، مستخلصاً منه في كل حين درساً وعبرة. وكان أهم ما لفت نظره إبان هذا كله، هو مجد الماضي وزواله، وفعل الزمان الجبّار في كل شيء يخضع لسلطانه، وتفاهة كل جهودنا الإنسانية التي لا يلبث العدم أن يبتعلها في هاويته السحيقة؛ وعجز الإنسان أمام القدر العاتي الذي يحطم له كل ما أبدعه من آثار رائعة وتحف فاتنة. فآب من هذا كله بحزن دائم ونظرة أسيانة إلى الوجود، لا سبيل إلى الخلاص من ورائها. إذ هي لا تبصر من وراء الأفق شيئاً؛ وإذا كانت هذه حال العالم، وإذا كانت هذه هي الحياة، فلماذا نطلب حياة أخرى وراءها؟ ولكن تمرد بيرن لم يستمر إلى أبعد من هذا مما سيشاهد بعد في تمرد "قابيل"؛ إنما مال إلى نوع من الاستسلام اليائس الحزين. وهذه الخواطر التي يلذ لبيرن أن يولجها في كل حين وبعد كل منظر، كان من شأنها أن تدفع به إلى كثير من الاستطرادات، مما زاد في تفكك النسج في هذه الملحمة.

وهي أفكار وخواطر ليس فيها من جديد إلا الإخلاص في التعبير عنها. والحق أن بيرن لم يكن عميقاً في أفكاره، إنما كان حاداً في انفعاله و إحساسه، لذا لم يكن مفكراً ممتازاً أو شبه ممتاز. فكان جيته إذن صادقاً كل الصدق حين قال عنه. "إنه حين يفكر، يصير طفلاً"، إذ أشعاره وكتاباته كلها خالية من سعة الأفق في النظر ونفوذ الإدراك واكتناه الأسرار المستغلة، مما نجده عند شكسبير أو جيته أو شلر أو حتى عند شلي الذي فاقه في هذه الناحية من غير شك، كما فاقه أيضاً في القدرة على وصف

الطبيعة. ولكن ما يميز بيرن هو تعبيره عن طابع وجودي معين لا نستطيع أن تستخلصه عند غيره، بوضوح. فالطابع أو النموذج البيروني نموذج نسيج وحده، له مميزاته الخاصة، التي حاول أن يتأثر بها شباب أوربا في ذلك العصر.

هذا النموذج البيرني لن تجد فيه عمق فرتر، ولا خيال سان بريه، ولا رقة رينيه، ولا همّ أقرانه الذين قدموا أنفسهم نماذج عليا للشباب الأوربي في تلك الفترة الحاسمة من تاريخ أوربا التي شملت الثورة الفرنسية بما سبقها وما تلاها من سنوات كانت تمهيداً أو ذيولاً لها وختاماً. إنما ستجد فيه نوعاً من اليأس القوي الدافع إلى عدم الاكتراث، لا غفلةً، بل ازدراء واحتقاراً. وستجد فيه نزوعاً عارماً إلى نشدان المخاطر، واكتساب التجارب الحية الجديدة باستمرار، وتحقيق الأفعال من وراء الخواطر والأحلام؛ وستغزو نفسك نزعة وحنين إلى الحياة المضطربة العاصفة الزاخرة بأعنف العواطف وأنبل الانفعالات؛ وستقف معه وقفات طويلة عند آثار الماضي وتقرأ في صفحات التاريخ، فتخلو إلى نفسك تسألها في كل حين: إلى أين؟ فإن استطاع أن ينبئك بشيء من أمرك هذا، فأنا موفق حقاً إلى ما كنت أريد.

مايو سنة ١٩٤٤

عبد الرحمن بدوي

أسفار تشيلد هارولد ٨

للورد بايرون

قصة و فروسية

"الكون سفر لم يقرأ منه غير الصفحة الأولى من لم ير إلا وطنه . وأنا قد تصفحت منه قدراً وافراً ، فوجدته رديناً تافهاً . ولكن هذا الامتحان لم يكن عقيماً . فقد كنت أبغضت وطني . ولكن ألوان العنت التي سامتني إياها مختلف الشعوب التي عشت بين ظهارانيها هدتني إلى محبة هذا الوطن . فإذا كنت لم أظفر من أسفاري إلا بهذه الفائدة وحدها ، فكفى هذا كي لا آسف على ما حمَّلتني هذه الأسفارُ من متاعب ونفقات" .

الكوسموبوليت (١)

---

(١)كتاب نادر عنوانه الكامل هو : الكوسموبوليت ، أو المواطن العالمي ، وعليه هذه الشارة: "الوطن هو حيث يعيش المرء سعيداً"، وتاريخه سنة ١٧٥٠، ولكنه غفل من اسم المؤلف والناشر . وهو كتاب لاذع السخرية ، من وضع فوجريه دي مونبرون.

مقدمة[1]

تكاد القصيدة التالية أن تكون أوزانها قد ألفت وسط المناظر التي تعرضها: فقد استُهلت في ألبانيا وأنشئت الفِقَرُ المتصلة منها باسبانيا والبرتغال وفقاً لمذكرات كتبت إبان زيارة هذين الإقليمين.

تلك ملاحظات لا نسوقها هنا عبثاً، إنما هي ضمان لصدق ما بها من أوصاف: أوصاف تتصل الموجودة منها في النشيد الأول بإسبانيا والبرتغال وإيروس وأكرنانيا واليونان. وهنا تقف القصيدة مؤقتاً: فإن ظفرت من الجمهور بحسن القبول، فلعل المؤلف أن يجازف باقتيادِ قرائه حتى يبلغ بهم عاصمة الشرق، ماراً بأيونيا وافريجيا. وسيعينه النشيدان اللذان ينشرهما الآن على سؤال الرأي العام.

ولم يكن بد من أن نُدْخِلَ في القصيدة شخصية خيالية كيما تكون جميع أجزائها على اتصال واتساق؛ وعلى الرغم من هذا كله، فإني لم أدّع بهذا انني أضفتُ على كتابي هذا طابع الانتظام المميّز للملاحم. وكان نفر من خلاّني الذين أكبر أحكامهم في عيني قد نبهوني إلى ما عساي أن أنزلق إليه من خطر اتهامي بأني شئت أن أرسم خلقاً واقعياً في شخص أتشيلد هارولد الخيالي. لهذا أنشد السماح لي بأن أقول بصراحة قولة نهائية وهي أن هارولد من بنات خيالي، وإنه شخص ابتدعته من أجل قصيدتي. أما فيما يتصل ببعض من التفاصيل المشتركة فيما بيننا، فلعل من الخير تذكرها؛ ولكني آمل ألا يكون المرء في حاجة إلى هذا التذكر فيما يتصل بالقطع الرئيسية.

ومن نافلة القول أن نذكر أن اسم "اتشيلد" مثل "اتشيلد ووترز"، و"اتشيلد تشيلدرز" قد استعمل لأنه أكثر تلاؤما مع الإيقاع أو الوزن الذي اتخذته لأبياتي. و"التوديعات" الواردة في مستهل النشيد الأول قد أوحى بها إليّ "عم مساء" للورد

[1] هذه المقدمة خاصة بالنشيدين الأولين من الأناشيد الأربعة المكونة لقصيدة انشيلد هارولد.

ماكسول، في الأشعار الاسكتلتندية العتيقة (بوردر منستر لزي) التي نشرها اسكوت. ولعل القارئ أن يجد في النشيد الأول بضعاً من الفِقَرِ التي تبدو كأنها ذكريات باقية عن قصائد مختلفة تدور حول اسبانيا؛ ولكن هذا إنما تم بمحض الاتفاق، لأنه، ما عدا قليلاً من الفقر الشعرية، قد كتب الجزء الأكبر من "أتشيلد هارولد" في البحر المتوسط.

والفقرة الشعرية عند استنسر تنطوي على عدد هائل من النغمات، كما حكم بهذا واحد من أشهر شعرائنا. فقد كتب الدكتور بياتي يقول: "لم يمض زمان طويل منذ أن ابتدأت أنشئ قصيدة على أسلوب اسبنتسر وأوزانه؛ وفيها لذّ لي أن أدع السبيل مفتوحاً أمام ذوقي في الانتقال دوراً فدوراً من اللهجة الفكهة إلى اللهجة المشجية، ومن الوصف إلى العاطفة، ومما هو رقيق حنون إلى ما هو لاذع مقذع، وفقاً لما عسى أن يلهمني إياه مزاجي؛ لأن الوزن الذي التزمته يحتمل كل هذه الأنواع على السواء ("رسائل بياتي"). فلما تأيد رأيي برأي حجة كهذا، ورأي بعض من الشعراء الإيطاليين من الطراز الأول، لم تعد بي حاجة إلى تبرئة نفسي وتبرير مسلكي بإزاء ما وددت اصطناعه من اتخاذ لهجات مختلفة الشِّيات، عديدة الأنواع، ما دمت واثقاً من أنني إذا لم أنجح في تحقيق هذه الغاية، فهو أولى من أن يكون راجعاً إلى اتخاذ وزن زانه ورفع مناره أريوستو وتومسون وبياتي.

لندن، فبراير سنة ١٨١٢

فضل تقديم

أعود اليوم فأمسك القلم بعد أن شاركَتْ كل صحفنا الدورية بنصيبها في نقد كتابي. وليس لدي ما أقوله ضد عدالة ملاحظاتهم بوجه عام. وسأكون متجانفاً إلى الندامة لو أنني صرخت في وجه انتقاداتهم الخفيفة كلَّ الخفة؛ فلعلهم كانوا سيكونون أوفر حظاً من الصدق في القول، لو أنهم، على العكس من هذا، لم يظهروا نحوي كل هذا العطف. فليتقبلوا جميعاً، فرداً فرداً، مني إذن كل دلائل الشكر على هذا الكرم. غير أن ثمة نقطة واحدة أود التجاسر على سوق ملاحظة بإزائها. فمن بين الانتقادات العادلة التي وجهت إلى خُلُقِ رحالتي (الذي أقرر دائماً أنه شخص خيالي، على الرغم من كل ما يقال بخلاف هذا)، الغريب الأطوار، قيل إنه إلى جانب الخطأ التاريخي، فإن اتشيلد هارولد لم يكن فارساً مطلقاً، لأن عصر الفروسية كان عصر غرام وشرف إلخ إلخ. غير أننا نعلم اليوم أن هذه العهود التي ازدهر فيها "الحب المنتسب إلى العهد العتيق السعيد"، "الحب العتيق"، كانت عصور الفساد الأكبر. وليس على من يشك في هذا إلا أن يتصفح بضع صفحات من سان ياليه، وأن يتلبّث مليّاً عند ص٦٩ من المجلد الثاني. فالأيمان التي كان يأخذها الفرسان على أنفسم لم تكن تراعي أكثر مما كانت تراعي الأيمان الأخرى؛ وأغاني التروبادور لم تكن أكثر عفافاً وعذرية من أغاني أوفيد؛ ولم تكن أخف وقعاً منها أو أكثر تهذُّباً. و "قصور الغرام، ومجالس الحب، أو الرقة والتهذب" كان فيها من الغرام أكثر مما كان بها من التهذب. وما عليك إلا تنظر في هذا الصدد رولان وسان باليه. وأيامّا كان الاعتراض الذي تسوقه ضد شخص اتشيد هارولد غير المحبوب، فإنك لن تستطيع أن تنكر عليه أنه كان يتحلى بصفات الفروسية- "لم يكن خائلاً، بل كان من الداويّة" ("الصعاليك، أو الاتفاق المزدوج"). وإني لأخشى ألا يكون ترستان ولا نصلو خيراً مما كان يجب أن يكوناه، وإن كانا مع

ذلك شخصين ذوي نزعة شعرية سامية، وفارسين مغوارين "لا يهيبهما شيء"، دون أن "يخلوا من النقائص". وإذا كانت قصة نشأة نظام "رباط الجورب" حقيقة وليست بأسطورة، فإن فرسان هذه الطريقة قد حملوا طوال عدة قرون شرط كونتيسة من كونتيسات سالزبرى، لا تعني الناس ذكراها: فما أشرف الفروسية بهذا! وما كان لبيرك أن يندب هذا النظام، على الرغم من أن الملكة ماري أنطوانيت التي كان يدافع عن قضيتها كانت في منزلة من الفضيلة تعدل منزلة غالبية السيدات اللائي تكسرت من أجلهن الرماح وجندلت بسببهن الفرسان.

وقبل أيام يابار إلى أيام سير جوزف بانكس (وهي أكثر الأيام القديمة والحديثة طهراً وعفافاً)، قليلة هي الشواذ التي تخالف ما قلناه؛ ويساورني الخوف من أن قليلاً من البحث سيكفي كي يعلمنا ألا نأسف على هذه المومياءات الشنيعة التي تعزى إلى العصور الوسطى.

وها أنذا أدع "اتشيلد هارولد" تحيا ما وسعتها الحياة. وقد كان من الأيسر والألذ إلى نفسي أن أصوّر خلقاً محبوباً؛ وكان في الوسع اسبال القناع على معايبه من غير ما مشقة، وجعله أكثر أفعالاً وأقل مقالاً. ولكني لم أقصد من تقديمه أن يكون نموذجاً يحتذى؛ بل كل ما قصدت إليه هو أن أبين كيف أن الفساد المبكر للروح والأخلاق يجرّ إلى السآمة من اللذات الماضية واليأس من اللذات المقبلة؛ وأن جمال الطبيعة ومباهجها نفسها والبواعث على العمل (اللهم إلا الطموح، فإنه أقوى المستثيرات) مفقودة التأثير في مثل هذه النفس الضالة الشاردة. ولو أني استمررت بقصيدتي مع أتشيلد هارولد، إذاً لازداد عمق هذا الخلق كلما أوفى على النهاية؛ لأن الصورة الإجمالية التي كان في عزمي أن أحققها يوماً ما، كانت في مجملها، مع اختلاف قليل، صورة لتيمون جديد، أو زاليتوس مصوغاً في قلب الشعر .

لندن، سنة ١٨١٣

الإهداء

إلى إيانثه (١)

في الأجواء التي همتُ فيها منذ قليل، على الرغم مما يقال من أن الجمال كان يعتبر هناك من غير منافس ولا شريك؛ وفي هذه الرؤى الخيالية التي تسوق إلى القلب ألواناً من الجمال يأسي عليها متنهداً زافراً لأنه لم يرها إلا في الأحلام؛ في هذا كله لم تَبْدُ لي من تُدانيك إن في الواقع أو في الخيال. لهذا لن أحاول، بعد أن رأيتك، أن أصور هذه الألوان من السحر والفتنة التي تعددت وازدهرت. إن كلماتي ستكون إذن عاجزة عن أن تصف من جمالك شيئاً لمن يعرفك بعد! وبأي لسان يستطيع أن يتحدث من رأوك؟

آه! ليتك بقيت دائماً كما أنت الآن؛ فلا تخيبي الآمال التي تشع من ربيعك! وليتك بقيت هكذا رائعة الجمال، فيك حرارة ومع ذلك فليس في قلبك إلا الطهر، تقدمين إلينا صورة "الحب" العاري من الجناح على هذه الأرض، وتخلبين ألبابنا بما فيك من براءة عذبة! أجل إن تلك التي ترعى سنيك في شبابك برقة وحنان، لترى فيك الآن، وعليك سنا الفتنة، قوس قزح سنيها المقبلة، فتنجاب أحزانها أمام هذه الألوان السماوية والأطياف الملائكية.

أنت يا حورية الغرب الفتاة! إن عمري قد تقضى منه ضعف عمرك من السنين؛ إن عيوني لتستطيع أن ترنو إليك دون أن تحترق بلهيب الغرام؛ وتتأمل في غير ما خطر بهاء جمالك الناضج الفتان. وما أسعدني ألا أراه يوماً يذبل أو يحول ؛ وما أكثر سعادتي حين أرى أنه بينما تدمى سائر القلوب الشابة من كلومها القاسية، فإن قلبي

---

(١) إيانثه هذه هي الفتاة الصغيرة ، الليدي شارولت هارلي(التي صارت فيما بعد ليدي شارلوت بيكون) ؛ وكانت سنها حين تقديم هذا الإهداء إليها الحادية عشرة تقريباً .

سينجو من المصير المقدر لهؤلاء الذين تقضي عيونك عليهم بالإعجاب بك، مع ما يجره هذا من عذاب هائل حتى في أعز ساعات الحب.

أوه! دعي تلك العين، الوحشية كعين الغزال، المضيئة في روعة وجسارة؛ دعيها تلك العين التي تأسرنا في شرودها، وترحالها، وتملؤنا بالذهول في حلها وثوائها؛ دعيها إذن تلقي نظرة إلى هذه الصفحات، ولا تجعليها تحرم شعري من هذه البسمة التي يزفر صدري تحرقاً إليها، لو أنني كنت لك شيئاً أكثر من صديق. نشدتك الله، يا غادتي العزيزة، إلا فعلتِ ما رجوتُ؛ ولا تسأليني لماذا أتوجه بأناشيدي هذه إلى جمال فتيّ كجمالك؛ بل دعيني أستوكف عطفك كي تسمحي لي أن أضم زنبقة ناصعة البياض إلى أزهار إكليلي.

إيانته! هكذا سأمزجُ اسمك في غدائر أشعاري! وفي كل مرة تُلقي عين حنون نظرة إلى رحلات هارولد، سيكون اسم إيانته أول ما يتبدى أمام ناظريه، كما سيكون آخر ما ينساه. آه! حينما ينقضي عمري وتعدُّ سنيّ، أود لو أن هذه التحية القديمة تجتذب بنانك الرخص إلى القيثارة، قيثارة من تغنى بك وبما لك من فتنة وإغراء: فهذا أقصى ما تتمناه ذكراي. ولكن إذا كان هذا فوق الرجاء، فهل للصداقة أن تتطلب أقل منه؟

النشيد الأول

-١-

أنتِ أيتها الموسا[1]، يا من تمثلتك هِلاسُ من أصلاب الآلهة! أنت يا من أبدعك خيال الشعراء، لطالما أخجلتك قياثير شعرائنا المُحدثين حتى لم تعد قيثارتي تجسر على الإهابة بك من فوق رابيتك المقدسة: غير أني تجولت هنالك على ضفاف ينبوعك[2] الذائع الصيت. أجل! لقد أرسلتُ أفواج الزفرات نوحاً على مذابح دلفِ المهجور من بعيد الزمان، في هذا المكان الذي لا يقطع من صمته الأسيان غيرُ همسات ينبوعك العزيز. ولكني لن أوقظ الأخوات التسع من أجل أن يباركن قصة بسيطة متواضعة وأغنية ساذجة كأغنيتي هاتيك.

-٢-

فتى عاش في جزيرة ألبيون[3]، لم تستهوه سُبُل الفضيلة أدنى استهواء. فأمضي أيامه في عربدة فاجرة فادحة؛ وعكرت عليه اللذات الصخبة صفو الوسن الهادئ في الليل الساجي، حتى استكت منها مسامع الليل الغافية. يا الله! لقد انطلق بلا أدنى تأثم ينتهب ألوان الفجور وينتشي بأفحش اللذات الحسية الشهوانية؛ ولم يكن يأسر

(١) الموسا هي آلهات الشعر والموسيقى والرقص وكل الفنون الحرة. وكل بنات زيوس ومنيموزنيه. وعدهن تسع: كليو، وتشرف على التاريخ؛ ويوتريا، وتشرف على الموسيقى؛ وطاليا، وتشرف على الملاهي؛ وملبومنيه، وتشرف على المآسي؛ وتربسكورا وتشرف على الرقص، واراتو، وتشرف على الشعر الغنائي الرقيق الغزل؛ وبوليهمنيا، وتشرف على الغناء والخطابة؛ وكليوبا، وتشرف على شعر البطولة والملاحم؛ وأخيراً أورانيا، وتشرف على الفلك. وكن جميعاً تحت قيادة أبولو، ولذا سمي بقائد الموسا (موساجيتس)؛ وإن سمي هرقل بهذا الاسم. وكان النخيل والغار وكل ينابيع بندوس وهليكون برناسوس مقدسة لهن. ويمثلن عادة على صورة عذراوات يعلوهن الحياء ويتسمن بالشباب والجمال. ولم تكن تُقدَّمُ لهن ضحايا، وكل ما هنالك أعياد تقام باسمهن في أنحاء مختلفة من بلاد اليونان (هيلاس)، خصوصاً في تسبيا، القرية القائمة عند سفح جبل هليكون، كل خمس سنوات.

(٢) الينبوع الذي يشير إليه بيرون هناهو كستاليا، أحد ينابيع جبل البرناس. وقد امتدت رحلة اتشيلد هارولد حتى دلف المذكورة بعد.

(٣) جزيرة البيون هي بريطانيا؛ والمعنى الاشتقاقي لهذا الاسم يدل على البياض، فسميت به لبياض صخور دوفر المواجهة للقارة الأوربية.

قلبه من شئون الدنيا غير القيان الفواجر وخلان السوء الداعرين، وأبناء الحظ المتباهين، من أي طبقة كانوا.

-٣-

اتشيلد هارولد، هكذا كان اسمه. أما أصله ومن أين جاء اسمه، فهذا ما لا يخلق بي ذكره. بل يكفيني أن أقول إنهم كانوا من ذوي الصيت، وكانوا في زمانهم مبجلين ماجدين. ولكن ابناً حقيراً فاسداً يكفي وحده لكي يدنس إلى الأبد اسماً لامعاً بارزاً، مهما يكن من شدة برقانه في الماضي، ومهما تكن جلالته آنذاك. ولن يستطيع النسابون بكل ما في وسعهم استخراجه من الطين المقبور، ولا النثر المبرقش أو أكاذيب الشعر المعسولة، لن يستطيع شيء من هذا كله أن يسِم بالنُّبل أفعالاً شريرة، أو أن يضفيَ المجد على جريمة.

-٤-

لقد استضحى اتشيلد هارولد في شمس الظهيرة لنهار اللذات، متملياً منها بما يهوى كالفراشة الهائمة، ولم يحسب حساباً لما عسى أن يأتي به الليل القارس من شقاء وإرهاق بعد هذا النهار القصير من حياته. ولكنه لم يكد يقضي من عمره ثلثه حتى حلَّتْ به الكوارث. فقد أحس بتمام الملال والنفور: فَكَرِهَ الثواء بوطنه، إذ تبدى له أكثر إيحاشاً وقفراً من صومعة الراهب الكئيبة.

-٥-

فقد جاس خلال أتاويه الشر الطويلة؛ ولم يشأ التفكير عما اقترف من إثم. وبعثَ بأحر الزفرات إلى الكثيرات، مع أنه لم يحب منهن غير واحدة[١]؛ وهذه التي عشقها وهام غراماً بها، لم يستطع، ويا للتعاسة، أن يظفر بها. آه! ما أسعدها أن تنجو من فم هذا الذي كانت قبلاته ستدنس ثغرها الطاهر! هذا الذي كان سرعان ما يهجر جمالها

(١) هي مس ماريا اتشوورث، وكانت حينئذ متزوجة.

الإلهي الرائع، جرياً وراء شهوات مبتذلة وضيعة، ويبدد أموالها وعقارها كي يجهز على سؤار مالها في الحياة؛ هذا الذي لم يشأ يوماً أن ينعم بسلام البيت وهدوء المنزل.

-٦-

ولكن ها هو ذا اتشيلد هارولد الآن، وقد برحت بقلبه العلل والآلام، يريد أن يغادر رفاق العربدة، وينأى عنهم بعيداً. أجل لقد كانت العبرات أحياناً على بتات أن تنهمر من عينه، ولكن سرعان ما كانت تجمّدها الكبرياء في مكانها ويخلو وحده إلى أشباحه الحالمة. ثم قر رأيه على مغادرة بلاده وزيارة الأجواء المحرقة عبر البحر. فلما بلغ منه المرح واللذات، اشتاق أو كاد إلى الحزن والشقاء، حتى لم يكن ليجد حرجاً في النزول إلى مأوى الظلال (القبر)، لو كان في ذلك السبيل الوحيد إلى تغيير الجو الذي يحيا فيه.

-٧-

فارق اتشيلد قصر أبيه[١]؛ وكان بناء شامخاً يعلوه الجلال؛ قد بلغ منه القدم مبلغاً جعله يبدو على وشك السقوط. ولكن أجنحته كانت لا تزال تسري فيها المتانة والأسر. لقد كان من قبل مأوى مقدساً، فصار اليوم محلا للدنس والفجور؛ في هذا المكان الذي أوى إليه من قبل الإيمان الساذج، أصبحت بنات يافوس [٢] تغني وتدير البسمات المغرية. لقد كان مقدساً إلى حد جعل في وسع الرهبان أن يتخيلوا فيه عدد الأيام السعيدة الخالية، إذا كانت القصص القديمة صادقة فيما تروي ولم يكن هؤلاء الأولياء الأبرار صادقين.

---

(١) هو قصر نيوستد أبي .

(٢) بنات بافوس : بافوس مدينة شهيرة في جزيرة قبرص أنشئت فيما يقال حوالي سنة ١١٨٤ ق .م . وكانت تعبد فيها فينوس ، ربة الجمال ، فتضحي لها على مذابحها كل ذكور الحيوانات ، فكان ينبعث عنه عبير فاغم كعبير المر وأعواد البخور . وكان أهلوها مخنثين داعرين إلى أقصى حد ، حتى كانت القوانين المحلية فيها تسمح للعذراوات بأن يحصلن على بائنتهن عن طريق الدعارة .

-٨-

ولكن جبين اتشيلد هارولد كان كثيراً ما تجلله الغيوم الحزينة، وسط عواصف المرح المفرط الصخب، وكأن ذكرى حادث رهيب أو عاصفة بائسة قد رقدت في أعماقه ثم استيقظت فجأة في تلك اللحظات. ولكن هذا لم يعرفه أحد، أو لم يحفل أحد من رفاقه بالتقصي عنه؛ لأن طبيعته لم تكن تلك الطبيعة المتفتحة الخالية من الصنعة، التي تجد السلوى في إطلاق تيار الأشجان؛ ولم يكن يبحث عن رفيق يعزيه أو يواسيه، مهما يكن من أمر هذا الحزن المستولي على نفسه.

-٩-

ولم يكن أحد يحبه، على الرغم من أنه كان يدعو إلى قصره الشباب العربيد من كل الأنحاء؛ إنما كان هؤلاء يتملقونه إبّان المآدب والحفلات وحدها، لأنهم كانوا طفيليين لا يدعوهم إليه إلا المرح الحاضر. أواه ! لم يحبه منهم أحد، ولم تشعر واحدة من القيان بعاطفة الحب نحوه؛ غير أن النسوة لا يعنيهن إلا الفخفخة والجاه، فهذان هما وحدهما معبود النساء. إنهن كالفراش لا يجتذبهن إلا البريق واللمعان؛ وإن مامون (إله الثروة والغنى) ينتصر حيث تُخفِق الملائكة.

-١٠-

وكانت لا تشيلد هارولد أمّاً، لم ينسها قلبه؛ ولكنه لم يشأ أن يودعها قبل الرحيل. وكانت له أخت يعزها، ولكنه لم يرها قبل بدء سفره. وإذا كان له أصدقاء، فإنه لم يقّبلْ منهم أحداً قبلة التوديع. ومع هذا فلا تحسبن من هذا المسلك أنه كان ذا قلب من الصخر الصلد: أيْ هؤلاء الذين تعرفون ما معنى الحب! إنكم تشعرون تماماً بما يجره على قلبكم من عذابٍ هذا التوديع الأليم؛ إنه ليحطم القلب الذي تود هذه النفوس الحبيبة أن تأسو جراحه.

-١١-

قصره وممتلكاته، وإرثه، والغواني الباسمات اللائي آنس عندهن السرور، واللواتي تستطيع عيونهن الزرق النجل، وغدائرهن الجفال الناعمة، وأكفهن الناصعات البياض

كالثلج، أن تزعزع قداسة الراهب القانت؛ هؤلاء اللاتي غدين شهوته الواسعة الفتية. ثم كؤوسه المترعة الصهباء وأرق التسنيم؛ ثم كل هذه الأشياء الداعية إياه إلى انتهابِ اللذات؛ كل هذا قد فارقه دون أن يزفر زفرة أسف على فراقه؛ ولم يعد يفكر إلا في اجتياز البحار، واجتياب بلاد الوثنيين (الشرق)، والعبور بخط الاستواء، متلظياً بشمسه المحرقة.

-١٢-

انبسط الشراع، وهبّت ريح رقيقة وكأنها سرت بحمله من بلاده عبر البحار. وسرعان ما اختفت الصخور البيض أمام ناظريه، وفنيت في زبد أثاره الموج في عُرض الأفق. ولعله تحسّر هنالك على أنه ودّ الرحيل، ولكن هذا الخاطر ظل صامتاً مطوياً في أعماق صدره، فلم تنبس شفتاه بأية شكاة، بينا ذرف باقي الراكبين الدموع، شاكين إسراع وفد الريح في هياج مفرط صخاب.

-١٣-

وما أوفت الشمس على الانحدار إلى أعماق الماء، حتى اجتذب طنبورَه الذي كان يحسن عليه العزف، وضرب عليه نغمات غير متقنة، حين خيل إليه أنه ليس ثمة أذن غريبة تصغي إليه: وها هي ذي أنامله تعبث بأوتارها، مرددة وداعه في وقت الأصيل الشاحب الكئيب. وكانت السفينة تطير على الجُوديّ بجناحها الناصع كالثلج، وتراءات لناظريه الشطئان وهي تتراجع بسرعة. فأرسل اتشيلد هارولد لحن "وداعه" الأخير:

-أ-

وداعـــــــاً!وداعـــــــاً! بـلاد الحِـــــــــمى
عـلـى المـاء تـخـــــــــفـين تحت الـزبـد
ريـاح المســــــــاء لـهـــــــا زفـــــــرة
ولـلـمـــــــــوج قـــــــرعٌ طـويـل الأمـــــــد
ويـصـــــــرخ طـيـــــرٌ ؛ وشـــــــمس بـدت
تـهـــــرول نـحـــــو مــغـــــيـبٍ وعـــــد :

سـلامـاً إلـيك وأرضِ الحـمـى
سـلامـاً يـردِّدُ حـتـى الأبـد!

-ب-
وعـمـا قـليـل يـعـود الـسـنـا
سـنـا الـصـبحِ يـعـلـو الـذرى والـوهـاد
أحـيي الميـاه ، أحـيي الـسـمـا
ولـسـت أحـيي الحـمـى والـبـلاد!
وقـصـري الجـمـيل ، لقـد أقـفـرت
مـقـاصـيـرهُ وخـبـا الإتِـقـاد
وعـشـبُ غـريـب عـلا وجـهـه
وكـلـبـيَ يـنـبـح عـنـد الـوصـاد

-جـ-
هـلـمَّ ، هـلـمَّ ، رفـيـقـي الأمـين (١)!
لمـاذا الـبـكـاء ، عـلام الأنـين ؟
أتـخـشـى مـن المـوج طـوفـانـه ؟
أم الـريح تـخـشى لـديـهـا المنـون ؟
دع الـدمـع يـنـضـب في نـبـعـه
فـإن الـسـفـين رشـيـق مـتـين
يـكـاد يـنـافـس فـي سـيـره
مـن الـطـيـر كـل سـريـعٍ مـبـين

-د-
"- دع الـريحَ تـهـزم في مـوجـهـا!
فـلا المـوجَ أخـشـى ولا ذى الـريـاح :

(١) أخذ بيرون معه أحد أبناء مزارعيه ؛ ولكنه رده إلى وطنه ثانية في طارق ، بعد أن مرض شوقا على وطنه كما مرض من دوار البحر .

ولـكـنْ ، رئـيـسيَ ، لا تـعـجـبن
إذا كـنـت أبـدو مـهـيـض الجـنـاح
فـإنـي تـركـت أبـاً حـانـيـاً
وأمـاً لـهـا كـلّ حـبـي مـتـاح
ومـا مـن صـديـق لـدي سـوا
هـمـا غـيـركم وإله الـصـبـاح

-هـ-

"حـبـانـي أبـي خـالـصـاً عـطـفـه
وبـارك حـولـي بـصـبـر عـتـيـد
ولـكـن أمـي ، يـا ويـلـهـا !
سـتـشـكـو وتـنـحـب حـتـى أعـود"
"- كـفـى يـا غـلام ، كـفـى كـل ذا
خـلـيـقٌ بـعـيـنـيـك دمـعٌ يـجـود
إذا كـان قـلـبـي بـريـئـاً كـقـلـبـك
الـبـرَ مـا جـف دمـعـي الـصـديـد

-و-

"هـلـم ، هـلـمَ ، ولـيَ الـمـطـيـع!
لمـاذا أراك شـديـد الـشـحـوب ؟
أتـخـشـى الـفـرنـسـيـس (١) أعـداءنـا ؛
أتـفـزع مـن هـول ريـح هـبـوب ؟"
"ـ أتحـسـب أنـيَ يـا سـيـدي
مـن المـوت أجـزع ؟ لـسـت الـهـيـوب
ولـكـن زوجـاً عـلـى عـرسـه
يـظـل حـزيـنـاً إذا مـا تـغـيـب

---

(١) كانت انجلترا آنذاك (سنة ١٨٠٩) في حرب مع فرنسا أيام نابليون .

-ز-

ألا إن زوجي وأبناءنا
لدى قصركم ، سيدي ، يقطنون
بقرب البحيرة ؛ إن يسألوا
عن الأب ، أي جواب يكون ؟"
"– كفاك ، كفاك وليَّ مطيع
فمن ذا يلوم على ذي الشجون ؟
ولكنني مرح هازل
أسرُ لهذا الفرار المبين

-ح-

فمن ذا ، بأنّه محبوبة
وزوج ، تكون لديه الثقة ؟
فعما قليل يجفف من
دموعها لذةٌ مشرقة
وليس أساي على ما مض
من اللهو أو لرؤىً مقلقة
ولكن همي أن لا أرى
ورائي شيئاً يحق المقه

-ط-

وهأنذا في الدُنى مفردُ
أجوب البحار بريح عليْ
لماذا أساي على آخر
ولا فرد في الكون يحنو عليّ
لعل كلابي تعوي ، إلى
مجيء غريب بخبز شهيّ

فـــــإن غـــــــبت عنهـــــــا طويـلاً نـزت
عـــلـــيَّ كــــــــــــأنــيَ لـســت الــوفــيَّ

-ي-

نـفــــــــرَ ســـــــريعــــــــاً علـى مــــــــزبـد
من الموج . . يا مـــــركـــــبي المســــــرعــــا
هــــلــمــي إلــى أيمــا مــــــــــــــــوطــن
تـشـــــانيـنـه مــــا عــــدا المخــــــدعـــــا
إلـيـك ســـــــــلاميَ يا مــــــوجــــــتي !
وإن غــــبت يا مـــــوطـني البـلـقــــعــــا
إلـيـك وداعـيَ ! يـا قــــــــــــفــــــــــرتــي
كــــهـــوفي وقـــصــــري ، وداعــــاً مـــعـــا

-١٤-

غـابت الأرض. وطار المركب تتـقـاذفـه الرياح الهـوج في خليج بسكاي العـاصف. وهاهي ذي أيام أربعـة قد انقضت؛ وما أطل الخـامس، حتى تبدى شاطئ جديد أشاع النشوة في كل القلوب.

فـهـا هي قنة جبـل اسنترا [١] تحـيـيهم وهم في طريقـهم، بينمـا نهـر التـاج [٢] يدفع الجزية للبحر من مائه الذهبي المتدافع إلى الأعماق؛ وسرعان ما وثب ملاح برتغالي على ظهـر السفينة كيـما يقودها خلال شواطئ تتنزى بهـا قـوى الخصب والنمـاء، ويقـوم فـيـهـا نفر من الفلاحين بالحصاد.

-١٥-

بأي سحر تتأمل العين كل ما أبدعته السماء من أجل هذا الجو الجميل! وأي فاكهة شهـية تتراقص عليها الألوان فوق كل الأشجار! أي مناظر غنية تترا ءى من فـوق أعالي

(١) سنترا مدينة بالبرتغال على مسافة ١٥ ميلاً شمال غربي لشبونه .

(٢) نهر التاج يصب في المحيط الأطلسي ويخترق البرتغال واسبانيا . ويوجد قليل من الذهب في رماله ؛ ولكن بنسبة قليلة . وتلك حقيقة كان يعرفها الأقدمون من الرومان ، إذ ذكرها بليني وكاتلوس وأوفيد ؛ لذا نرى الشعراء الرومان والمحدثين يتغنون بذهبه .

الروابي! ما هذه الأيدي الدنسة التي أتت كيما تخرب هذا الاقليم البديع؟ آه! حينما يضرب الله العليّ بيده الجبارة هؤلاء الذين يتحدون قوانينه، ويخرقون أوامره العليا، سيقذف بسمانه النارية جحافل الغال [١]، منتقماً منهم أشنع انتقام، ومطهراً الأرض من أعدائه القساة.

-١٦-

أي جمال تَكَشَّفَ عن لشبونة من النظرة الأولى! إن صورتها لتسبح فوق هذا التيار النبيل الذي صوّره الشعراء مبسوطاً برمال من الذهب. ولكن أمواجه تحمل الآن آلاف السفن ذوات القوة الهائلة، منذ أن صارت ألبيون حليفة البرتغال، هذه الأمة المليئةُ بالكبرياء والجهل، والتي تُقَبّلُ وتكره اليد التي تحمل المهنّد كيما تنقذها من براثن سيد بلاد الغال الذي لا يرحم.

-١٧-

ولكن الداخل هذه المدينة التي ترف من بعيد كأنها سماوية، يحس بالألم وخيبة الأمل وهو يجوس خلالها بين كثير من الأشياء التي تقتحمها عين الغريب، لأن القصر والكوخ كليهما يبدو كريهاً تقذى به العيون. وساكنوها البائسون يخوضون في الأقذار، فلا يحفل أحدهم، كبر مرتبة أو صغر، بنظافة قميصه أو سترته، وحتى لو أصابهم الطاعون، لظلوا في أقذارهم وا لغين غير مكترثين.

-١٨-

يا لهم من عبيد بائسين! وإن كانوا قد ولدوا وسط أجمل المناظر وأسماها- لماذا إذن، أيتها الطبيعة، تبدّدين نعمك على أمثال هؤلاء؟ إن جنة سنترا الرائعة لتبتدى أمامنا في مناظر من الروابي والأدواء باهرة الألوان. أوّاه ! أية يد تستطيع أن تقود

(١) يشير هنا إلى زحف الجيش الفرنسي بقيادة جينو على بلاد البرتغال ولكنه صد بفضل سير آرثر ولسلي قبل وصول بيرن إلى لشبونه ببضعة أشهرة .

القلم أو الريشة كيما تصور ولو نصف ما يتراءى للعين من مناظر أشد إثارة للدهشة والفتنة من تلك التي وصفها الشاعر [1] الذي فتح للناس مبهورين أبواب عليين.

-١٩-

ههنا صخرة وعرة يتوجها دير قوطي؛ وهنا أشجار الفلّين تظلل بأغصانها هاوية تحف بها الشجيرات؛ وعلى الجبل بساط من طحلب سوّته سماء قائظة؛ وصغار الشجر يزين وادياً عميقاً لم تنفذ إليه يوماً أشعة الشمس، وزرقة المحيط المستوية، وقلائد العقيان وهي تتدلى من أوراق أشجار البرتقال الخضر، والسيول الهابطة في توثب من الصخور إلى الأوداء، والكرم الزاحف على منحدرات الروابي، والسرو المترجِّحُ على شاطئ الينابيع، كل هذا يساهم في تحميل هذا المنظر الساحر وتنويعه[٢].

-٢٠-

ثم أصعدْ الشِّعْبَ الملتويَ بأناة، وأدر طَرْفَكَ مراراً كيما تتأمل ما تراه، ومن الصخور العالية انفضتْ مناظر رائعة جديدة، ثم استرفه عند معبد "سيدة الآلام" [٢]، حيث يعرض عليك الرهبان الزهاد بقايا الصالحين المقدسة، ويروون للغريب مختلف الأساطير: هنا عوقب الفساق، وفي تلك المغارة عاش هونوريوس سنين طوالاً، آملاً أن يستحق الجنة بجعله الأرض جحيماً.

-٢١-

وهنا وهناك وأنت تصعد الشعاب تشاهد صلباناً خشنة النحت، ولكن لا تحسبنّ أنك بهذا ترى قرابين للتقوى، إنما هي آثار واهية لغضب سفاك. فحيث نزف دم الفريسة

---

(١) كتب بيرون إلى أمه يصف منطقة سنترا قائلا : "إنها أبهى منطقة في كل أوربا ؛ ففيها جمال من كل وصف ، طبيعي وصناعي . فالقصور والمدائن تقوم وسط الصخور والشلالات والهوى ؛ والأديار تشرف على المرتفعات الشامخة ؛ . ومن بعيد يتراءى البحر ونهر التاج" .

(١) يرى معظم الشرائح أن الإشارة هنا إلى دانته في الردوس (القسم الثالث من "الملهاة الإلهية") ؛ وقد تكون الإشارة أيضاً إلى ملتن في الفردوس المفقود (نشيد ٢٤ أبيات ١٣١-٩٦٥) كما يلاحظ . مورس (في نشرة مكملن ، لندن سنة ١٩٠٥ ، ص ٧٧ من الجزء الأول) .

(٢) يقوم دير "سيدة الآلام" (أو العقاب) على قمة صخرة ؛ وعلى مقربة من هذه الصخرة وعند أسفلها يوجد دير كورك ، حيث احتفر القديس هونوريوس مغارة قضى بها السنين الطوال من عمره . والقديس هونوريوس هذا راهب مشهور في هذه المنطقة ، توفي سنة ١٥٩٦ وهو في سن التسعين ، وليس هو القديس هونوريوس المشهور أحد كبار آباء الكنيسة .

ولكن بيرن قد أخطأ في فهم الاسم الإسباني لهذا الدير إذ معناه "سيدة الصخرة" لا "سيدة العقاب" ؛ وتدرك هذا الخطأ في تعليقه على الطبقة الثانية ، ولكنه لم يشأ أن يغير النص .

البائسة تحت سكين السفاك، نصبت أيد صليباً من الأغصان الجافة. والأوداء والخمائل مليئة بهذه الذكريات الحزينة، في هذا البلد المضرج بالدم، حيث لا قانون يحمي الحياة[1].

-٢٢-

وعند منحدر الروابي أو أعطاف الوادي ترى قصوراً كانت من قبل مساكن للملوك، ولكنها اليوم خاوية لا تزهر من حولها إلا النباتات الوحشية البرية، ولم يعد يتحدث عن مجدها القديم إلا بقايا من الأطلال. هناك يقوم قصر أمير البرتغال الجميل. وأنت، يا ابن البيون الثري، فاتك [2]!، هنا أيضاً قد أعقمت جنّتك، ناسياً أننا، حين يغدق علينا الحظ والثراء الأهوجان كنوزهما، لا نستطيع أن ننعم بالسلام السعيد الوديع إلا إذا تجنبنا مغريات الشهوة الغدارة.

-٢٣-

وهنا أنشأت تضع تصميمات اللهو، تحت رَيْدَ هذا الجبل المتشح دوماً بالجمال. ولكن قصرك اليوم قد عاد خالياً وحيداً مثلك، وكأنه مناخ غير مبارك فيه للإنسان: فالأشواك الكثيفة لا تكاد تسمح ببلوغ مخادعك المهجورة، أو أبوابك المفتوحة دائماً. وفي هذا عبرة جديدة لقلب متعظ: ما أشد بطلان اللذات على الأرض، ما دام الزمان الذي لا يرحم يغوص بها في سيله الجارف!

---

(١) " من المعروف أنه في خريف سنة ١٨٠٩ حدثت اغتيالات في شوارع لشبونه وما حولها ؛ ولم يكن الضحايا من الوطنيين وحدهم ، بل إن بعضاً من الانجليز قد اغتيلوا أيضاً . وبدلاً من القضاء على هذه الجرائم نصح لنا بعدم الاشتراك في المنازعات التي نشهدها ، حتى لو رأينا أحداً من أبناء وطننا يهاجم . وقد حدث ذات مرة وأنا ذاهب إلى المسرح أنني أوقفت في الساعة الثانية مساء . وهي ساعة تغص فيها الشوارع بالناس ، وكنا أمام دكان مفتوح ، وكنا اثنين في العربة . ولحسن الحظ كان معنا سلاحنا ؛ وإلا كنا نحن موضوعاً لقصة ، بدلاً من أن نكون رواة لها . وليس أمر الاغتيال قاصراً على البرتغال ؛ بل في صقلية ومالطة يُخْتَقُ الانجليز إبان الليل ، ولا يُعاقَبُ أحد من الصقليين أو المالطيين" (تعليقة بيرن)

(٢) يشير هنا إلى قصة "فاتك" لوليم بكفورد التي كتبها في الأصل بالفرنسية ثم ترجمت إلى الإنجليزية . وهي قصة شرقية قصيرة ، يصفها بيرن في تعليقته الأخيرة على "جياور" فيقول . . إنها تفوق كل تقليداتها في أوربا ، بما فيها من دقة في الأسلوب وجمال في الوصف ، وقوة في الخيال" .

-٢٤-

تأمل البهو الذي اجتمع فيه الزعماء منذ حين! أواه! إنه قبة تقذى بها عين كل بريطاني[1]! فمن هذا العدو القزم السافر باستمرار، الذي يحمل تاج الحماقة؟ إنه يجلس هناك متدثراً بثوب من البرشمان وإلى جواره قد علق خاتم وسجل أسود كتب عليه أسماء فرسان معروفين، وتوقيعات عديدة يشير إليها هذا القزم الماكر ضاحكاً ساخراً منها بكل قواه.

-٢٥-

"العهد" هو الجني القزم الذي سخر من الفرسان المحتمين في قصر مريلفا: فقد استطاع أن يسلبهم عقولهم (لو كانت لهم حقاً عقول)، وأن يحيل السرور الطافح للأمة إلى حزن وحداد. فجندلت الحماقة تاج الظافر، وكسبت السياسة ما خسر السلاح. فليت الغار يزكو عبثاً لرؤسائنا هؤلاء! وويل للظافرين لا للمقهورين، ما دام النصر قد أهين على سواحل البرتغال.

-٢٦-

ومنذ اجتماع هذا المؤتمر العسكري، تفزع بريطانيا من اسمك، أي سنترا! والذي بيدهم مقاليد الأمور صاروا يقشعرون فزعاً وتشرق ألوانهم، لو كان في نفوسهم موضع لحياء. ماذا سيسمي أبناؤنا هذا العمل الشائن لمحمِّلٍ بالعار؟ أو لن ينظروا هم وأبناء أحلافنا إلى هؤلاء القواد المحرومين من كل أمجادهم نظرة احتقار وازدراء؟ إن الأعداء المهزومين في المعركة قد صاروا منتصرين في هذا القصر، الذي أصبحنا فيه هدفاً لسخرية الأمم في مستقبل الزمان.

-٢٧-

تلك كانت خواطر اتشيلد هارولد، وهو يسير خلال الجبال متأملاً في وحدة. وإن جمال هذه البقاع ليبعث فيه نشوة السحر؛ ولكن ها هو ذا يفكر في الفرار منها، فإنه قلب في قلقه أكثر من السنونو المحلق في الهواء. وها هو ذا فريسة لخواطر حزينة فإن

(١) وقعت اتفاقية سنترا في قصر مركيز مريلفا. فبعد أن هزم جينو قائد الفرنسيين في فميرا على يد ولسلي، حاول الفرنسيون أن يحصلوا على شروط معتدلة من خَلَفِهِ سير هيو دالرمبل، فوقعوا معه اتفاقية سنترا هذه التي أثارت ثائرة الانجليز، لأن فيها تساهلاً مع الفرنسيين.

هارولد لم يفرض الصمت على التأمل البارد: بل لامه صوت باطن على تبديد شبابه في حماقات شائنة. ولكنه حينما أراد تأمل الحقيقة، غشّت على مقلتيه المخضلتين بالدمع سحابة سوداء.

-٢٨-

إلى الجواد! إلى الجواد! وها هو ذا يفارق إلى الأبد بقعة سلام [١]، مع أنها بلسم لروحه: فقد استيقظ من أحلامه، ولكن هذا ليس من أجل أن ينشد الشهوة أو الكأس. إنه يفر، غير عالم بعد أي مأوى سيلجأ إليه كيما يستريح من أسفاره. ولا بد له من المرور بآلاف المناظر قبل أن يشبع نهمه للترحال، أو قبل أن يسود الهدوء في صدره، أو قبل أن تحنّكه التجارب.

-٢٩-

ولكن مفراً [٢] تستحق منه أن يتوقف قليلاً، هنا حيث أقامت قديماً ملكاً البرتغال البائسة [٣]، وحيث اختلطت الكنيسة بالبلاط، وتبودل القداس والرقص المعربد، والتحم جمع شاذ من الرهبان والأعيان. ولكن فاجرة بابل [٤] قد أقامت هنا قصراً بلغ من الفخامة حداً جعل الناس ينسون الدم الذي أهدرته، ويركعون أمامها، أمام تلك التي عرفت كيف تُضفي على جرائمها طلاء من الذهب.

-٣٠-

سرّح انشيلد هارولد طَرْفَهُ المجذوب في أكناف هذه الأودية الخصبة والروابي الحالمة. آه! لماذا هذه البقاع الفاتنة لا تؤوي إلا شعباً من العبيد ! للجبناء الغارقين في البطالة

---

(١) بعد أن أقام بيرن عشرة أيام في لشبونة ، أرسل أمتعته إلى جبل طارق عن طريق البحر هي وبعض الخدم ؛ وركب هو ورفاقه خيولهم منتحين ناحية اشبيلية .

(٢) مفر مدينة على مسافة ٣٠ ميلاً شمال غربي لشبونة ؛ وتحتوي على قصر ودير وكنيسة فخمة . "والأرغنات الستة التي رأيتها في هذه الكنيسة هي أجمل ما رايت . ولكن لم يكن في استطاعتنا سماعها ؛ إنما أكدا لنا أن أصواتها جديرة بجمالها وفخامتها . ومفراً تدعى اسكوريال البرتغال "(من عليقة بيرن) .

(٣) كانت قد أصيبت حينئذ بالجنون .

(٤) الإشارة هنا إلى "نبوءة يوحنا" ، أصحاح ١٧ :٥ "على جبينها كتب اسم ، سره : بابل العظيمة ، أم الزانيات وينبوع الفسق في الأرض" . والكلام هنا عن روما الوثنية .

والرخاوة أن ينعتوا الرحلات بأنها حماقة، ولهم أن يدهشوا من أن ثمة نفراً جسوراً يغادر الحشايا الناعمة كيما يجابه المتاعب ويواجه مشاق الأسفار الطوال! إن في هواء الجبال لعذوبة ورقة وجمالاً لن يعرفها مطلقاً الكسلُ الوسنان.

-٣١-

ذُرى الجبال يعلوها البياض وتفنى في الأفق البعيد. والأدواء الأقل خصوبة، ولكنها أشد بهجة، تتراءى أمام اتشيلد هارولد: إن هذه السهول الشاسعة لا يحيطُ بها إلا الأفق وعلى مدى الأبصار، تدرك العين مملكة الأسبان حيث يقود الرعاة هذه القطعان المشهورة بصوفها الفاخر. لكن يجب على الراعي اليوم أن يتسلح كيما يستطيع حماية حملاته. إن عدواً مخيفاً قد اجتاح اسبانيا: فعلى جميع سكانها أن يناضلوا، أو يتحملوا أهوال الاستبداد.

-٣٢-

في المنطقة التي تلتقي فيها البرتغال بأختها (أسبانيا)، أتعرف أي حدود تفصل بين المملكتين المتنافستين؟ وهل فصل التاج بتياره الجارف الهائل قبل أن تنفصل هاتان المملكتان الغيوران؟ أو هل هي سلسلة جبال سيرا مورينا المتكبرة التي تشمخ بصخورها العاتية؟ أم هو حد أقامته الصناعة، كسور الصين العظيم؟ كلا! إنه ليس سوراً أقامه الناس، ولا نهراً واسعاً عميقاً، ولا صخوراً مريعة، ولا جبالاً شامخة كتلك التي تفصل شبه الجزيرة عن بلاد الغال.

-٣٣-

كلا؛ إنه نهر صغير ذو موج فضي يكاد أن لا يحمل اسماً، وشطئانه الزاهرة تنتسب إلى كلتا المملكتين. هنا ينحني الراعي على عصاه متأملاً في فراغه الأمواج الهادئة وهي تجري بين الشعبين المتعادين. وأقل الفلاحين الاسبان له من العزة والكبرياء ما لأنبل الدوقات، فيعرف الفارق بينه وبين العبد من أهل البرتغال، هؤلاء الذين هم أشد العبيد وضاعة ومسكنة (١).

(١) في سنة ١٨١٢ أضاف بيرن هذه الحاشية: "لقد وصفتُ البرتغاليين كما رأيتهم آنذاك. ولكنهم تقدموا منذ ذلك الحين، على الأقل من ناحية الشجاعة. فالأعمال الأخيرة التي قام بها لورد ولنجتن قد محت مخازي سنترا. أجل لقد فعل المعجزات، فلعله قد غير من أخلاق هذه الأمة، ووءام بين الخرافات المتنابذة، وقهر عدواً لم ينسحب مطلقاً أمام آخرين".

-٣٤-

وغير بعيد عن هذا الحد الواهي، يدير نهر جواديانا الصاخب قوته في أمواج داكنة مزمزماً واسعاً، كما تغنت به من قبل أناشيد الأقدمين. وعلى شاطئيه احتشدت جيوش المغاربة والفرسان وعليهم دروعهم اللامعة. وهنا توقف أسرع الغزاة [١] وسقط الأبطال، وانحدرت عمامة المسلم وخوذة النصراني في النهر المدمّى الطافح بالجثث الطافية.

-٣٥-

إيه اسبانيا العزيزة ! ايها البلد الحالم المشهور! أين اللواء الذي حمله پيلاچيو، حينما دعا والد كاڤا [٢] الخائن عصبة المحاربين الذين ضرجوا بدماء القوط جداول جبالك؟ أين هذه البنود الدامية التي نشرت فوق رؤوس أبنائك، والتي توجها النصر فطردوا المهاجمين المعتدين حتى سواحلهم السود؟ لقد أحاطت بالصليب هالة من الأرجوان؛ وعلا الهلالَ شحوب، حينما رددت أصداء أفريقيا صرخات الأمهات الأليمة في مراكش.

-٣٦-

إن الملاحم الشعبية لتروي بعدُ هذه الأعمال المجيدة. وهذا، ويا للأسف! أجمل مصير يلقاه المحارب: فحين يتهدم المرمر، وتفقد سجلات التاريخ، تخلد أناشيد الرعاة ذكرى على وشك أن تموت. أيها الرجل المتكبر التيّاه، تجاسر على تأمُّل نفسك: انظر كيف يبلغ الأبطال مسامع الخَلَفِ في أغنية.أو تأمل أن تخلّد الكتب والأعمدة

(١) هو نابليون .

(٢) كافا "هي ابنة الكونت جوليان ، هيلانة اسبانيا . لقد حافظ بيلاجيو على استقلاله معتصماً بجبال استوريا ، وبعد بضعة قرون رأت ذرية رفاقه مجهوداته وقد تكللت بغزو غرناطة" (تعليقة برن) .

والإشارة هنا إلى كيفية فتح العرب لإسبانيا ، بأن استنجد الكونت جوليان بالعرب لكي ينصروه على رودريك الذي هتك عرض ابنته فلورنده ؛ إذ ما كاد يسمع جوليان بالعار الذي لحق ابنته بينما كان يدافع عن سبتة ضد العرب ، حتى تحالف مع موسى بن نصير وعاونه على غزو العرب لشبه الجزيرة الإسبانية .

والتماثيل ذكراك وأمجادك؟ وهل تحسب أنك لا بد واثق بلسان الرواية البسيط، حينما يرقد معك في قبرك متملقوك، ولا يفيك التاريخ مالك من حقوق؟

-٣٧-

هبوا إذن يا أبناء أسبانيا! ألا فلتهبوا! إلى الأمام! أصيخوا إلى الفروسية، إلاهتكم القديمة، وهي تستنفركم. إنها لم تعد تحرك بعدُ، كما كانت تفعل من قبل، رمحها العطشان، وإن نبضتها لم تعد مزينة بريشها القرمزي في الهواء: إنها اليوم تطير في دخان صواعقكم الملتهبة، وتتحدث بلغة الرعد في زئير هذه الآلة. وهي تصيح في كل زمجرة قائلة: "هبوا! هبوا!". فهل صوتها أشد ضعفاً منه حينما كانت أناشيدها الحربية تتردَّد على سواحل الأندلس؟

-٣٨-

أصغِ! أولا تسمع صوت هذه السنابك بنغمتها المخيفة وقعقعة السلاح على المروج؟ أولا ترى هؤلاء الذين يرديهم حد الظباة الدامية؟ ألا تنفر كيما تنقذ إخوانك قبل أن يسقطوا صرعى للطغاة عبيداً لهم؟ إن نيران الموت والقنابل الملتهبة تتطاير من كل مكان. وإن كل طلقة لتتردد من صخرة إلى صخرة منبئة بأن آلافاً قد فارقوا الحياة. آه! إن الموت ليركب متن الريح الشرقية المحملة بالكبريت، وإن "المعركة" الحمراء لتطبع قدميها، والأمم تنتابها هذه الصدمة العاتية.

-٣٩-

انظر إلى هذا المارد الجبار (إله الحرب) قائماً فوق الجبل؛ إن ذوائبه مضرجة بالدم القاني في الشمس المتوهجة؛ وفي يديه سهمانُ الموت ترفّ في قوة واختيال؛ وعينه تذيب كل ما تقع عليه، وتدور في غير انقطاع، حينا ثابتة، وحيناً ترمي بالشرر. وعند رجليه قد جلس "الخراب" كيما يسجّل ما يحدث من ويلات: فإن ثلاث دول قوية ستتلاقى هذا الصباح [1] كيما تصب على مذبحة الدم الذي يتبينه ويراه أعذب ما يريد.

---

(١) في معركة تلفيرا التي التقت فيها جيوش ولسلي الإنجليزية بالجيوش الفرنسية . فقد قامت الجيوش الفرنسية بهجوم هائل على مواقع الإنجليز في ٢٨ يوليو سنة ١٨٠٩ ، ولكنه صد . وكانت معركة مخيفة قتل فيها سبعة آلاف من الإنجليز . ولم يشهد بيرن المعركة ، مع أن رحلته من لشبونه إلى اشبيلية تقع في نفس الشهر ، ولكنه لم يكن قريباً كل القرب من ميدانها .

-٤٠-

يا للسماء! ما أجمل هذا المنظر عند من ليس لهم فيهم أخ ولا صديق، وكم يلذ له أن يتأمل ألويتهم المختلفة الألوان، وأسلحتهم البراقة في نور النهار! يا لهم من كلاب حرب هبتْ من مغارتها وأحدّت أنيابها، وهي تصيح من أجل فريستها! كلهم يشارك في الصيد، وقليلون من يظفرون بحظهم من الانتصار؛ وسيضم القبر خيرتهم، ولا يكاد إله المذابح أن يستطيع إحصاء قتلاهم من فرط سروروه.

-٤١-

ثلاثة جحافل تحتشد لتقديم هذه الضحايا الدامية؛ ثلاثة ألسنة ترسل أغرب الصيحات إلى أعلى السماء؛ وثلاثة ألوية زاهية ترفرف تحت قبة السماء الشاحبة؛ وتتعالى صيحات فرنسا وأسبانيا وأنجلترا هاتفة كلٌّ بالانتصار!

لقد اجتمع العدو والفريسة، والحليفة العزيزة التي تحارب من أجل الكل، ولكن عبثاً- كل هؤلاء قد احتشد جمعهم في سهل تلفيرا، وكأن الموت لم يكن ليأخذهم في مساكنهم- كيما يكونوا غذاءً لجوارحِ الطير، وكيما يخصبوا الحقول التي يصطرعون من أجل الاستيلاء عليها.

-٤٢-

فرائس الطمع هؤلاء - إنهم هنا سيصيرون فرائس للدود! أجل... إن الشرف سيجلل المرج المشتمل على رفاتهم! يا له من دَجَلٍ عجيب! إنني لا أرى في هؤلاء غير آلات بائسة حقيرة يضحي الطغاة [1] بالآلاف منها، حينما يتجاسرون على أن يعبِّدوا بالقلوب الإنسانية طريقهم - إلى ماذا؟ - إلى حلم فحسب. هل يستطيع الطغاة أن يحيطوا بما يدين لهم بالولاء؟ أو هل يستطيعون أن يدَّعوا حقاً أن بقعة من الأرض لهم، غير تلك التي أفعموها بالعظام فوق العظام؟

(١) يشير هنا إلى نابليون ؛ ولعله يشير أيضاً إلى وليم بت ، ورئيس وزراء انجلترا حينئذ .

-٤٣-

إيه يا ألبويرا [١] ! أي ميدان الأحزان المشهور ! حينما دفع الرحالة (اتشيلد هارولد) بجواد، فوق سهلك المنبسط، من كان يظن أو يتنبأ أنك ستصير عما قليل مسرحاً يتلاقى فيه المتعادون كيما يتفاخروا ويسفحوا دماءهم؟ سلام على أرواح المقتولين! ألا ليت الدموع المذروفة على هؤلاء المحاربين تخلد ذكرى أمجادهم! إن اسمك يا ألبويرا سيظل تردده الجموع المشدوهة، وسيظل يرفُّ في أغانٍ زائلة، حتى تقع ضحايا أخرى في ميادين أخرى.

-٤٤-

كفى هذا عن عبيد الحروب! دعهم يقامرون بحياتهم، ويزهقون أرواحهم في سبيل الشهرة: الشهرة التي لا تكاد تقدر على إحياء بقاياهم في التراب، ولو أن الآلاف يسقطون في حومة الوغى كيما يرفعوا اسم واحد فحسب. ولكن من القسوة أن نزجر هؤلاء الذين سقطوا من أجل خير وطنهم، وأن نلومهم على غايتهم النبيلة، وهم يموتون لأن الحياة كانت ستصبح عاراً بالنسبة إليهم، لو أنهم قتلوا في ثورة داخلية، أو سلكوا سبيل النهب الوحشي الضيق.

-٤٥-

ثم تابع هارولد طريقه المتوحدة مهرولاً بشدة نحو البقاع إلى أنِفَتْ فيها أشبيلية الخضوع للغزاة [٢]. إنها لا تزال حرة، هذه المدينة التي رام هؤلاء أن يجعلوا منها فريسة لهم طيبة. ولكن الغزو سرعان ما سيشق طريقه إليها، وسرعان ما سيجلل قصورها الناصعة بآثاره الجارفة الهدامة. ساعة لا مفر منها ! عبثاً يحاول المرء الكفاح ضد القدر، حينما يأتي الخراب فيحل هو وأبناؤه الجائعون مكاناً آمناً. ولو كان في الوسع تجنب أحكامه، لما حل الدمار بإليون [٣] وصور، ولانتصرت الفضيلة على كل العقبات، ولدالت دولة الاغتيال.

---

(١) وقعت هذه المعركة في مايو سنة ١٨١١ ؛ ولهذا فإن هذه الفقرة لا تنتسب إلى الصيغة الأولى لهذه القصيدة ، إنما أضيفت إليها بعد عودة بيرن إلى انجلترا .

(٢) لم يدخل الفرنسيون أشبيلية إلا بعد زيارة بيرن لها بستة أشهر ، فتحققت حينئذ نبوءته .

(٣) إليون ، قلعة في طروادة بناها إلوس ، أحد ملوك طروادة ، ومن هنا سميت بهذا الاسم ؛ ولكنها تستعمل غالباً للدلالة على طروادة نفسها ، كما هنا . ويظن بعض المؤرخين أن المدينة كانت تسمى إليون ، وأن المنطقة المجاورة هي التي كانت تسمى طروادة .
أما صور فمدينة قديمة من مدن الفينيقيين ، بناها أهل صيدا ؛ وقد حافظت على استقلالها حتى زمن الاسكندر الأكبر الذي استولى عليها عنوة بعد حصار دام سبعة أشهر في ٢٠ أغسطس سنة ٣٣٢ ق .م .

-٤٦-

ولكن أهلها غير شاعرين بهذا المصير، فتراهم في الأعياد والأغاني والملاهي غارقين. و الساعات تمضي وسط ألوان من العربدة غريبة. إنهم لا تدمى قلوبهم لجراح وطنهم. فلا يسمع صوت نفير الحرب، بل لحن قيثارة الأحبة. هنا المجون قد استعبد مريديه؛ والدعارة ذات العينين الفتيتين تتجول جولاتها الليلة؛ والشهوة تسود وتبسط سلطانها حتى نهاية أسوار أشيلية المتداعية، وفي رفقتها جرائم العواصم السرية.

-٤٧-

على خلاف هذا، الحال في الريف؛ فرجل القرية يختفي في حمى أمين هو وحبيبته، ويخشي أن يمد طرفه الباكي إلى بعيد، خوفاً من أن يرى كرومه وقد خربت أو دمرت من فعل نيران الأعادي. آه! لم يعد الوقت وقت رقص في ضوءِ نجمة المساء، رقص "الفندنجو" (١) بمسايرة الصنج المرح. آه، أيها السلاطين، لو أنكم تستطيعون تذوق اللهو الذي تفسدونه، إذن لما ذهبتم وراء المجد تكدون في تحصيله، وإذن لما عكر صوت الطبل الأصحل القبيح صفو النوم، ولنعم الإنسان بالسعادة والسلام.

-٤٨-

بماذا يتغنى المكارى الشديدة الأسر؟ أيتغنى بالحب والمغامرات أو العبادة، كيما يرفه عن نفسه في طريقه الشاق الطويل، على صوت الجلاجل المعلقة في رقبة بغلة؟ كلا، إنه لا يتغنى بعد إلا بهذه الصيحة "يحيا الملك" (٢)، ثم يتوقف عن الصياح كيما يلعن جودواى، والملك القديم شارل، واليوم الذي رأت فيه ملكة أسبانيا الفتى ذا العيون السود، ونشأت الخيانة الملطخة الوجه بالدم من غرامها الفاجر.

---

(١) رقصة أسبانية بطيئة الخطوات من ٦ إلى ٨، تُرَقَّصُ بمسايرة صنجات؛ ويظهر أنها من أصل مغربي عربي.

(٢) "يحيا الملك فرناندو !" هذا هو القرار الذي يتكرر في معظم الأغاني الوطنية في اسبانيا؛ وهي أناشيد تكاد كلها أن تكون موجهة ضد الملك القديم شارل، والملكة زوجته وأمير السلام. وأنا قد سمعت منها كثيراً، وكانت عذبة الألحان. أما جوداوي، أمير السلام، فقد ولد في باداخوث على حدود البرتغال؛ وكان في البدء في الحرس، فلفت نظر الملكة، صار دوق الفوديا، الخ. والإسبان يعزون خراب وطنهم إلى جوداواي هذا" (بيرن).

-٤٩-

في هذا السهل المنبسط الفسيح الذي تتوج الصخور مشارفه، هنا حيث أقام المسلمون أبراجهم، شَقَّقَتْ سنابك الخيل الأرض الدامية؛ والمرج الكابي من فعل النار يشهد بأن العدو قد حل إقليم الأندلس: فها هنا قد نصب معسكره، وأذكى نيران الحراسة، وأقام الجحافل والطلائع، وها هنا عصف الفلاح الشجاع بغار المراقب الكامن في مَرْبأته؛ وهو لا يزال ينظر إلى هذا المكان بأنفة وشموخ، ويشير إلى هذه الصخور التي كثيراً ما فقدت واستردت.

-٥٠-

كل من تلقى خلال الطرقات يحمل في قبعته شارة [١] قرمزية اللون، تنبئك إذا كانَ صاحبها عدواً أو صديقاً. وويل لمن يجرؤ على الظهور أمام الناس دون هذا الرمز الصادق على الخلاص! إذن سرعان ما يشحذ الخنجر، وتنهال عليه الطعنات. ولو أن الخناجر المخفاة تحت المعاطف استطاعت أن تفل السيوف أو تبدد دخان المدافع، إذن لكان العدو الغالي (فرنسا) قد طُرِدَ شر طردة.

-٥١-

وعلى مدى النظر ترى كل صخرة من صخور مورينا تحمل ثلة من المدافع؛ وإلى أقصى مدى يبلغه البصر، تشاهد القنابل والطرقات المقطوعة، والحواجز الشائكة، والشقوق المغمورة بالمياه، والكتائب المدججة السلاح، و الحراسة الساهرة باستمرار ومستودعات السلاح والذخيرة وقد شقت في الصخر، والجواد المسرجُ تحت ظل تعريشة، والقذائف المتراكمة على هيئة أهرام [٢]؛ والنيران الموقدة على الدوام تنبئ أنهم في انتظار الأعداء.

-٥٢-

و هذا الذي نظرة منه كافية كيما تهوي بالملوك عن عروشها؛ قد تلبث لحظة قبل أن يرفع صولجانه؛ وعما قليل ستستطيع فيالقه أن تشق لنفسها طريقاً خلال هذه

(١) الشارة الحمراء التي كتب عليها اسم الملك فرنندو .

(٢) "كل من رأوا ثلة مدافع (بطارية) يذكرون أن القنابل تنظم على هيئة هرم . وقد كانت سيرامورينا مغطاة باستحكامات في كل المضايق والشعاب التي مررت بها في طريقي إلى أشبيلية ." (تعليقة بيرن) .

العقبات الواهية؛ وسيضطر الغرب إلى المثول أمام داهية العالم. آه! أي أسبانيا! كم سيكون كئيباً ذلك اليوم المخيف الذي سترين فيه أبناءك يسّاقطون جماعات في هاوية الفناء، بينما تبسط حدأة الغال أجنحتها المريعة.

-٥٣-

أو يجب أن يسقطوا صرعى، هؤلاء الشبان الجسورون الباهرون والجلال من أجل أن يشبعوا نهمة طاغية منتفخ بشهوة السيادة والسلطان؟ أليس ثمة طريق بين العبودية والقبر؟ بين قيامِ السلب والنهب وبين سقوط أسبانيا؟ وهل "القوة" التي يعبدها الناس تأمر بإفنائهم، ولا ترعى توسل المستغيث؟ وهل كان ما تفعله القيمة العليا والشجاعة العنيدة يذهب أدراجَ الرياح؟ وهل تذهب عبثاً حكمة الحكماء، والغيرة الوطنية ومهارة الكبار، وحماسة الصغار، وقلب الرجولة الفولاذي؟

-٥٤-

أمن أجل هذا علقت الفتاة الأسبانية، بعد أن استيقظت، قيثارتها المرتخية الأوتار على شجرة الصفصاف؛ ونسيت جنسها، فحملت خنجراً وأنشدت أنشودة عالية، وقذفت بنفسها في أتون الحرب؟ وهذه التي كانت تمتلئ رعباً من مجرد رؤية جرح، وتستشعر الروع من نعيب البوم، اصبحت اليوم لا تكاد تتأثر من رؤية لمعان السيوف واصطراع حراب البنادق، وصارت تطأ بقدميها الجنود المحتَضَرين، وتسير بخطا مينرفا حيث يرتاع إله الحرب نفسه من المسير.

-٥٥-

وأنتم يا من ستعجبون حينما تستمعون إلى قصتها [1]، لو عرفتموها في ساعاتها العذبة، ولاحظتم سواد عينها الذي يفوق سواد نقابها الفاحم، ولو سمعتم أنغامها العذبة الحية تتجاوب بها خمائل الغرام، ورأيتم غدائرها الطوال التي تتحدى

(١) الإشارة هنا إلى فتاة سرقسطه ؛ وهي فتاة جميلة في الحادية والعشرين ؛ لما رأت جيشها سقط في حومة القتال، أخذت مكانه عند المدفع، وكان ذلك في الحصار الذي أقيم سنة ١٨٠٨، ثم رفع ؛ ولكن الفرنسيين أعادوا الكرة بقوة أكبر، حتى استولوا على سرقسطه في سنة ١٨٠٩. وبيرن يقول في التعليق : "فتاة سرقسطة التي رفعتها شجاعتها إلى أعلى مراتب البطولة. وحينما كان المؤلف في أشبيلية، كانت تتمشى يومياً على شاطئ البرادو، مزينة بالأوسمة والميداليات التي أهدتها الخونتا إليها".

قوة الفنان، وقوامها السحري وجاذبيتها التي تفوق كل أنوثة، لو عرفتموها في كل تلك الأحوال، هل كنتم تظنون أن أبراج سرقسطة ستراها يوماً تبسم عند اقتراب الخطر وفي وجهه الرهيب، وتتأمَّر على صفوف المحاربين، وتقود قنص المجد المريع؟

-٥٦-

حبيبها يسقط صريعاً- فلا تذرف دمعة ليس هذا أوانها؛ رئيسها يقتل- فتشغل مكانه المليء بالأخطار؛ رفاقها يولّون الأدبار- فتعترض سبيل فرارهم الخائر الرعديد؛ العدو ينسحب- فتندفع على رأس الظافرين. فمن يستطيع خيراً منها أن يهدئ ثائرة شبح الحبيب؟ من ذا يستطيع مثلها أن ينتقم لسقوط القائد؟ من يقدر مثلها أن يبعث الأمل في نفوس البائسين؟ من ذا الذي طارد العدو الهارب (فرنسا) الذي صرعته يد امرأة، وألجأه إلى سور، وانهال عليه عنده بأعنف الضربات؟

-٥٧-

ولكن فتيات أسبانيا لسن جنساً من الأمزونات[١] ولكنهن خلقن لكل أنواع الحب الساحرة: فعلى الرغم من أنهن ينافسن أبناء أسبانيا في حمل السلاح وخوض غمار الوغى، ويتخذن مكانهن وسط صفوف الكتائب المسلحة، فإن حماستهن الحربية ليست إلا عنف الحمامة الحنون التي تنقر اليد التي تمتد إلى رفيقها. إنهن أسمى من فتيات بقية البلدان بما فيهن من رقة وشجاعة معاً. بينما الأخريات لسن مشهورات إلا بثرثرتهن الجالبة للأوصاب. إن عقول فتيات أسبانيا أعظم نبلاً، وسحرهن أعظم قدراً ونفوذاً

-٥٨-

إن النونة التي طبعها بنان الحب [٢] على خدها الأسيل لتكشف عن نعومة الذقن

(١) الأمزونات جنس من النسوة المشهورات ، كن يسكنّ قرب نهر ثرمودون في كابودوكيا ؛ وكن يقضين حياتهن كلها في حروب وتمرينات رياضية عسكرية ؛ وكن لا يتصلن بالرجال ؛ ولكنهن كن ، من أجل الذرية وحدها ، يزرن سكان المناطق المجاورة لبضعة أيام قلائل ، وما يلدن من ذكور كن يبعثن بهم إلى آبائهم ، وبعضهم يقول إنهم كانوا يقتلون بمجرد الميلاد ؛ أما الأناث فسكن يربين في المنزل خير تربية . ولهن مغامرات حربية عظيمة في آسيا الصغرى مع اليونان وبقية الشعوب حتى كانت لهن امبراطورية ضخمة . وبنين مدناً عظيمة منها أزمير ومغنسيا وأفسوس .

(٢) كتب إلى أمه يقول : "إن الشعور السود الطوال ، والعيون السود الفاترة اللحظ ، ولونا زيتونيا ناصعاً ، وأشكالاً كلها رشاقة في الحركات لا يستطيع ادراكها الانجليز الذين تعودوا المظهر الناعس الفاتر لبيئات وطنهم ، ثم كل هذه الهبات الطبيعية التي زاد من جمالها أروع الزينة وأعفها معاً ، كل هذا يجعل جمال الفتاة الإسبانية فيه إغراء لا يقاوم" .

التي تحمل شفاها تشتاق قبلاتها لمغادرة عشها، وتأمر الحبيب أن يكون شجاعاً مقداماً حتى يكون جديراً بها. يا لوحشية جمال نظراتها! عبثاً حاولت الشمس أن تسلب بشرتها بضاضتها، وخدها حرارته وهو يتوهج بلطف من مسها الغرامي. فمن ذا ينشد بعد هذا غادات الشمال الشاحبات؟ كم تتبدى صورهن شاحبة إلى جوارهن ! وكم يتراءين واهنات ناحلات ذابلات!

-٥٩-

وأنت أيتها الأجواء التي لذّ للشعراء التغني بها! أنت، يا حريم البلاد! أنت يا من فيك أضرب الآن على قيثارتي محيياً من بعيد هذا الجمال الذي لا يستطيع انكاره جاحد غير مكترث. وهذه الحوريات، اللائي لا تكادون تسمحون لهن بتنسم الهواء الحر الطليق مخافة أن يطير إليهن الحب على أجنحة الرياح، هل يمكن أن يقارن بفتيات أسبانيا ذوات العيون السود؟ ألا فلتعترفوا بأن هناك (في أسبانيا) الجنة التي وعد بها نبيكم الحكيم، ففيها الحوريات ذوات العيون السود اللائي يشبهن الملائكة.

-٦٠-

وأنتَ يا جبل [1] البرناس، يا من أراه ماثلاً أمامي الآن، لا في أطياف الخيال ورؤيا الأحلام، ولا في المناظر الخلابة التي تزورها قصيدة شاعر، ولكني أراك بكل جلالك محلقاً تجللك الثلوج في سماء وطنك، وعليك فخامة وحشية وروعة جبلية! فهل من عجب إذن في أن أحاول الآن الغناء؟ إن أشد حجاجك تواضعاً لا يستطيع أن يمر بك دون أن يهز أوتاره كيما يناغي أصداءك، على الرغم من أنه لم تعد ثمة موسٌ واحدة ترفرف بأجنحتها فوق أعاليك.

(١) هذه الفقرة التالية قد ألفتْ في كاستري (دلف) عند حضيض جبل البرناس الذي يحمل اليوم اسم لياكورا. "فبينما كنت أصعد البرناس لزيارة ينبوع دلف (كاستري) في سنة ١٨٠٩، رأيت سرباً من اثني عشر نسراً (ويزعم هوبهوس أنها كانت حدأة) فتفاءلت بها خيراً. وفي المساء أنشأت الأشعار الموجهة إلى البرناس في اتشيلد هارولد، فرؤية الطير جعلتني آمل أن يتقبل أبولون صلواتي. ذلك أنني قد ذاع عني أنني شاعر، في الفترة ما بين العشرين والثلاثين من عمري؛ فهل يستمر هذا؟ تلك مسألة أخرى. ولكني قمت بحجة إلى الإله (أبولون) وإلى مقامه، ولاقراري بما أسدى إليَّ من خير حتى اليوم، أضع مستقبلي بين يديه كما وضعت ماضي" (بيرون، "اليوميات"، سنة ١٨٢١).

-٦١-

كم ليلة طوَّفتَ في أحلامي ! إن من يجهل اسمك الماجد، يجهل أسمى حكمة الإنسان. وهأنذا أراك الآن، ولكن، ويا آسفاه! لا أستيطع عبادتك و لا الصلاة لك إلا بنغمات ضعيفة عاجزة حتى امتلأت نفسي خجلاً. إنني حين أذكر عبادك الأقدمين، أقشعر وأرتعد، ولا أقوى على الركوعِ أمامك؛ فلا أقدر على رفع صوتي، ولا أتاسر عبثاً على التحليق، إنما أظل أحدق تحت أسجافك من السحاب، يغمرني سرور صامت لأني أرى نفسي أخيراً ماثلاً بين يديك!

-٦٢-

إنني في هذه اللحظة أعظم سعادة من كل هؤلاء الشعراء الممتازين الذين قيدهم القدر في أماكن بعيدة؛ فهل أرى هذه الأماكن المقدسة والمناظر الخالدة التي لم يستطع الآخرون أن يروها إلا في الأحلام والأماني دون أن يبصروها عياناً– هل أراها دون أن تمتلئ نفسي تأثراً؟ فعلى الرغم من أن أبولون لم يعد يسكن بعد مغارته[١]، وأنك، يا من كنت من قبل مقام الموسا، لم تعد بعد غير قبرها،– فإن روحاً نورانية لطيفة لا تزال تشيع في هذا المقام، تزفر مع النسيم وتصمت في الكهوف وتنزلق بقدم زجاجي على[٢] موجك الصادح.

-٦٣-

سأعود إليك مرة أخرى. لقد قطعت نشيدي كيما أقدم إليك فروض عبادتي لك في هذا المقام. لقد نسيت أسبانيا بأرضها وأبنائها وفتياتها ومصيرها الحبيب إلى كل نفس حرة وقلب أبيّ، وأرسلت إليك بالتحية أيها الرجل الرائع، مذرفاً عبرة. فعوداً إلى موضوعي إذن؛ ولكن اسمح لي بأن أحمل معي من مقامك المقدس الطاهر ذكرى

---

(١) كان معبد أبولون في دلف يحتوي على مغارة ، كانت تنبت منها أبخرة كبريتية منها كانت بينياً ، كاهنة أبولون في دلف ، تستمد وحيها ؛ فقد كانت تجلس على كرسي ذي ثلاثِ أرجل فيه ثقب منه يأتي بخار تستنشقه الكاهنة ، فيصيبها الوحي ، وتلمع أعينها فجأة ، ويقف شعرها ، وتسري في كل بدنها قشعريرة هائلة ؛ وفي هذه الحالة تنطق عن وحي الإله أبولون .

(٢) يقصد به ينبوع كستاليا ، وهو ينبوع في جبل البرناس ، مقدس للموسا ؛ وكانت مياهه عذبة باردة ، لها القدرة على إلهام من يشربون منها وفيهم نار الشعر المقدسة . وقد نسبت الموسا إليها فلقبت باسم الكستاليات .

وتذكاراً، فهبني ورقة من شجرة دَفْنيه الخالدة [١]، ولا تدع أمل من يدعوك يذهب سدى.

-٦٤-

ولكنك أيها الجبل الرائع، لم تر في أجمل أيام اليونان جوقة تحف بقاعدتك الهائلة لها مثل هذا الجمال؛ ولم تر دِلْفَ، أيام أن كانت كاهنتها تغني أغنيتها البيثاوية تحت إلهام قدسي، زمرة من العذراوات أخلق بإلهام أنشودة الغرام من فتيات الأندلس اللاتي نُشِّئْنَ في جو من اللذات العذبة الناعمة. آه! ألا ليتهنَّ يسكن هذه الظلال الآمنة التي لا تزال تحويها بلاد اليونان، على الرغم من أن المجد قد نفى منها.

-٦٥-

ما أبهج إشبيلة الباسلة ! دع وطنها يمجد قوتها وثروتها وأصلها العتيق [٢]. غير أن قادس، التي تقوم على الساحل البعيد، تستحق إطراء أعذب ولكنها أقل نبلاً. آه! أيتها الرذيلة، يا لشدة إغراء سبلك الشهوانية...! من ذا يستطيع، حين يجري فيه دم الشباب حاراً فائراً، أن يفر من فتنة نظراتك الساحرة؟ إنك تطاردينا على هيئة حية ذات محيا كمحيا الملك، وتتشكلين بأشكال عديدة وفقاً لأذواقنا معشر البشر.

-٦٦-

حينما سقطت بافوس صريعة للزمان- الزمان الملعون! الذي يجب أن تعنو له رقبة الملكة التي يعنو لها العالم بأسره- فرت اللذات كيما تنشد جواً حاراً كهذا الجو ؛ وفينوس التي لم تكن مخلصة يوماً لشيء، قد أخلصت للبحر الذي ولدت منه، فتنازلت وسمحت بأن تختار قادس مقاماً لها، وأن تقيم عبادتها في المدينة ذات

(١) دفنيه ، هي ابنة النهر بنيؤس أو النهر لادون (في أركاديا) من الإلهة ترا (الأرض) أحبها أبولون ، وطارحها أحاديث الغرام ، ففزعت كل الفزع . وحاولت التخلص من مضايقاته بالفرار ؛ فطاردها ، فلما خشيت من أن يلحق بها . توسلت إلى الآلهة سائلة معونتها ، فأحالوها إلى شجرة غار . فتوج أبولون هامته بأوراق شجرة الغار هذه ، وأمر بأن تصبح هذه الشجرة مقدسة أبداً لعبادته .

(٢) أنشأ اشبيلية الفينيقيون ؛ واستولى عليها قيصر ؛ وكانت عاصمة القوط قبل طليطلة .

الأسوار البيض: إن أسرارها وطقوسها يُحتفل بها في كل المعابد، وتقدس لها المذابح التي يحرق لها فيها النار المقدسة على الدوام[1].

-٦٧-

فمن مطلع الصباح حتى منتصف الليل، ومن الليل حتى اللحظة التي يضيء فيها الفجر الخجول المضرج الخد بالحمرة جماعاتِ اللهو المرحة، تسمع المغامرات الغرامية الرقيقة، وتضفر أكاليل الورد، وتهيء الألعابَ الجميلة الفراهات المتجددة. ألا فلتقولوا وداعاً لزمان طويل للذات الحكيم الهادئة، أنتم يا من أتيتم للإقامة بقادسَ. لا شيء يقطع حبل المسرات الصاخبة؛ وبدلا من التقوى الحقيقية، يحرق البخور الديراني وحده، ويجتمع الحب والصلاة متناوبين السيادة في النهار.

-٦٨-

جاء يوم الراحة. فعلى أي نحو يُحتفل على هذا الساحل المسيحي باليوم المكرس للراحة التقية؟ إنه مكرس لعيد جليل. أصغ! أولا تسمع زئير ملك الغابة؟ إنه يحطم الرماح، ويجندل بقرونه الإنسان والجواد، مستنشقاً نافجة الدم المنزوف، والجمع المحتشد يصفق مطالباً بالمزيد. إن هذه الجماعة المجنونة تصفق مسرورة برؤية الأشياء النابضة وقد تمزقت؛ والمرأة لا تشيح بوجهها ولا تغض طرفها عن هذا المنظر، بل ولا تتظاهر بالتألم له.

-٦٩-

هذا هو اليوم السابع، يوم العيد للإنسان. أي لندن! إنك تعرفين جيداً يوم الصلوات هذا! هنالك ينسى متاعبَ الأسبوع ساكنوك المزينون، وصناعك المتدثرون بأبهى ملابسهم هم ومعاونوهم؛ وعرباتك وشرابك من الوسكي؛ والعربات ذوات المقعد

(١) "قادس، أي قادس العزيزة؛ إنها أبهج ما على الأرض. وإن جمال شوارعها ومنازلها لا يفوته جمال ساكنيها. وإن حسناوات قادس، التي تشبه كوتيرا (وهي جزيرة على ساحل لاكونيا في البولوبونيز، مقدسة خصوصاً للإلهة فينوس، فإن هذه قد انبعثت من البحر بالقرب من شواطئها، فيما يزعم البعض؛ ولهذا أصبحت مشهورة باعتبارها مقام الجمال)، وتضم أجمل نساء أسبانيا، أقول إن حسناوات قادس هن ساحرات لانكستر في وطنهن" (تعليقة بيرن).

الواحد وجراراتك المتواضعة وهي تسير في المناطق المحيطة بك من مشارف وأرباض: إلى همستد وبرنتفورد وهرو [1]، حتى يبلغ الإعياء بالجواد حداً لا تدور معه العجلات، فيبقى واقفاً في مكانه مثيراً سخرية من جانب المارة السائرين.

-٧٠-

ومراكب التاميرَ تحمل حسناوات مزينات بالشُّرُطِ الزاهية؛ وآخرون يفضلون السير في الطرقات؛ وفريق ثالث يصعد رابية رتشمند؛ وبعض يحلو له الذهاب إلى وير، وبعض آخر إلى منحدر هاجيت. فهل تسألين، يا ظلال بوئيتيا، عن العلة في هذا [2]؟ إنه من أجل عبادة القرن الجليل، المقبوض عليه بيد السر المقدسة، والذي يقسم باسمه المخيف الرجال والنساء على السواء، مسجلين أقسامهم بالشراب والرقص حتى الصباح[3].

-٧١-

لكلٍّ حماقاته؛ وحماقاتك لا تشبه حماقاتنا، أي قادس الجميلة، المنبثقة فوق البحر الأزرق القاتم! لا يكاد ناقوس الصباح يدق الساعة التاسعة، حتى يعد سكانك الأتقياء حبات سبحاتهم. إنهم يدعون العذراء (وأحسب أن العذراء الوحيدة إنما توجد هناك فحسب) كيما تخلصهم من ذنوب لا تقل في عددها عن المصلين لها. ومن هنا يهرعون إلى الملعب المزدحم، لا فرق في هذا بين الشاب والعجوز والكبير والحقير، كلهم يشارك في هذا اللهو الخطير.

-٧٢-

الملعب مفتوح والساحة الواسعة مهيأة والآلاف المؤلفة جالسة أكواماً من حولها؛ وقبل أن يُسمع صوت النفير الأول، لا يبقى مكان خالياً لمن يأتي متأخراً. هنا قد

---

(١) ضاحية بالقرب من لندن ؛ وقد أمضى بيرن في هرو - على - الجبل شرطاً من دراسته الأولية .

(٢) "كنت في طيبة حينما كتبت هذا ؛ ولهذا كنت في خير مكان أستطيع فيه أن أضع هذا السؤال وأن أتلقى عنه الجواب ؛ وإني لا أعتبر طيبة هنا وطن بندار ، ولكن أنظر إليها باعتبارها عاصمة بوئيتيا ، التي اقترح فيها أول الغزو وفسر" (تعليقة بيرن) .

(٣) يوجد في حانات قرية هايجيت قرنان مقدسان ، والغريب الذي يأتي هذه القرية لأول مرة يجبر على أن يحلف على هذه الشارة الرمزية هذا القسم : "أقسم ألا أعانق الخادمة إذا كنت أستطيع معانقة سيدتها ؛ وبألا أشرب الجعة الحقيرة إذا كنت أستطيع أن أشرب الجعة الممتازة . . ." ويسبق هذا القسمَ بمراسمُ غريبة .

احتشد الدونات والكبراء، وخصوصاً السيدات البارعات في إرسال النظرات الغرامية الماكرة، وإن كن مع ذلك متأهبات لشفاء الجراح التي تحدثها نظراتهن: فلا يُقَدَّرُ لامرئٍ أن يموت من هذا الاحتقار البارد الذي يشكوه غالباً الشعراء المجانين الذين يتغنون بقسوة سهام الغرام.

-٧٣-

أطرق الكل وصمتت الألسنة. وأربعة فرسان زينت هاماتهم بشريط ناصع البياض، وفي أرجلهم مهمازات ذهبية، وبأيديهم رماح خفيفة، ركبوا خيولاً وتهيأوا لهذه الأعمال الخطرة؛ وها هم يتقدمون في الساحة بانحناءة رشيقة، وأوشحتهم الثمينة ترفرف في الرياح، وجيادهم تتواثب بلطف وبراعة. فإن برزوا اليوم في هذه اللعبة الخطرة، تهاوت عليهم صيحات الجمع الحاشدة ونظرات السيدات الفاتنة: فيالها من مكافأة جميلة على فعال ممتازة، مكافأة طالما تاق الملوك والمحاربون إلى الحصول عليها.

-٧٤-

ومصارِعُ الثيران الرَوْل يلبس فاخراً من الثياب ومعطفاً زاهياً، ولكنه واقف على قدميه دائماً في منتصف الساحة، يتحرق شوقاً إلى مهاجمة سيد القطعان الخائرة (الثور). ولكنه يبدأ بالتجوال في الساحة بقدم حذرة متفطنة، مخافة أن يعوق جريَهُ السريع عائق غير متوقع: أما سلاحه فمزراق، ولا يصارع إلا من بعد، فإن الإنسان لا يستطيع أن يفعل أكثر من هذا بدون الجواد المخلص الذي يدعه الإنسان، ويا أسفاه! يتحمل وحده الجراح.

-٧٥-

ردد البوق ثلاثاً، وتبدت الإشارة، وفتح غار الثور، وتلفت التوقع الصاحُت حول الساحة الخرساء بأسوارها الغاصة بالناس. وها هو ذا الحيوان المخيف يثب وثبة هائلة مفاجئة، وينظر حواليه بنظرات وحشية، واطئاً الساحة الرملية بظلف ساخر. إنه لا ينقضّ على خصمه بطريقة عمياء، بل يهدده أولاً بجبهته ذات القرون السامقة كيما

يحكم هجومه الأول، ويثبت الضربة التي سيصرعه بها ، منزنزاً ذيله الغضوب ذات اليمين وذات الشمال، وفي عينيه نار تتأجج.

-٧٦-

وفجأة يقف، ويرامق خصمه بمؤخر عينه. الفرار، الفرار، أيها الفتى المتهور لذ بالفرار أو هيِّء مزراقك: هذه اللحظة للموت، أو لإظهار مهارة في وسعها بعد أن تنجيك من غضبه ! إن الفرسان الأزوال يجيدون تفادي ضرباته في اللحظة المناسبة. وها هو ذا الثور يزبد، ولكنه لا يتراجع أمام الضربات التي تنهال عليه؛ وفيض من السيل القاني (الدم) يسيل على جوانبه؛ وإنه ليفرّ، ويضطرب محموماً من آلام جراحه؛ فتتهاوى عليه المزاريق وتنوشه الرماح، الرماح؛ وينبعث منه خوار رَجّاس يعبر عن آلامه الهائلة.

-٧٧-

و ها هو ذا يعود؛ فلا مزراق ولا رمح يفيد، ولا تخلصات الجواد المعذب. وعبثاً يهاجمه الرجال بقوتهم وسلاحهم، فسلاحهم لا يجدي وقوتهم ليس فيها غناء. وجواد من جيادهم قد خر صريعاً يفرش الأرض بجثته المجندلة؛ وجواد خر قد شُقّ جانبه، ويا للمنظر المريع! وكشفت أضلاعه المحطمة عن أحشائه وينبوع حياته؛ ولكنه على الرغم من هذا الجرح القاتل، يتحمل بدنه الواهن الخائر، حاملاً، وهو يتمرغ، سيفه وقد أُنقذ من موت محقق.

-٧٨-

أما الثور فقد وقف في منتصف الساحة متأهباً للمصارعة من جديد، على الرغم من أنه يتصبب دماء، وهو مبهور الأنفاس؛ ولكنه متحدّم جياش بالغضب حتى النهاية، متلبياً مترصداً وسط الجراح والمزاريقِ الرنانة والرماح المحطمة، والأعداء العاجزين في هذه المعركة الوحشية. وهاهم مصارعو الثيران يدورون حوله الآن، محركين معاطفهم الحمر ومزاريقهم المتأهبة. وهاهو ذا يشق طريقه الرجّاسَ وسطهم جميعاً مرة أخرى.

ولكنها فورة غضب لا نفع فيها؛ فإن يداً خائنة قد أطلقت المعطف ونشرته فغطى عينيه المتأججتين. فكانت نهايته: وإذا به مجندل على الرمال.

-٧٩-

بقي حديد المزراق المسموم مغروزاً في مجتمع العنق الفلطاحة مع الرأس. إنه يتوقف، إنه يترنح، متأبياً أن يتقهقر؛ وها هو ذا يسقط وسط عاصفة من الصياح بالنصر، دون أن يرسل زفرة أخيرة، ويموت دون حشرجة. وإذا بعربة مزينة أفخم زينة تتقدم، فيوضع عليها جثمان الثور الثقيل. يا له من منظر رائع يروق في عيون الدهماء! وأربعة جياد لها من السرعة بقدر ما لها من الهلع تعض على لجمها، حاملة هذه الكتلة الثقيلة التي لا تكاد تُرى وسط هذا الزحام.

-٨٠-

تلك هي الرياضة الوحشية التي تجمع غالباً فتيات الأسبان، وتسر الراعي الأسباني. هذا الراعي الذي ألف منذ بعيد رؤية الدم يسيل، لذا يهتز قلبه غبطة، فرحاً بالانتقام، ويرى، دون أن يتأثر، آلام الناس. كم من منازعات شخصية ضرجت بالدم منازلهم الهادئة! وعلى الرغم من أنَّ جيشاً عرمرماً قد احتشد ضد الغاصب، فقد بقي كثير من الإسبان بعيدين عن معسكرات القتال، كيما يشحذوا في السر الخنجر الذي يعاقب بالقتل أهون إساءة.

-٨١-

ولكن سلطان الغيرة قد دال؛ فالشباك الحديدية والمتارس والحارسات العجائز والمشرفات المبجلات قد زالت. فكل هذه الأشياء التي تثير ثائرة كل نفس نبيلة والتي كان يستخدمها الزوج الغيور الكالح كيما يحبس فيها زوجته السجين، قد ذهبت في ظلام العصر الخالي. فأية امرأة كانت أكثر حرية من المرأة الأسبانية الجميلة التي رآها الناس، حين ثار بركان الحرب ثورته الهائلة، ممشطة الشعر مقصبّة الذوائب، وهي تطأ المروج الخضر، بينما كانت النجمة الصديقة للعشاق تنير رقصها بشعاعها الفضي؟

-٨٢-

آه! كم من مرة أحب فيها هارولد، أو على الأقل اعتقد أنه أحب، ما دامت نشوة الحب ليست إلا حلماً ! ولكن قلبه الحزين قد صار اليوم لا يتأثر، لأنه لم يشرب بعد من نهر النسيان [١]؛ ولم يعرف إلا أخيراً أن الحب ليست له من هبة أثمن من أجنحته، فمهما كان من جمال المحبين وعذوبتهم ونضرة شبابهم، فإنه ينبعث دائماً من ينابيع اللذة العذبة سم ناقع يسيل بمرارته على الأزهار [٢].

-٨٣-

وعلى هذا فلم تَعْمَ عيناه عن فتون الجمال؛ لكنه أعجب بها كما يعجب العاقل الحكيم: لا لأن الفلسفة والحكمة قد تنازلت فتعطفت بنظراتها العفيفة الجديرة بالإجلال على عقل كعقله، ولكن لأن سَوْرَةَ الوجدان تنتهي بالسكون أو النسيان والفرار. والرذيلة، التي تحفر لنفسها قبرها الشهواني، قد دفنت منذ زمان آماله، وبددتها إلى غير رجعة. يا له من فريسة للذة يائسة! إن ظلمة الحياة المريعة قد كتبت على جبينه الشاحب تلك اللعنة التي أصابت قابيل ذا المصير البائس المضطرب.

-٨٤-

تأمَّلَ ما تأمَّلَ غير متأثر بما شاهد ولا هو مشاركُ الدهماءَ فيما هم فيه؛ إنما نظر إلى هذا كله نظرة ليس فيها حقد الكاره للبشر. ولعله قد كان يتشوق إلى المشاركة في الرقص والغناء، لو كان القدر الجاثم فوقه قد سمح له بالابتسام. لم يكن ثمة شيء فيما رآه قادراً على أن يسكن من أحزانه. غير أنه كان عليه يوماً أن يكافح ضد شيطان اللذات. ارتجل هذه الأبيات التي وجهها إلى مفاتن لا تقل روعة عن تلك التي خلبت لبه في سالف الأيام السعيدة:

---

(١) أو الليثيه ، أحد أنهار الجحيم ، الذي تشرب منه أرواح الموتى بعد أن تظل محبوسة زمناً في الترتاروس (أحر مناطق الجحيم التي يعاقب فيها أشد الناس إتياناً للذنوب والكبائر) ؛ ولمياهه القدرةعلى أن تجعلهم ينسون أي شيء فعلوه أو رأوه أو سمعوا به ، ومن هنا جاءت الكلمة اليونانية "ليثيه" أي النسيان .

(٢) "من أعماق ينبوع اللذات ينبثق صاب يخنق الأزهار" (لوكرتيوس) .

إلى إينز

-أ-

امسحي البسمة عن هذا الجبين
ليس في الوسع ابتسامي من جديدْ
وقاكِ الله من كل حزين
أو دموعٍ جارياتٍ لا تفيدْ

-ب-

تسأليني سر ما حُمِّل قلبي
من هموم قوضت صرح الشبابِ ؟
فلم التسآلُ عن جرحي وخطبي
أنت لا تدرين تخفيف عذابي

-ج-

ليس حبي ، ليس بغضي ، ليس فقدي
للذي أمَّلت في دنيا المطامعْ
هو ما يجعلني أكره جدي
أو أفر الآن مما كان رائعْ

-د-

لا أرى حولي سوى داعي الملال ؛
عن حياتي ، عن زماني لست أرضى ؛
لم أعد أحظى بمعنىً في الجمال ،
وفقدت السحر في عينيك أيضا

-هـ-

قلق مثل اليهودي المعنّى
في ضلال، ليس ما يشفى جراحه
فوراء القبر لا أبصر معنى،
غير أن قبل لا آمُل راحه

-و-

أي منفيٍّ تُرى ينبذ نفسه؟
رغم تجوالي بآفاق بعيدة
ظل شيطاني يساقي القلب كأسه
كأسه المملوء أفكاراً شريدة

-ز-

إن غيري في حمى اللذات يرعى
مستسيغاً كل ما نفسي تعافُهْ
آه! ليت الكل في الأحلام يسعى
دون أن يُوقَظَ، مثلي، من سلافه

-ح-

أُرغمت نفسي على التجوال دوماً
وعليها لعنة الذكرى تَحَوَّى
وعزائي بعد هذا صار علماً:
أن ما ألقاه قد عانيت أسوا

-ط-

لا تسل عن ذلك الأسوء! كلا
يا حبيبي لاتسل، أنت رحيمْ

ابتـــــــــــسم دومــــــــــاً ولا تــسعَ عــلـى
كـــــشف قلبي ، كي تـرى فـــيـــه الجـــحـــيمْ

-٨٥-

وداعاً، قادس العزيزة! وداعاً لزمان طويل! من ذا يستطيع أن ينسى كيف قاومت استحكاماتك بعزم وثبات؟ لقد بقيت أنت وحدك مخلصة بينما خان سائر الاسبان أيمانهم؛ وكنت أنت أول من تحرر وآخر من قهر ؛ وإذا كان دم سكانك قد سال في حماك في هذه الأيام المليئة بالجرائم والمخاطر، فإن خائننا واحداً [١]

قد سقط صريح الخنجر. أما الكل فكانوا نبلاء، ما عدا النبلاء أنفسهم؛ ولم يتعلق أحد من أهليك بعربة الغازي الفاتح، اللهم إلا فرساناً منحلين.

-٨٦-

هؤلاء أبناء أسبانيا. ما أعجب حظهم ويا أسفاه! إنهم يجاهدون في سبيل الاستقلال، وهم لم يكونوا يوماً أحراراً [٢]

إن شعباً حرم ملكه ليذود عن ملكيةٍ قد ذنست؛ وبينما يفر السادة، يموت الأتباع مخلصين لجبناء وخونة، معززين وطناً لم يتمتعوا فيه إلا بمجرد البقاء؛ ولكن الأنفة والحمية قد هدياهم سبيل الحرية؛ فإن صدوا، واصلوا الهجوم؛ إنهم ليصيحون دائماً: الحرب الحرب! الحرب على الدوام! سنخوض غمارها بالخناجر [٣].

-٨٧- [١]

وأنتم يامن تريدون أن تعرفوا اسبانيا والاسبانيين، اذهبوا فاقرءوا تاريخ معاركهم الدامي: إن كل ما يستطيع الانتقام الوحشي أن يوحي به ضد عدو أجنبي قد استعمل

(١) "الإشارة هنا إلى سلوك وموت سولانو ، حاكم قادس ، في مايو سنة ١٨٠٩" (بيرن) والواقع أن ذلك كان في سنة ١٨٠٨ لا في سنة ١٨٠٩ . وكان سولانو هذا قد رحَبّ بدخول الفرنسيين أسبانيا ، ولكنه قتل من بعد في ثورة .

(٢) الإشارة هنا إلى استبداد الملكية في اسبانيا .

(٣) "قتلا بالخناجر" ، هذا كان رد بلفووكس على الجنرال الفرنسي في حصار سرقسطة (عن بيرن) .

(٤) يذكرت . مور أن لورد بيرن قد حذف هنا فقرة هجائية فيها إشارة مباشرة إلى أشخاص ، ولهجتها أكثر الفة وتبسطاً من وصف يوم الأحد في لندن ، الذي يتضمن كثيراً من التفاهة المشوّهة لجمال القصيدة . وكانت هذه الفقرة ، التي كانت مكان الفقرة رقم ٨٧ ، تحتوي تهكماً موجهاً ضد الرحالة المشهور سير جون كار .

ضد جيوش فرنسا: فمن السيف البراق إلى السكين الخائنة، لم تدع الحرب سلاحاً لم تصنعه في أيدي الأسباني. ألا ليته يستطيع هكذا أن ينقذ أخته ورفيقته! وأن يروي أرض بلاده بدماء الغاصبين! وألا ليت المعتدين الظالمين في كل مكان ينالون مثل هذا المصير!

-٨٨-

تسأل: هل ثمة دمعة رحمة على الموتى؟ ألا فلننظر إذن إلى السهل الذي حل به الدمار، وإلى أكف النسوة وهي مخضبة بالدم القاني؛ لقد تركت الجثث التي لم توارَ في التراب إلى الكلاب، وظلت نهباً للحدأة، وإن كانت غير جديرة حتى بالطيور الجارحة. دع العظام المبيضة وآثار الدم غير المبيضة تنشر على ميدان القتال ذكرى مريعة، حتى يكون في وسع أبنائنا أن يدركوا المناظر التي رأيناها.

-٨٩-

ولكن هذا العمل المخيف لم ينته بعد، ويا أسفاه! فثمة فيالق جديدة تنحدر من جبال البرانس؛ وإنها لتتوغل شيئاً فشيئاً، ولم تكد الحرب تبدأ؛ فليس في وسع إنسان أن يتنبأ:

أين ومتى تكون النهاية. إن الدول المقهورة لترنو بأبصارها إلى اسبانيا؛ فإن تحررت، حررت من النفوس أكثر مما قيد رجلها القاسي بيثارو [١] وإخوته. جزاء عجيب! إن سعادة المناطق التي اكتشفها كولمبس تصلحُ المصائبَ التي حلت بأبناء كوتيو، بينما الوطن الأصلي (أسبانيا) قد أصبح فريسة للخراب والقتل.

-٩٠-

ولكن، لا الدم المسفوك في تلفيرا، ولا معجزات النضال في باروسا، ولا الموتى الذين ملأوا ألبويرا، قد استطاعتْ أن ترد إلى أسبانيا حقوقها المهضومة المقدسة. متى

(١) فرنشسكو بيثارو هو المخاطر الإسباني المشهور (١٤٧٥-١٥٤١) الذي استطاع بمساعدة أخويه جونالسي (١٥٠٢-١٥٤٨) وهرنندو (المتوفى سنة ١٥٦٧) غزو مملكة بيرو وتحطيم عرش الإنكا هناك، مما أدى إلى قيام الحكم الإسباني في أمريكا. أما كيتو فهي عاصمة بيرو القديمة؛ وقد ثارت على إسبانيا في سنة ١٨٠٩ حينما هاجم الفرنسيون اسبانيا.

يزدهر من جديد غصن الزيتون فيها ؟ متى تتنفس بعد هذا النضال الشاقّ الباسل ؟ وكم من الليالي ستمر وتفنى فيها الأيام المليئة بالمخاطر، قبل أن يعود الغاضب الفرنسي تاركاً فريسته؛ وقبل أن تُظِلَّ دوحة الحرية الغريبة الدار، البلادَ التي أنبتها ؟

-٩١-

وأنت أيها الصديق الرقيق [١] ما دام حزني غير المجدي ينبثق من أعماق قلبي ويمتزج بأناشيدي؛ لو أن السيف قد جندلك في زمرة الأبطال الذين سقطوا في حومة الوغى، إذن لكانت الكبرياء قد حرّمت الشكوى على الصداقة؛ ولكنك تهوي إلى القبر وليس على جبينك إكليل من الغار، منسياً من الجميع، اللهم إلا من قلبي المتوحد الشاكي؛ إنك لا تستطيع أن تُحشر في زمرة هذه الظلال الشامخة للمحاربين بين المقتولين وأن تريهم جراحك. وبينما توج المجد كثيراً من الرءوس التي هي أقل من رأسك قدراً، ماذا فعلت أنت كيما تستحق موتاً هادئاً كهذا ؟

-٩٢-

أي صيقدتي العزيزة القديمة [٢]: أنت من بعثت السلوى في قلبي المحروم من كل ما أحببت، إن كنت فُقِدَتِ من أيامي اليائسة، فلا تحرميني من رؤيتك في الأحلام! إن عودة الصباح ستحملني على تذارف الدمع سراً، حين ينتبه الشعور إلى أحزانه. إن خيالي يعلق فوق نعشك غير المخضب بالدماء، حتى يعود جسمي الضاوي من حيث أتى، ويصير الباكي والمبكيُّ عليه يبتغيان معاً راحة القبر الأبدية.

(١) هذا الصديق هو الأوتورابل جون ونجفيلد ، في الحرس الملكي ؛ وقد مات بالحمى في كويمبرا . وقد عرفتُه طوال عشر سنوات ، كانت النصف الأجمل من حياته ، والشطر الأسعد من حياتي أنا . أواه ! لقد فقدت في مدى شهر تلك التي أتت بي إلى هذا الوجود ، كما فقدت معظم الذين جعلوني أحتمل أعباء الحياة . وفي وسعي أن أطبق على نفسي بالدقة أبيات يونغ هذه : "أيها الرامي الذي لا يشبع ، ألا تكفيك فريسة واحدة ؟ لقد أطلقت سهمك ثلاث مرات ، وثلاث مرات" . ولربما كان عليَّ أن أكرس بضعة أبيات لذكرى شارلز كردت مثيوس ، خريج كلية دوننج فيكمبردج ؛ ولكنه كان فوق كل مدائحي ؛ إن سموَّ عقله لتشهد به الجوائز التي نالها في المسابقات مع أمهر مرشحي كمبردج . وعلامات التشريف هذه قد أقامت دعائم شهرته حيث حصلها ، ولا زالت شمائله الجميلة تحيا في ذكريات أصدقائه الذين سما حبهم له عن أن ينفس عليه سموه وامتيازه" (بيرن) . وقد كان ونجفيلد من زملاء بيرن في هرو .

(٢) الخطاب هنا موجه إلى أمه .

-٩٣-

تلك أنشودة من أناشيد أسفار اتشيلد هارولد! وأنتم يا من تريدون أن تزدادوا به معرفة، سترون بقية أنبائه في نشيد آخر إذا استطاع الشاعر أن يتابع إنشاده. أهذا القدر كاف؟ لا تقل هذا، أيها الناقد القاسي. ألا صبراً ! فستسمع أنباء ما رآه في بلاد أخرى قُضي عليه بالرحيل إليها، بلاد تشتمل على آثار الأقدمين، قبل أن تسحق أيد همجية بلاد اليونان وفنون اليونانيين.

النشيد الثاني

-١-

تعالَيْ عذراء السماء ذات العيون الزرقاء [1]... ولكنك، ويا أسفاه! لم تلهمي أية أغنية من أغانيَّ الفانية. إله الحكمة ! هنا كان معبدك قبل ؛ وهو لا يزال على الرغم من تخريبات الحرب وتدميرات النيران، وعلى الرغم من السنين التي عفت على عبادتك. ولكن النار والحديد والزمان نفسه لم تحدث من الدمار قدر ما أحدثه الشبح المخيف والسلطان الطاغي لهؤلاء الناس الذين لم يستشعروا مطلقاً الحماسة المقدسة التي تبعثها ذاكراك وذكرى معبدك في قلوب الشعوب المهذبة.

-٢-

أيتها المدينة العتيقة! أي أثينا! أين ذهب مواطنوك الماجدون، وأشرافك ذوو النفوس العالية؟ لقد ذهبوا ومضوا- ولم نعد نراهم إلا في أحلام الماضي السحيق. لقد كانوا السباقين في مضمار المجد، فبلغوا الغاية وظفروا ثم مضوا- فهل هذا كل شيء؟ إن أعمالهم قد صارت قصصاً تروى لطلاب المدارس، وصرنا نعجب بها كل العجب قدر ساعة نمضيها في سماعها! ولكن عبثاً نُنشد سلاح محاريبك وكراسي السفسطائيين الذين ينشئون أبناءك: فعلى أطلال أبراجك التي سوَّدها ضباب الأيام، يحلق ظل شاحب لعظمتك الخالية.

(١) الإشارة هنا إلى أتينيه ، إله الحكمة والحرب (مينرفا اللاتينية) ؛ وتنعت بأنها الإلهة ذات العيون الزرقاء ، جرياً على الترجمة غير الدقيقة لوصف هوميروس لها بوصف ، ومعناه الحقيقي ذات عين كعين البومة أو ذات العيون البراقة .

-٣-

ألا فلتهب، يا بن الصباح؛ اقترب إلى هنا. تعال- ولكن لا تعلن هذه الإجانة العزلاء. تأمل هذا المكان، إنه ضريح أمه؛ إنه مقام هؤلاء الآلهاتِ التي صارت مذابحهم مهجورة. لقد اضطر الآلهة أنفسهم إلى التسليم. وإن لكل دين دوره. فقد كان في البدء لجوبتر، ثم صار لمحمد؛ وستولد معتقدات جديدة في قرون أخرى، حتى يعلم الإنسان أن بخوره يحرق عبثاً وأن دماء الضحايا والقرابين يسيل سدى. يا له من ابن للشك والموت! إن آماله معلقة بعيدان واهية.

-٤-

إن الإنسان مشدود إلى الأرض، ولكنه يرفع رأسه إلى السماء. أيها الكائن المسكين ! ألا يكفيك أن تعرف أنك موجود ؟ وهل الحياة هبة ثمينة إلى حد يجعلك تطمح إلى الحياة مرة أخرى، وأنت تذهب، لست تدري إلى أين، بل ولست تحفل به، وإلى أي مكان ليس على الأرض بل في السماء؟ ألا تقف أحلامك بسعادة مستقبلة أوشقاءٍ سيكون؟ تأمل وزن هذا التراب قبل أن يذهب أدراجَ الرياح. إن هذه الإجانة الصغيرة تنبئك بأكثر مما تنبئك به آلاف الأناشيد الدينية.

-٥-

أو إن شئت فافتح، منقباً، هذه الأكمة التي رقد من تحتها بطل من الغابرين. إنه يرقد على الساحل المتوحش البعيد [1]. لقد خر صريعاً. فأتت الأمم التي أصيبت في عمود قوتها تنتحب حول ضريحه. أما اليوم فلم يعد يوجد واحد من سكان هذه البلاد البائسين يبكيه؛ ولم يعد يسهر هنا محاربٌ واحد، هنا حيث ظهر أنصاف الآلهة كما تروي الأقاصيص. انتشل هذه الجمجمة من هذه الأكوام المتناثرة: أهذا معبد يمكن أن يسكنه إله؟ إن الدودة نفسها قد هجرت أخيراً خليتها المحطمة.

(١) "لم تكن العادة المتبعة دائماً في بلاد اليونان إحراق الجثث ؛ فأجاكس العظيم خصوصاً قد دفن بجسمه كله . ومعظم الأبطال قد صاروا آلهة بعد موتهم ؛ والمحارب الوضيع الشأن هو من لم يكن يحتفل سنوياً بألعاب عند قبره ، أو من لم يقم مواطنوه أعياداً لذكراه ، مثل ما كان يفعل بالنسبة إلى آخيل وبراسيدس ، بل وأيضاً بالنسبة إلى أنطنيوس هذا الذي كان في موته من البطولة بقدر ما كان في حياته من عارٍ وشنار" (بيرن) .

أرأيت إلى هذا الرواق المكسور، وهذا الجدار الدارس، وهذه الأبهاء المهجورة وتلك الأبواب المظلمة؟ أجل، لقد كانت، مع هذا المقام العالي للطموح، وقصر الفكر ومعبد الروح. تأمل هذه المحاجر التي نزعت منها عيونها، هذا المأوى الحي للحكمة والموعظة الحسنة، والوجدانات العالية التي لم تقبل الخضوع ولا الإذلال. فهل يستطيع كل ما كتبه القديسون والحكماء والسفسطائيون أن يسكن هذا البرج الخاوي أو يرمم هذا المأوى المهجور؟

-٧-

صدقت كل الصدق فيما قلت يا أكبر حكماء أثينا: كل ما نعرفه هو أننا لا نعرف شيئاً. فلماذا نرتاع محجمين عن كل ما لا نستطيع تجنبه؟ لكل آلامه؛ ولكن الرجل الضعيف الهيابة ينوح على آلام خيالية من نسج أوهام دماغه. فلنبحث عما يقول عنه الحظ أو القدر إنه الأحسن؛ إن السلام ينتظرنا على شاطئ الأشيرون [١]. هناك، لم تعد ثمة مأدبة تقام يرغم فيها الضيف الشبع على الجلوس؛ ولكن الصمت يهيء هنا مرقداً لراحة تستهوي النفوس.

-٨-

أما إذا كان الأمر كما ظن بعض الحكماء الذين قالوا إن وراء الشاطئ المظلم (القبر) مأوى للأرواح، مناقضين بهذا رأى الصدوقيين والسفسطائيين المتباهين حمقاً بشكوكهم – فكم سيكون جميلاً أن نمجد إلهاً رحيماً مع هؤلاء الذين خففوا من محننا الإنسانية! كم سيكون جميلاً أن نستمع إلى هذه الأصوات التي نخشى ألا تسمع بعد،

(١) الأشيرون نهر في تسبروتيا في ابيرس ، يصب في جون أمبراكيا . ونظراً إلى مظهر مياهه الميت ، دعاه هوميروس أحد أنهار الجحيم ؛ وعلى هذا جرى الشعراء التالون ، قائلين إن إله هذا النهر ابن فيرس بال أب ، وأنه أخفى نفسه في الجحيم خوفاً من التيتان ، واستحال إلى نهر مر المياه ، تحمل عليه في البدء أرواح الموتى .

وأن نعجب بهذا الظلال الفخمة لحكيم بكتريان، وفيلسوف شامس وكل هؤلاء الذين علَّموا الخير والفضيلة (١)!

-٩-

هناك سأراك، أنت يا من فرحته وحياته مني معاً، وأنت يا من تركتني هنا وحيداً أحب وأحيا في غير طائل! هل في وسعي أن أعدك ميتاً، إذا كانت ذكراك لا تزال تحيا في قلبي؟ وتطوف لامعة برأسي؟ أجل ! سأناغي النفس في الأحلام بلقياك من جديد، وأهدهد هذه الرؤيا على صدري الخلي. فإن بقي شيء من ذكريات الشباب، فلعله أن يكون ضماناً للمستقبل. أوآه!

ليكفيني سعداً أن أعلم أن روحك سعيدة ! (٢)

-١٠-

هنا يلذ لي الجلوس على هذا الحجر الصلد (٣)، هذه القاعدة العمود من المرمر لم يُقَمْ بعد. هنا كان عرشك المحبوب، يا ابن زحل: أي ملك الألومب الأقوى، إنني أنشد

---

(١) كان في المخطوطة بدلاً من هذه ، الفقرة التالية : "لا تحدق في ، مقطباً جبينك بقسوة ، أيها القس القدم ، لأني لا أنشد حياة حيث لا توجد حياة : إنني لم آت كيما أسخر من أوهامك . إني أستحق في نظرك الرثاء! أوا! إنك تثير في نفسي الحسد : أنت ، أيها المخاطر الجسور المكتشف لبحر مجهول ، تكشف فيه عن جزر سعيدة ، وسكان من أسعد الناس . إني لا أطالبك بأن تصير من الصدوقيين : بل استمر في حلمك بهذا الفردوس الذي لا تدري أنت أين مكانه ، ولكنك تحبه إلى حد أنك تدعو أخاك الضال إلى اقتسامه وإياك" .
ويتلوها بيرن بتعليقة طويلة يقول فيها :
"في هذا القرن الذي يسوده التعصب الديني الأعمى ، والذي فيه بدل المتزمت المتطهر والقس موضعه ، وحمل الكاثوليكي المسكين عقاب خطايا آبائه جيلاً فجيلاً بابعد مما يحدثنا عنه الكتاب المقدس ، في هذا القرن ستستدعي الفكرة المعبر عنها في هذه الفقرات كثيراً من اللعنات . ومع هذا فلا يذهبن عنك أن الروح التي أملتها روح شَكٍّ يائس لا شكٌ ساخر . إن من رأى الخرافات اليونانية والإسلامية تتنازع مذابح الوثنية القديمة ، وخلَّفَ في وطنه منافقين يشكرون الله أنهم لا يشبهون أصحاب الخطايا ؛ ورأى في أسبانيا شعبا يبغض المبتدعة الذين يتلقى منهم المعونة . هذا الرجل لا يستطيع إلا أن يضطرب ويحار ويبدأ يعتقد أنه ما دام فريق واحد هو الذي يمكن أن يكون على صواب ، فإن البقية على ضلال . أما عن الأخلاق وأثر الدين في النوع الإنساني ، فإنه يظهر من شهادة التاريخ الدائمة ، أنه لم يحمل الناس على حب إخوانهم بقدر ما حملهم على استثارة أحقادهم العتيقة ، تلك التي رأيناها قائمة بجلاء بين الفِرَقِ المسيحية . أما الأتراك وفرقة المجذوبين (الكويكر) فأكثر تسامحاً ؛ فإن غير المؤمن إذا أدى الجزية عند الأولين ، استطاع الصلاة كيف وحيث شاء ؛ والإيمان إذا أدى الجزية عند الأولين ، استطاع الصلاة كيف وحيث شاء ؛ والإيمان المتسامح والسلوك الورع عند الآخرين يجعل من حياتهم أكمل مثل على الإحسان المسيحي الذي دعا إليه المؤلف الإلهي للأناجيل" . أما حكيم بكتريانا فهو زاردشت ؛ وبكتريانا مقاطعة في آسيا كانت تكون جزءاً من امبراطورية فارس . أما حكيم شامس فهو فثاغورس ، الفيلسوف اليوناني المشهور .

(٢) كتب بيرن هذه الفقرة في نوستد (اكتوبر سنة ١٨١١) ، حينما علم بموت صديقه وزميله في كمبردج ، الشاب أولستون .

(٣) في بعض الطبعات : الحجر المغطى بالطحلب .

البقايا المستورة من معبدك. ولكن عبثاً! إن عين الخيال نفسه لا تقوى على رد ما أبلاه الزمان. ولكن هذه الأعمدة المزهوة لا تطالب بتنهد عابر: فالمسلم يجلس إليها غير مكترث بها، واليوناني الخفيف الطياش يمر وهو يغني، علامة عدم احتفال.

-١١-

ولكن، من- من بين الذين نهبوا ذلك المعبد المنشأ على قمة الأكروبول، الذي هجرته بلاس آسفة على مغادرة هذا الأثر الباقي الأخير من آثار سلطانها القديم- أقول: من بينهم كان آخرهم وأسوأهم وأشدهم تخريباً ونكراً؟ ازوري خجلاً وعاراً يا كاليدونيا، [١] لأنه أحد بنيك! وأنت يا انجلترا، يسرني أنه لم يكن من أبنائك، فإن مواطنيك الأحرار لا بد أن يحترموا بلداً كان بالأمس مهد الحرية. فكيف سولت لهم أنفسهم أن يدنسوا معبد الآلهة الخرافي، وأن يحملوا مذابحهم على الأمواج التي رفضت [٢] طويلاً أن تساعدهم على فعلتهم الشائنة هاتيك؟

-١٢-

ولكن حفيد البكتيين المحدث يفخر بهذه الفعلة الشائنة التي لم يرتكبها القوط ولا الأتراك ولا الزمان الجبار: [٣] إنه يحمل قلباً من الصخر وعقلاً قفراً مثل صخور وطنه، هذا الذي استطاع أن يفكر وينفذ هذا المشوع البغيض، مشروع انتهاب اثينا البائسة. وسكانه، على الرغم من عجزهم عن الدفاع عن أطلالهم المقدسة، قد شاركوا في آلام وطنهم: فهم لم يشعروا كاليوم بقسوة النير الذي يئنون تحته، نير العبودية والاستبداد.

---

(١) كاليدونيا هي إيفوسيا أو اسكتلنده .

(٢) غرقت السفينة في الأرخبيل .

(٣) البكتيون كانوا في الأصل قوماً في اشقوزيا ، سموا بهذا الإسم (ومعناه : المصبوغون) لأنهم كانوا يصبغون أجسامهم بمختلف الألوان ، كيما يبدو أشد خطراً وصولة في عيون الأعداء . ويحدثنا سرفيوس ، شارح فرجيل ، أن فريقاً منهم هاجر إلى الأجزاء الشمالية من بريطانيا ، في مقاطعة اسكتلنده ، وهناك ظلوا على عاداتهم الفطرية الوحشية . وهم إذن أجداد الاسكتلنديين الحاليين الذين منهم لورد إلجن ، قنصل إنجلترا في أثينا ، وهو اسكتلندي الأصل ، وقد نقل روائع الآثار اليونانية إلى إنجلترا ؛ وضده يوجه بيرن هذا الهجاء المقذع في كل هذه الفقرات . وقد وجه مثلها رينان في "صلوات على الأكروبول" بعد ذلك بزمان طويل . وقصة هذا النهب الفظيع لتلك الروائع اليونانية طويلة مؤثرة ذكرها بيرن في تعليقاته بالتفصيل .

-١٣-

ماذا! هل قال لسان بريطاني إن ألبيون سعيدة بدموع أثينا؟ وعلى الرغم من أن هؤلاء الأشرار قد مزقوا صدر أثينا باسمك أنت، فلا تعترف بهذه الجريمة لأسماع الأوربيين الذين سيرتاعون من هؤلاء. ملكة المحيط، بريطانيا الحرة، تحمل أشلاء بلاد دامية الجراح! أجل، إنها هي، تلك التي تقدم معونتها السخية للآخرين ممجدة بهذا اسمها، هي التي حطمت بيديها الوحشيتين هذه البقايا والأطلال اليونانية التي أبقى عليها الزمان العاتي والطغاة المستبدون.

-١٤-

بلأس! أين كان درعك الذي أوقف ألرك القاسي وصد سيل الخراب [١] العرم؟ أين كان ابن بيليوس، الذي فر ظله من مملكة الموتى، وظهر في يوم الخطر هذا، مدججاً بسلاحه الرهيب؟

ماذا! ألم يكن في وسع بلوتون أن يطلق سراح هذا القائد العظيم مرة أخرى كيما يخيف هذا الناهب الآخر؟ إن آخيل الضال على سواح الاستيكس لم ينهض للدفاع عن الأسوار التي لذ له من قبل أن يحميها.

-١٥-

إيه يا بلاد اليونان! ما أقسى هذا القلب الذي يستطيع أن يراك دون أن يشعر بما يشعر به العاشق عند تراب معشوقته. من ذا يقوى على رؤية معابدك وقد دنستها أيد بريطانية، هي والمذابح العتيقة، أيد كان الواجب عليها بالأحرى ان تنافح عن هذه الأطلال المقدسة- أقول: من ذا يقوى على رؤية هذا كله دون أن يذرف مر العبرات؟ هذه الأطلال، لقد ضاعت إلى غير رجعة! ألا لعنة الله على الساعة التي أبحروا فيها من جزيرتهم كيما يمزقوا صدرك الدامي مرة أخرى، وينقلوا آلهتك البائسة إلى جو الشمال البغيض!

---

(١) يذكر زونديموس (وقد عاش في أيام حكم ثيودسيوس الأصغر، حوالي سنة ٤١٠ بعد الميلاد) الذي كتب تاريخ الأباطرة الرومان في بلاد اليونان أن "مينرفا وأخيل قد طردا ألرك من الأكروبول؛ ولكن نفراً آخر يذكر أن ملك الوقط (ألرك) كان همجياً مثل زميله الأيقوسي المعاصر" (عن بيرن). وألرك هذا هو ملك القوط الذي خرب روما ونهبها في أيام حكم هونوريسو؛ وكان من أعظم القواد في التاريخ بسالة وهمجية. وقد توفي سنة ٤١٠ ميلادية، بعد حكم دام ثلاثة عشر عاماً.

-١٦-

ولكن أين هارولد؟ أأنسي إذن متابعة هذا الرحالة الحزين وهو يبحر فوق الأمواج؟ إنه لم يحفل بشيء مما يثير في نفوس الآخرين كل حسرة وأسف. فلا حبيبة قد أتته كيما تبهظه بألم مصطنع، ولا صديق أتى كيما يمد يده توديعاً لهذا الأجنبي البارد الذي صار على بتات التجوال في أجواء أخرى. القلب المقدود من الصخر هو وحده الذي يمكنُ أن يظل غير مكترث ولا متأثر بمفاتن الجمال.

ولكن هارولد لم يعد له بعدُ قلب الأمس. فغادر غير آسفٍ بلداً توزعته الحرب والإجرام.

-١٧-

إن من أبحر على البحر الأزرق الداكن قد رأى، فيما أحسب، منظراً كله فتنة وجمال، حينما يهب النسيم كأرقّ ما يكون الهبوب ناشراً الشراع الأبيض الرفاف، فوق الحراقة الرشيقة؛ فتراجع وراءنا أحشاد السواري والحبال والرمال، ويمتد البحر الشاسع إلى بعيد مرتقياً حتى حيزوم السفينة، وتنتشر القافلة كسرب من البلشون البري في طيرانه، ويبدو أسوأ البحارة شولاً مليئاً بالخفة والبراعة، لأن الأمواج المزبدة تتلاعب بلطف ومرح حول الجؤجؤ في كل سفينة.

-١٨-

ولكن آه للعالم الصغير الذي تشتمل عليه! فالبنادق وقد أحكم شدها، والشبكة المشدودة على سطح المركب، والأوامر تُلقى بصوت أصحل، والضجة التي يحدثها البحارة حين يصعدون دفعة واحدة إلى أعلى السيارات: استمع إلى نداء ضابط البحارة، وإلى صياحهم المرح، بينما تنزلق الحبال في أيديهم؛ وانظر إلى صبى البحار الذي يبعث بصوته الحاد مؤيداً أو مؤنباً؛ و هاهو ذا يستطع أن يقود، وهو الضابط التلميذ، جمع بحارته المطيعين.

-١٩-

إن سطح السفينة ليرن كالبلور المصقول لم يمَّسه أي تشويه، ومن فوقه تمشَّى الضابط المنوط به الحراسة. ثم انظر أيضاً هذا الجزء من السفينة المخصص للربان، الذي

يتقدم في مهابة وجلال. إنه صامت مرهوب من الجميع، فلا يتحدث إلى أتباعه إلا نادراً، كيما يحافظ على هذه الأبهة والصولة اللتين هما حارس الظفر والمجد. ولكن البريطانيين قليلاً ما ينحرفون عن القانون، مهما يكن من قسوته، ما دام يؤدي إلى تقوية نفوسهم.

-٢٠-

هبوباً! هبوبا! نسيم البحار، الدافع بالمركب في طريقها إلى أمام! سق السفينة حتى تسحب الشمس الواسعة أشعتها المتضائلة. هنالك يضطر حامل علم القيادة [١] إلى طي الشراع، حتى تستطيع السفن الأكبر ثقلاً والتي تخلفت في الوراء أن تلحق به.

آه! يا للشقاء، وما أقسى هذا التأخير القبيح! ما آلم أن يبدد النسيم الرقيق من أجل هذه المراكب الثقيلة الكسلى! كم من الساعات يضيع قبل مطلع الفجر في تأمل البحر بنظرات مفكرة حالمة، انتظاراً لهذه السفن البليدة، والشراع المرفرف قد أرخي رغما عنه.

-٢١-

تبدى البدر في الأفق؛ ألا ما أروع الليل! فيوضُ النور في الموج، تراقص فيه أو تجري. فللعشاق في هذه الساعات أن يزفروا وهم على الشط زفرات الغرام، وآهات العشق، للمحبوبات أن تصدق هذه الآهات وتلك الزفرات. ولعل الله أن يجعل حظنا كهذا الحظ حين نعود إلى وطننا. ولكن أنامل أريون [٢] غليظ تلعب على أوتار الآلة التي تلذ أنغامها البحارة كثيراً. وهاهم يحيطون به في مرح وغبطة؛ وإذا دعاهم دور

(١) هذا علم صغير ، علامة على ان الاميرال او الكومودور على سطح المركب .

(٢) أريون ، شاعر غنائي وموسيقار يوناني مشهور ، كان ابن كلكوس من متوطنا في جزيرة لسبوس . وقد ارتحل إلى إيطاليا مع بريآندر ، طاغية كورنثوس ، فأصاب من مهنته مالاً وفيراً . وفي أثناء عودته إلى بلاده حاول بحارة السفينة التي أبحر عليها ان يقتلوه كيما يستولوا على النفائس التي حملها معه إلى بلده لسبوس . فلما رآهم أريون مصممين على هذا الفعل ، سألهم أن يسمحوا له بعزف لحن جميل ؛ ولم يكد ينتهي من العزف حتى قذف بنفسه في البحر وفي تلك الأثناء كان قطيع من الدخس (الدلفين) قد جذبته حول السفينة عذوبة هذه الموسيقى ، فيقال إن أحدها حمله على ظهره سالماً إلى تينارس ، ومنها أسرع بالذهاب إلى قصر بريآندر الذي أمر بصلب كل البحارة عند عودتهم .

يعرفونه إلى الرقص، تواثبوا ضاحكين وكأنه خيل إليهم أنهم لا زالوا بعد على الساحل.

-٢٢-

وخلال مضيق كاليه يرى هارولد صخور الشاطئ. هناك تتبادل أفريقيا وأوروبا النظرات؛ التي تسكنها الغادة ذات العيون السود والمراكشي الأسود تبدو ظاهرة تحت مشعل هياكتوس الشاحب [1]. ما أجمل انعكاس نوره على الساحل الإسباني ! إنه يكشف عن صخوره الفتانة، ومنحدر روابيه، ونضرة غاباته الكثيفة الأوراق. ولكن جبال موريتانيا المظلمة الجبارة تُلقي بظلالها من قممها الشامخة التياهة حتى أوديتها المعتمة.

-٢٣-

ها نحن في الليل، حيث يأمرنا التأمل بالإحساس بأننا قد أحببنا مرة، على الرغم من أن الحب قد هجرنا منذ زمان: والقلب، هذا الشاكي المتوحد الباكي على حماسته المقهورة، ولو أنه عار من الصداقة الآن، فإنه سيحلم بأنه كان له يوماً صديق. من ذا يود أن يحني رأسه تحت عبء السنين، حينما يبقى الشباب نفسه بعد زوال الحب والسرور؟ أواه! حينما تنسي نفوسُ من عشقوا رقتها ورحمتها، فلا يبقى للموت شيء يفنيه إلا التافهُ القليل ! آه! أيتها السنوات السعيدة ! من ذا الذي لا يود أن يصير طفلاً من جديد؟

-٢٤-

كنا هكذا منحنين على الجوانب المستديرة للسفينة متأملين قرص ديانا (القمر) وهو ينعكس على مرآة المحيط؛ فنسينا آمالنا وكبرياءنا: وإن روحنا لتستعيد ذكرى الماضي

---

(١) كاليه اسم جبل عال في أقصى الجزء الجنوبي من أسبانيا، تجاه جبل أبيله على الشاطئ الأفريقي المقابل؛ وكان هذان الجبلان يسميان أعمدة هرقل؛ وكاليه تسمى اليوم جبل طارق.

أما هيكاته فابنة برسس وأستريا؛ وتسمى أيضاً بروسربينه وديانا؛ فهي تسمى في السماء لونا (القمر)، وعلى الأرض ديانا، وفي الجحيم هياكته أوبروسربينه؛ وهي إلهة السحر والفتنة. ولها سلطان على السماء والبحر والأرض والجحيم؛ وتقدم إليها القرابين والحملان والعسل، خصوصاً في الشعاب العالية وعند مفارق الطرق. وموريتانيا هو الاسم القديم لمراكش.

وهي لا تشعر. لم يبلغ البؤس بأحد من الناس حداً يجعله خالياً من كائن عزيز، أعز إليه من نفسه، يشغل أفكاره، ويسأله أن يهبه دمعة؛ إن هذا السهم حاد ينفذ بقسوة وألم في القلب المكلوم الذي يحاول عبثاً أن يرد طعنته النجلاء.

-٢٥-

الجلوس على الصخر؛ والحلم عند الأمواج أو على حفافي الهاوية؛ والتجوال ببطء خلال ظلال الأشجار في الغابات؛ ونشدان الأماكن النائية عن سلطان الإنسان، والتي لم تطأ أو لم تكد تطؤها أقدام كائن فان؛ وصعود الجبال الخالية من الشعاب دون أن تبصرك عيون، حيث تسرح وتمرح قطعان برية لا تحتاج إلى حظيرة؛ والبقاء وحيداً متكئاً على الهوى عند الشلالات المزبدة؛ كل هذا ليس وحدة، بل هو حديث عذب مع مفاتن الطبيعة، وإعجاب بكنوزها العجيبة.

-٢٦-

أما الدخول في حومة الدهماء والضوضاء وتصادم الناس، والسماع والرؤية والإحساس وامتلاك أثمن العقار، والتجوال خلال العالم الفسيح كمواطن عالمي وكُلٍّ به الملال، دون ما أحد يبارك لنا ويحبنا، ودون امرئ نستطيع أن نحبه ونؤثره، ورؤية عباد الزهو المتملقين الذين يجفلون من البائسين؛ وفقدان صديق يجعله العطف عزيزاً لدينا، العطف العذب الملف بين قلبينا، والصديق الذي إن فارقنا الحياة، بدا حزيناً لا يجد الابتسامُ إلى جبينه سبيلاً؛ وأن لا يكون لنا صديق واحد من بين جميع هؤلاء الذين يتملقوننا ويتقلبون في نعمنا عليهم، هذا كله هو العزلة، وتلك هي الوحدة حقاً.

-٢٧-

وأكبر سعادة إذن هي حياة الراهب المتبتل، مثل هؤلاء الذين يرون فوق جبل آثوس[١] المتوحد؛ وهم يسهرون في المساء فوق القمم العالية الجبارة التي تطل على

(١) آثوس، جبل في مقدونيا، بارز في بحر إيجه؛ ويسمَّى اليوم موتنه سانتو (الجبل المقدس)، لأنه مشهور بالأديرة العديدة التي يقال إنها تحتوي على مخطوطات قديمة ثمينة.

أمواج بلغت حداً من الزرقة، وسماوات لها من السُّجُوِّ ما يحمل المار هناك في مثل هذه الساعة على قضاء سؤر العمر في هذا المكان الأقدس؛ وهو لا يستطيع مفارقة هذا المنظر الساحر، دون أن يمتلئ قلبه أسى وأسفا؛ هنالك يأسى زافراً على أنه لم يحييَ حياة هؤلاء النساك، ويزداد بغضاً لعالم كاد أن يكون هو قد نسيه.

-٢٨-

لنمرَّ مسرعين بالطريق الرتيب الطويل الذي وطئته أقدام كثيرين دون أن يتركوا فيه أثراً وراءهم؛ ولنطرح الحديث عن الهدوء والرياح، والنسائم الملائمة وتلك المقاومة، وما للرياح والموج من أهواء ونزوات؛ ولنضرب صفحاً عن ذكر ألوان السرور والأحزان التي يعانيها النوتية وهم رابضون في قلعتهم العائمة التي تحف بها الأمواه العالية. إن نُزاء الرياح والأمواج كثيراً ما يعوق أماني الملاحين؛ ولكن لا بد يوماً أن تأتي تلك الساعة في صباح جذلان، تلك الساعة التي فيها يرون: الأرض، الأرض؛ فيتدفق السرور من كل الوجوه.

-٢٩-

ولكن ليس لنا أن نمر بجزر كالبسو [١] صامتين، وهي قد تجمعت والتفت كالأخوات وسط المحيط العميق. وهناك لا يزال مرفأ يبسم للاغبين، ولو أن الإلهة الجميلة قد توقفت منذ زمان طويل عن سقي صخورها بالدموع، انتظار عود من فضل عليها زوجة من الآدميين. وهنا أيضاً حاول ابنه أن يثب الوثبة المريعة حينما دفع به منتور القاسي من الأعالي إلى الأمواج. فلما فقدت ملكة الحوريات الأب والابن، ظلت تنوح على مصابها المزدوج.

---

(١) كالبسو هي إحدى الأوقيانوسيات ، حوريات البحر ، بنات أوقيانوس (البحر أو المحيط) ، وإن كان البعض يقول إنها بنت أطلس . كانت إلهة الصمت ، ومقر سلطانها في جزيرة أوجيجيا التي لا يُعرف مكانها بل ويُشَكُّ في وجودها . ولما غرقت سفينة أوليس ولم ينج غيره ، استقبلته الإلهة خير استقبال ، وودعته الخلود إن بقي معها كزوج . غير أن أوليس رفض ؛ وبعد إقامة دامت سبعة أعوام ، سُمِحَ له بالرحيل من الجزيرة . وقد كان له منها أثناء إقامته ولدان : نوسيثوس ، ونوسينوس . فلما ارتحل أوليس ، حزنت كالبسو حزناً بالغاً لم يعزِّها عنه شيء . و"الأودسه" لا تذكر إلا أن أتينيه قد اتخذت هينة منتور ؛ ولكن فنلون في كتابه "مغامرات تلماك" يذكر أن منتور قد حمل تلماك على أن يثب وثبة مريعة كيما يفر من إغراء كالبسو . وبيرن يقول عن جزيرة كالبسو : "إن جوزو يقال عنها إنها جزيرة كالبسو" .

-٣٠-

انتـهى ملكهـا، وباد عـلاها؛ لكن لا تخلد إلى هذا بثـقـتك، أيهـا الفـتى الغُـرانق الطيـاش، بل خذ حذرك ! فإن سلطانة من بـني البشر تحتل عرش الإلة الخطرة، وقد تجد فـيها كالبسو جديدة. إيه يا فلورانس [١] العزيزة العذبة ! لو استطاع الجمال أن يؤثر بعد في هذا القلب الذي كان قدْماً ساذجاً، ثم عزف من بعد عن الحب، إذن لما كان هذا القلب إلا لك أنتِ؛ ولكني، أنا الذي أبهظني حزن فادح، لا أتجاسر على تقديم قربان غير لائق أمام مذبحك، ولا على أن أسأل صدراً عزيزاً كصدرك أن يشعر بألم من أجلي.

-٣١-

هكذا فكر هارولد، حينما ألقى الطرف على عيـون هذه السيـدة، وتلقى شعـاعـها الصـافي دون أن يجـول في عـقله خـاطر آخر غيـر الإعـجاب الناظر في براءة إليـهـا: بقي الحب بعيداً عـالياً، وإن لم يكن شاسع البعد، وقد عرف كيف كـان هارولد يقدم له أغلى القرابين، ولكنه اليـوم صـار لا يعده من بين عـبيـده، ورفض أن يلج قلبـه مـرة أخرى، ما دام قـد حاول هذا الإلـه الطفل [٢] أن يحـمله عـبثـاً على الغـرام، حتى أيقن أن سـلطانه القديم قد دالت دولته.

-٣٢-

كم كـانت دهشة فلورانس الجميلة حينمـا رأت فتى كـان يقال عنه إنه لا يزال يتـأوه حباً لكل مـا يراه، يقف أمـام بهـاء جمالهـا غيـر متـأثر ولا مدله، هذا الجمـال الذي طالما حياه الآخرون بتنهدات قد تكون حقاً وقد تكون مصطنعة، ووصفوا فيه أملهم ومصيرهم وجزاءهم، بل وقانونهم الذي يخضعون لسلطانه، ورددوا كل مغلظ مـن الأيمان يقتـضيـه الجمـال من عبيده وأتباعـه. فمـا أشد مـا كانت دهشتـها حينمـا رأت شـاباً كـهـارولد لم يشعـر، بل ولم يتظاهر بالشعـور، بلهيب الغرام الذي تتلقاه المرأة أحيـاناً بشيء من عدم الاكتراث، ولكنها لا تتلقاه بغضب إلا نادراً.

---

(١) فلورانس ، هي مسز اسبنسر اسمث التي التقى بها بيرن في ملطه ؛ وقد قال فيها كثيراً من القصائد .

(٢) كيوبيد ، إله الحب .

-٣٣-

هذا القلب الذي حسبته من المرمر، والذي اعتصم بالصمت أو نأى به الكبر، لم يكن جديداً في عالم الإغواء: فكم من حبالة شهوة نصبها من قبل هنا وهناك في غير تحفظ ولا تأثم. وإذا كان قد عزف عن حيله الآثمة، فإنَّ ذلك لم يكن إلا حين لم يجد بعد شيئاً يليقُ برغباته وأمانيه. إن هارولد لم يعد يركن إلى مثل هذه الحيل؛ وإذا كانت عيونها الزرق قد هيجت الحب في فؤاده، فإنه لم يدخل في زمرة عشاقها الهائمين.

-٣٤-

لا يعرف قلبَ المرأة جيداً من يظن أن حبها يكتسب بالتنهدات والزفرات. فماذا يعنيها من أمر اكتواء القلوب، إذا ما امتلكها فؤاد إنسان آخر؟ لا تظهرْ كثيراً من الضراعة والذلة حينما تصف غرامك لمعشوقتك، بل اعتدل في صلواتك أمام عيون معبودتك، وإلا احتقرتك وازدرت غرامك، على الرغم من حرارة أوصافك وبلاغة تعبيرك عنه. وإذا كنت حكيماً، فاستر حتى رقتك وعطفك؛ والثقة السريعة تفيد جيداً في امتلاك المرأة. هيجها تارة، ولاطفها أخرى، يتوج غرامها سريعاً أحلامك وأمانيك.

-٣٥-

ذلك درس نافع قديم، أثبت الزمان صدقه، وأشد الناس إيماناً به وعلماً بمضمونه هم في الآن نفسه أشد من يقاسون منه.

فإن المحب إن نال كل ما تمنى، وجد أن ثمن كل هذه الآلام والزفرات جزء تافه لا يتناسب وإياها: فضياع الشباب، وانحطاط العقول، وفقدان الشرف، تلك هي ثمارك، أيها الحب الظافر! أما إذا شاءت النعمة القاسية أن تخيب الأمل مبكراً، فإن الجرح يصاب بالسموم، ويصيراً داء لا دواء له، حينما ينسي الحب نفسه أن يسر.

-٣٦-

إليك عني أيتها الاستطرادات التي تقطع عليَّ غنائي، لأنه لا يزال أمامنا كثير من الطرق الجبلية التي يجب أن نمر بها، وكثير من الشواطئ التي يجب علينا أن نساحلها، يقودنا الحزن المفكر لا القصص الخيالي. سنمر بأجواء لها من الجمال ما لكل

ما ابتدعه خيال الإنسان في أحلامه الساجية، بل فيها من الحسن ما في المدن الفاضلة التي تغنى بها المحدثون، كيما يتعلم الإنسان إلى أي غاية سامية يجب أن يصبو، لو قدر لهذا المخلوق الفاسد أن ينتفع بمثل هذه الدروس.

-٣٧-

إن الطبيعة العزيزة لا زالت خير أمّ، على الرغم من تنوع مظاهرها. فدعني أتلقى موضوع إلهامي من قلبها العاري، أنا الطفل البار بها، وإن لم أكن عندها أعز بنيها. أوه ! إنها لأروع جمالاً في قسماتها الوحشية، حيث لا تتجاسر أية صناعة فنية أن تدنس سبلها. لقد تبسمت لي دائماً ليل نهار، على رغم كوني قد حفلت بها حيث لا يحفل الآخرون، ونشدتها أكثر وأكثر، وازددت بها تعلقاً، متى؟ إبان غضبها وثورتها.

-٣٨-

يا بلاد الألبان ! يا وطن الإسكندر [١]، معبود الشباب ومثل الشيوخ الحكماء؛ يا وطن سميه البطل الآخر الذي طالما انتصر على أعدائه بأعمال الفروسية الممتازة. يا بلاد الألبان ! دعيني أتأمل بعيوني أرضك، أنت أيتها الظئر الصخرية لأناس همجيين! لقد دالت دولة الصليب، وارتفعت المآذن العالية، وتلألأ الهلال الشاحب في الوادي، خلال خمائل السرو المحيطة بمشارف كل مدينة.

-٣٩-

أبحر أتشيلد هارولد، وعبر البقعة القاحلة التي أطلت منها بنلوبه [٢] الحزينة على الأمواج الزرقاء؛ ورأى أمامه الجبل العابق بعد بالذكرى، ملاذ العاشق، وقبر إلهة

(١) الإسكندر الأكبر ؛ أما البطل الآخر الذي يشير إليه بعد فهو اسكندربج (لورد اسكندر) . وبيرن يقول : "لست أدري هل كنت مصيباً في أن أجعل اسكندربج من مواطني الإسكندر الذي ولد في بلاد مقدونيا ؛ ولكني اتبعتُ جيرن الذي أعطى نفس اللقب إلى بردس وهو يتحدث عن مغامراته" ويقول عن طباع الألبانيين : "إن الأرناؤط أو الألبانيين قد أثاروا انتباهي من حيث تشابههم مع ساكني الجبال في اسكتلنده : فملابسهم وشكلهم وطرائق حياتهم واحدة ؛ وإن جبال ألبانيا لتشبه كل الشبه جبال كاليدونيا ، لو كان الجو أقل لطفا . . . . وليس ثمة أمة يكرهها جيرانها ويخشونها مثل الأمة الألبانية" .

(٢) بنلوبه ، أميرة يونانية مشهورة ، ابنة ايكاريوس وزوجة أوليس ، ملك ايثاكا . وقد احتفل بزفافها إلى أوليس في نفس الوقت الذي تزوج فيه منلاوس هيلانة . وقد انسلت منه تلماك . ولما اضطر زوجها إلى الاشتراك في حرب طروادة ، واستمرت هذه الحرب عشر سنوات ، حزنت حزناً شديداً ؛ ولما لم يعد أوليس مع بقية أمراء اليونان عند انتهاء الحرب ، ازدادت مخاوفها . ولها بعد هذا تاريخ طويل بل شائق لامجال لذكره هنا .

لبسوس الشاعرة، أي سافو البائسة! هلا يستطيع إله الشعر أن يحمي قلباً يشتعل بنار العبقرية المقدسة ! كيف تخلى إذن عن تلك التي وهبت الخلود وتركها تفنى، إذا كان حقاً أن القيثارة تضمن لنا مجداً خالداً، هذا الخلود الذي هو الفردوس الوحيد الذي يمكن لأبناء الأرض أن يصبوا إليه.

-٤٠-

كان ذلك في مساء رقيق من أماسيّ خريف اليونان، حين حيّا اتشيلد هارولد رأس لويكاديا [١] من بعيد، هذا المكان الذي طالما اشتاق إلى رؤياه، وفارقه آسفاً عليه. لقد تجول مراراً في أماكن كانت شهوداً على معارك خالدة: أكتيوم، ليبانت [٢]، وطرف الغار؛ ولكن قلبه لم يتأثر لما أثارته في نفسه من ذكريات، لأنه- وقد ولد تحت نجم بعيد غير ميال إلى الأمجاد- لا يسر بأحاديث المغامرات الدامية والمعارك الباسلة؛ إنما هو يبغض مهنة الشجعان، ولا يلقى منه نضال المحاربين غير ابتسام عريض ساخر.

-٤١-

ولكنه حينما رأى نجمة المساء فوق صخرة لويكاديا الناتئة الحزينة، وحينما حيا هذا الملاذ الأخير للعشق البائس، شعر أو خيّل إليه أنه شعر بإحساس غير عادي: فلما كانت السفينة تنزلق في روعة وجلال تحت الظل الذي تلقيه هذه الصخرة القديمة بعيداً فوق البحر، تتبعت عينه الحزينة الولهى مجرى الأمواج الكاسفة. وعلى الرغم من أنه كان غارقاً في أحلامه المعتادة، فقد بدت عيناه أكثر سكوتاً وطمأنينة، تجلى جبينه الشاحب ناعماً مستوياً.

---

(١) لويكاديا جزيرة في البحر الأيوني ، تسمى الآن سنت مورا ، بالقرب من ساحلالإيبروس ، وهي مشهورة برأس صخري يمتد في البحر اسمه لويكات أولويكاس ، من فوقه كان العشاق البائسون يقذفون بأنفسهم في البحر . ومن بين هؤلاء سافو ، الشاعرة اليونانية المعروفة التي وثبت هذه الوثبة كيما تتخلص من وجدانها الغرامي العنيف الذي شمرت به نحو فاءون .

(٢) معركة اكتيوم هي التي وقعت بين أوكتافيوس من ناحية ومارك أنطونيوس وكليوبترة من ناحية أخرى ، كما هو معروف ؛ ومعركة طرف الغار هي التي جرت بين نابليون والإنجليز ؛ أما معركة ليبانت فأقل شهرة وقد وقعت في خليج بتراس ، وفيها فقد سرفنتس ، مؤلف دون كيخوته ، يده اليسرى .

-٤٢-

انبلج الفجر، وتبدت روابي ألبانيا الكالحة وصخور سولى الكابية، وقمة بندس النائية وقد تدثر نصفها بالضباب، وتجللت بروافد من الثلج صبغتها أشعة الصباح الأولى بصبغة من الأرجوان الجميل؛ وتبددت أبخرة الصباح، فسمحت برؤية مساكن قاطني الجبال: هنالك تعوى الذئاب، ويحد النسر منقاراً قوياً، والطيور والحيوان الوحشي، والناس الأكثر وحشية، كل هؤلاء يبدون؛ وهناك أيضاً تتجمع هذه العواصف المحيطة التي تزلزل الفصل الأخير من العالم.

-٤٣-

هنا شعر هارولد بأنه قد أصبح الآن وحيداً، فودع الأمم المسيحية وداعاً طويلاً؛ فها هو ذا قد غامر بدخول بلد مجهول، يعجب به الكل، ولكنَّ كثيرين يخشون من زيارته: إن قلبه قد تسلح ضد القدر؛ وحاجاته قد قل عددها؛ أجل؛ أنه لا يسعى إلى الخطر، ولكنه يتقهقر مرة أمامه. ألا إن لهذه الأماكن مظهراً موحشاً؛ ولكنه منظر جديد على كل حال؛ وهذه الفكرة تخفف عنده لذع نيران الصيف، وشدة رياح الشتاء، ومتاعب السفر المتتالية.

-٤٤-

هنا الصليب (أجل الصليب، فلا زال يوجد شيء منه، وإن كان ملطخاً بالعار قد فضحه المسلمون) ينسي تلك الكبرياء التي تصاحب في كل مكان خدمته الحريصين على تقديس حرمته؛ وهنا يحتقر القسيس والمسيحي العادي على السواء. أيتها الأسطورة العجيبة! على أي نحو كنت: صنماً، أو قديساً، أو عذراء، أو نبياً، أو هلالاً، أو صليباً، وأيا ما كان الرمز الذي يقدسك العالم من أجله - فإنك لست إلا لرجال الدين، وإنك لضياع لسائر الناس أجمعين ! من ذا الذي يستطيع أن يستبعد الخبث من ذهب العبادة الصحيحة في خليطك المدنس؟

-٤٥-

تأمل خليج أمبراتشيا، حيث فقد عالم من أجل امرأة، امرأة ساحرة بريئة! في هذا الخليج المتجعد الموج تصارعت أساطيل القواد الرومانيين وأساطيل الملوك الأسيويين [١] في معركة لا شك في أنها دامية هائلة، لكن لا يقين بالنصر فيها لأحد الفريقين. تأمل حيث ضفرت أكاليل النصر لقيصر الثاني [٢] ! إنها لتذبل اليوم، كما ذبلت الأيدي التي أنبتتها؛ إن هؤلاء الفوضويين الأمبراطوريين ليزيدون في شقاء بني الإنسان أضعافاً مضاعفة. إلهي! هل قدر لأرضك أن تكسب هكذا وتفقد؟

-٤٦-

من الصخور العاتية التي تحد هذا المناخ القاسي (ألبانيا) حتى وسط الأوداء الإليرية، تجول أتشيلد هارولد في جبال عديدة خلال أقاليم لم تكد تذكرها أقاصيص التاريخ. ولكن أمثال هذه الأودية الجميلة لا تكاد ترى في أتكا المشهورة؛ بل وليس في تمييه مفاتن لا يراها المرء فيها؛ وجبل البرناس العزيز هو أيضاً لا يستطيع أن يدرك شأو بعض البقاع المستورة خلف هذي الصخور الساحلية، على الرغم مماله من شهرة عتيقة وقداسة عند أولي الفن.

-٤٧-

لقد مرّ بالقرب من بندس ذي الذروة الناصعة البياض؛ واجتاز بحيرة أخيروزيا [٣]؛ ثم مضى دون أن يعرج على عاصمة الإقليم، مغذاً في سيره كيما يحيى أمير ألبانيا[٤]، الذي تحترم أوامره أكثر مما تحترم القوانين، لأنه يحكم بيد دامية أمة شموساً كأنها قدت من صلد الصفا. ومع هذا، فإن ثمة ههنا وهناك بعض العصابات الجبلية

---

(١) قال بيرن في خطاب إلى أمه سنة ١٨٠٩: "يقال إنه في عشية اليوم الذي وقعت فيه معركة أكتيوم، كان مع أنطونيوس ثلاثة عشر ملكاً عند الصباح. وقد رأيت اليوم (١٢ نوفمبر) أطلال مدينة أكتيوم التي فقد عندها أنطونيوس العالم، في خليج صغير، كانت حرّاقتان تقومان بإجراء مناورات فيه. وكل ما بقي منها سور على وَشْكِ السقوط. ومن الجانب الآخر من الخليج تقوم أطلال نيقوبوليس التي بناها أوغسطس، كتذكار لانتصاره".

(٢) مدينة نيقوبوليس التي لا تبعد عن أكتيوم إلا قليلاً. وقيصر الثاني هو أوكتافيوس.

(٣) يرى بوكيفيل أن هذه البحيرة هي اليوم بحيرة يانينا.

(٤) هو علي باشا المشهور.

الجسورة التي تستهين ببأسه، وتتحدى من قلعتها الصخرية سلطانه، دون أن تستسلم لشيء اللهم إلا الذهب.

-٤٨-

زتزا، أيها الجبل الديراني، أيها المأوى المقدس السعيد، على الرغم من صغرك، من أية ناحية نظرنا حولنا، فوقنا، وتحت جباهك، فما أجمل ألوان مناظرك التي تشبه ألوان قوس قزح، وما أشد سحر مفاتنك! الصخر والنهر والغاب المتوج للجبال وكل ما حولنا، وما فوقنا من سماوات شديدة الزرقة تشيع في الكل انسجاماً؛ وتحتنا، يحدث صوت السيل البعيد الهدار عن المكان الذي يسّاقط فيه الشلال بين هذه الصخور المعلقة التي، وإن صدمت الروح فإنها تشوقها وتسرها.

-٤٩-

وأسوار الدير البيض تقوم ظاهرة وسط الغابة المتوجة لتلك الرابية الأريضة التي ترفع إلى جوارها في صفوف عالية جبال تسودها، والتي هي أيضاً بدونها رائعة لا تخلو من جلال. هنا في داخل تلك الأسوار الرفافة جميلة فوق الأعالي يسكن الرهبان اليونانيون، هؤلاء الرقاق الحاشية الذين لا يبخلون بحسن الضيافة والترحاب؛ فالمسافر يلقى عندهم سعة النوال؛ ولا يفارق هذا المكان دون تأثر، إن كان ممن يلذ لهم تأمل مفاتن الطبيعة.

-٥٠-

هنا في أشد ساعات القيظ دعه يستريح؛ فالعشب منعش تحت هذه الأشجار العتيقة. هنا الأنسام ذوات الأجنحة البالغة الرقة تروح على صدره اللاغب، كيما يستروح النسيم العليل من السماء نفسها: إن السهل بعيد في أسفل - أوه؛ دعه يقتنص السرور الصافي قدر ما في وسعه؛ إن الأشعة المحرقة لا تنفذ إلى هنا محملة بالأوبئة. فدع الرحالة المخذول النشاط، المتمهل في تجواله، دعه يتمطى هنا تعباً، ويعجب حسبما شاء بالفجر، وبالشمس إبان مسيرها، وبجمال الليل الساجي.

-٥١-

إن جبال كيميرا الكابية الشامخة المتطاولة إلى أبعد مدى النظر، لتمتد بعيداً من الشمال إلى اليمين، وكأنها مسرح الطبيعة البركاني: تحتها يهتاج وادٍ تدب فيه سورة الحياة، ففيه قطعان مرحة وأشجار متماوجة وأنهار جارية وصنوبر الجبال وهو يهتز في أعاليه. ألا فلتنظر إلى أشيرون [١] الأسود! الذي كان من قبل مقدساً للقبر. أي بلوتون ! إذا كان ماأراه هو الجحيم، فأغلق جنتك إذن، فظلي لن ينشدها.

-٥٢-

هذا المنظر لا تشوه فتنته أية أبراج لمدينة. ويانينا لا ترى وإن كانت غير بعيدة، فقد حجبتها ستائر التلال: والناس هنا قليلون، والقرى النادرة، والأكواخ الضئيلة متوحدة. ولكن الماعز وقد تعلق على شفا الهاوية يرعى العشب والشجيرات في هدوء؛ والراعي الصغير المتدثر بمعطفه الأبيض، قد تمدد على صخور وعرة؛ وإنه لينظر إلى قطيعه الشارد بعين مفكرة حائرة، فإذا هبت العاصفة، لاذ من غضبها الهائل بكهف يحميه.

-٥٣-

إيه يا دودونا [٢]! أين خميلتك العتيقة، وينبوعك النبويُّ ووحيك الإلهي؟ أي وادٍ ردد صدى جواب جوبتر؟ وأي أثر تراه باقياً من معبد سيد الرعد؟ كل هذا قد صار نسياً منسياً- فهل يجسر الإنسان على الشكوى، إذا كانت الروابط الواهية التي تربطه بالحياة ستقطع؟ صه، أيها المخلوق الأحمق، دع الشكوى التي لا نفع منها، فلعل مصير الآلهة أن يكون مصيرك: أوتوَدُّ أن تحيا وتبقى أكثر من المرمر أو البلوط، إذا كانت الأمم والعوامل خاضعة لضربة الفناء!

---

(١) اشيرون عند القدماء، واسمه اليوم كلماس ؛ وهو نهر من أنهار تسبوتيا في مقاطعة إبيرس يصب في خليج امبراتشيا . كما ذكرنا آنفا .

(٢) دودونا ، مدينة في تسبروتيا بمقاطعة إبيرس ، وفي ظن البعض أنها في تساليا ، وعند مشارفها تل صغير يسمى طومارس عليه كان يوحي بوحي جوبتر ، وهو وحي مشهور يقال إنه أقدم وحي في بلاد اليونان كلها ، وكان يتم بواسطة الحَمَام ، فتأتي حمامتان سوداوان ، فيما يحدثنا هيرودوتس نقلاً عن المصريين ، من مدينة طيبة في مصر ، تطير إحداهما إلىٰ معبد جوبتر آمون ، والأخرى إلى دودونا . وكانت الخميلة الواسعة المحيطة بمعبد جوبتر هنا ذات قدرة على إلقاء الوحي ، وكان غالباً ما يلقى بواسطة البلوط المقدس والحمام القاطن في الناحية . وفي داخل هذه الخميلة كان يوجد ينبوع ذو ماء قراح ، له القدرة على إضاءة مشعل بمجرد لمسه ؛ وكان هذا الينبوع يجف جفافاً تاماً في الظهيرة ، ثم يعود إلى الجريان الكامل في منتصف الليل ، وما يبدأ في النضوب حتى ينضب تماماً في الظهيرة .

-٥٤-

خلّف اتشيلد هارولد حدود أبيرس وراءه، واختفت الجبال عن ناظريه، إن العين التي يرهقها طول تصعيد الطرف إلى أعلى لتشعر بالسكينة والنعيم حينما تبصر وادياً كأنعم ما يمكن أن يأتي به الربيع من مرج معشب. إن للسهل أيضاً مفاتنه الكبرى، حينما يفيض نهر قوي بأمواجه الرائعة، وتتماوج الأشجار والخمائل على شطآنه، وتتراقص ظلالها فوق صفحة الماء الصقيلة، أو تغفو على ضوء القمر في هجوع منتصف الليل الرائع.

-٥٥-

غابت الشمس وراء طومارس الواسع، وتجاوب هدير لاؤس الزخار الجبال؛ والتأمت ظلال الليل قليلاً قليلاً فوق الأرض، حينما رأى أتشيد هارولد، وهو ينحدر من النهر بشطئانه الوعرة الملتوية، مآذن تيبالن تلمع كأنها شهب في السماء، وأسوارها تطل على مجرى النهر؛ فلما اقترب منها، سمع جبلة عساكر تزيد في صوت النسيم الزافر في الوادي الطويل.

-٥٦-

مرَّ بالقرب من البرج السكوت، برج الحريم الأقدس؛ ودخل من الباب الكبير ذي القباب، ورأى قصر هذا الزعيم الرهيب الذي دل كل ما حواليه على جبروته وصولته. لقد جلس هذا الطاغية محفوفاً بأبها مظاهر الفخامة، وقد وقف العبيد والخصيان والجنود والضيوف والمشايخ بين يديه. إن مقامه من الداخل قصر، ومن الخارج قلعة: وإنه ليبدو وكأنه مجمع للناس من كل فج وجو.

-٥٧-

وثلة من الجنود الراكبين فوق جياد مطهمة فاخرة الإسراج قد ربضت في فناء القصر متأهبة لكل عراك. وفي داخل القصر فرق غريبة تملأ الدهاليز. ومن حين إلى حين كان الصدى في القباب يردد كَدَفَةَ جواد امتطى صهوته تتري ذو عمامة ضخمة. لقد

اختلط هنا التركي واليوناني والألباني والمراكشي في أزياء متنوعة مختلفة الألوان، بينما أعلن صوت بوق الحرب الرهيب مقدم الليل.

-٥٨-

ما أروع منظر الألباني الوحشي وهو متدثر حتى ركبيته، وعلى رأسه قد عصب شال، وفي يده بندقية مزركشة، وثيابه قد وشاها تطريز من الذهب؛ وما أجمل المقدوني بوشاحه القرمزي؛ و"الدلى"، وعلى رأسه خوذته العسكرية، قد حمل سيفه المنحني؛ واليوناني الزول الماكر؛ والنوبيٌّ الأسود الخصي؛ والتركي الطويل اللحية الذي لا يتنازل لمخاطبتك إلا نادراً، وهو شاعر بأنه سيد الجميع، وله من الصولة ما لا يجعله وديعاً.

-٥٩-

لقد احتفل حشدهم: فمنهم من استلقى على ظهره، متملياً بالمنظر المتنوع المبتدّي أمام عينه؛ ومنهم من يلعب أو يشعل نارجيلته؛ وفريق من المسلمين الأتقياء يصلي لله؛ وهناك ألباني يتمشي بزهو وخيلاء؛ وهنالك يوناني يهمس مثرثراً. صه ! ما هذه الأصوات الجليلة الهاتفة من فوق المسجد في هدوء الليل؟ إنه صوت المؤذن وقد هز بأذانه المئذنة، ودوى هاتفاً: "لا إله إلا الله! حي على الصلاة! الله أكبر!".

-٦٠-

كنا حينئذ في شهر رمضان، شهر الصيام، الذي يمسك المرء فيه عن الطعام والشراب طوال النهار؛ حتى إذا ما تولت ساعة الغروب المتوانية، استعاد التمتعُ بأطايب المأكل والمشرب سلطانَه. فإذا بالحركة تدب من جديد في كل مكان، والخدم يهيئون الموائد الفخمة؛ والرواق بدأ خالياً من كل إنسان، إنما جاءت الأصوات من الحجرات مختلطةً مبهمة، وكان العبيد يغدون ويروحون باستمرار.

-٦١-

ولكن صوت المرأة لا يسمع مطلقاً في هذا المكان. لقد أغلق عليها في مكان منفصل، ولا يسمح لها بأن تخطو خطوة دون أن تكون محجبة مخفورة، وقلبها

وشخصها إنما لإنسان واحد فحسب؛ حتى ألفت قفصها، فلم تعد تستشعر رغبة في الخروج منه. إنها سعيدة بحب سيدها وبمشاغل الأمومة العذبة: المشاغل المباركة التي تسمو فوق كل العواطف والأحاسيس إلى حد بعيد.

إنها تربي بنفسها الولد الذي حملته، ولا تبعده مطلقاً عن صدر لا يعكر سلامه وجدان وضيع.

-٦٢-

اضطجع علي [١] (باشا) فوق حشايا شهوانية تعبق بالراحة في مقصورة مرصوفة بالمرمر، ينبثق في وسطها ينبوع من الماء الحي، تنتشر عن انبثاقاته طراوة منعشة سارة. إن علياً رجل حرب وشدة؛ ولكن الرقة تسود جبينه الوقور إلى درجة لا تستطيع أن تستشف من خلفه إلى أي حد يلذ لقلبه القاسي أن يفعل فعلات وحشية دامية.

-٦٣-

وليس هذا لأن اللحية الهِلَّوْفَ البيضاء التي تزين وجهه لا تتفق وعواطف الشباب؛ فإن الحب يهزم السن، كما أثبت هذا حافظ الشيرازي؛ وبهذا تغنى شاعر تيوس [٢]، فصدق القولَ. ولكن الجرائم التي تستهين بصوت الرحمة الرقيق، والتي تبدو فظيعة في أعين جميع الناس، وبخاصة المتقدمين في السن عنهم، هذه الجرائم قد وسمت علي باشا بميسم النمر المفترس. إن الدم يدعو للدم؛ والذين بدأوا حياتهم بالدم لا بد أن يختموها بالدم.

---

(١) هو علي باشا يانينا الملقب بالأسد ، وقد ولد في سنة ١٧٤١ في تياليني التي كان أسلافه بكوات فيها ، ولكن أباه فقد هذا المنصب . فلما نشأ عزم على استرداده ، وبدأ بألفِ عصابة من اللصوص وقطاع الطرق ، واستطاع بواسطتهم استرداده ؛ وثبتته الحكومة العثمانية في منصبه . ثم استوليعلى يانينا في سنة ١٧٧٨، وكان هو الحاكم الفعلي المستقل على ألبانيا لأكثر من ثلاثين سنة . ولما خشي السلطان بأسه ، أمر بقتله ، فقتل في قصره سنة ١٨٢٢ . وبذا تحققت نبوءةُ بيرن عن مصيره في ختام الفقرة التالية .

(٢) تيوس أوتايوس ، (وتسمى اليوم سجاجق) مدينة ساحلية على شاطئ أيوليا في آسيا الصغرى تجاه جزيرة شامس ؛ وقد ولد بها الشاعر أنكريون ، وهو شاعر غنائي يوناني مشهور ، عرف بالمجون والشهوة والعكوف على المسكر ، وكان مدلهاً بحب غلام اسمه باثليوس ؛ ومقطوعاته الغنائية (أود) لا تزال باقية ، وتمتاز بالعذوبة والرقة والأناقة . وقد ازدهر حوالي سنة ١٠ .ق .م .

-٦٤-

هنا أراح الرحالة أقدامه المكدودة، متملياً بكثير من الأشياء التي كانت في الغالب جديدة عليه: على سمعه وعلى بصره. وتأمل حواليه رفاهية المسلمين وترفهم، حتى إذا ما جهدته سريعاً هذه المناظر الفسيحة الفائضة بالثروة والشهوة، لم يرقه بعد هذا المقام لعظيم آثر تجنب ضوضاء المدينة. ولو كانت هذه الدار أقل ترفاً وبذخاً، لكانت أشد عذوبة حقاً. ولكن طمأنينة القلب تبغض المسرات الصناعية، واللذة إذا مزجت الأبهة والفخفخة فقدت طعمها.

-٦٥-

قاسية قلوب أبناء ألبانيا؛ لكن لا تعوزهم الفضائل، على الرغم من أن هذه الفضائل لا تزال فجة غير ناضجة. فأين هو العدو الذي رأى ظهرهم مرة؟ وأين هم الجنود الذين يتحملون مثلهم متاعب الحرب؟ إن حياتهم ليست أقل قناعة في عهد السلم منها في أيام الكوارث والخطوب. إن انتقامهم قتال، ولكن صداقتهم مأمونة. وإذا دعاهم داعي المروءة أو عرفان الجميل، اندفعوا غير مبالين إلى حيث يقودهم رئيسهم.

-٦٦-

رآهم أتشيلد هارولد في برج رئيسهم (علي باشا)، وقد هبوا جماعات كيما يخوضوا غمار الحرب في سبيل المجد؛ ورآهم أيضاً من بعد حين وقع في أيديهم، صريعاً لمهنة عابرة: في هذه الساعات التي يزداد فيها الأشرار من الناس عتواً على البائسين، تلقاه الألبانيون بالتجلة والإكرام فآووه، بينما الناس الأقل منهم وحشية كانوا في مثل هذه الظروف يتلقونه بإكرام أقل، وبنو وطنه كانوا ينبذونه. آه! ما أقل الذين تثبت قلوبهم في مثل هذه المحن!

-٦٧-

وحدث أن ريحاً معاكسة قد دفعت بمركبه إلى شاطئ سولي الصخري، بينما كان الظلام يخيم حواليه؛ وكان النزول إلى البر خطراً، وأخطر منه البقاء فوق الأمواج

الوحشية الهائجة، تردد النوتية قليلاً، موجسين خيفة أن يكون ههنا مدعاة غرر ومخاتلة. وأخيراً تجاسروا على النزول، جزعين من أن يقعوا فريسة دامية لهؤلاء الذين يبغضون المسلمين والفرنجة على السواء.

-٦٨-

جزع لا داعي له! لقد مد السوليون إليهم يداً مرحبة، وقادوهم خلال الصخور والمستنقعات الخطرة. إنهم أكبر رحمة من العبيد المتحضرين؛ وإن كانوا أقل منهم زخرفة للمقال؛ فقد أذكوا نار الموقد، وجففوا ثيابهم المبتلة، وملأوا الكأس، وأوقدوا المصباح الجذلان، وقدموا إليهم طعاماً، وإن يكن متواضعاً، فقد كان أعز ما تملكه أيديهم. إن هذا السلوك ليحمل طابع الرحمة الإنسانية: الترفيه عن المكدود وإراحة المتعب. أيُّ درس للسعداء، وأيُّ عار على الأشرار!

-٦٩-

لكن حدث، حينما اراد هارولد توديع هذه البلاد الصخرية المضيافة، أن كان ثمة عصابة من اللصوص وقطاع الطرق الذين أشاعوا الفزع والرعب والخطر في هذا الطريق، ونشروا في كل مكان خرائب الحديد والنار؛ فأخذ حامية مخلصة، باسلة في الحرب، صلبة في القتال، قوية على المتاعب، واجتاب في رفقتها غابات أكرانيا الشاسعة، ولم ينفصل عنها إلا حينما أبصر أودية أيتوليا [١]، وأمواج أخيلوس الفضية.

-٧٠-

وحيث يشق أتريكي المتوحد حوضاً مستديراً فيه ترقد الأمواج اللاغبة كيما تعكس في صمت أشعة القمر، تسمر أشجار الخميلة الخضراء المجللة للرابية؛ حينما يغشيها ستار الظلام، وتتراقص برشاقة ورقة على صدر الأمواج الصامتة، بينما أنسام الجنوب تلاطف الصفحة الزرقاء للخليج التي لا يثنى ريحُها الرقيقُ شيئاً من صفحته.

(١) إيتوليا ، مقاطعة تحدها الأبيرس وأكرنانيا ولوكريس في منتصف بلاد اليونان ، فيما يقال . وأهلها معروفون بالجشع وسوء الضيافة . أما أخيلوس فهو نهر في ابيرس ، سمي باسم إله يقال إنه تحول إليه بعد انتصار هرقل ؛ وهذا النهر ينبع في جبل بندس ويصب في بحر أيونيا ؛ ويقول بعضهم إن هذا النهر قد انبثق من الأرض بعد الطوفان .

ههنا استُقبل هارولد بالترحاب، وقد ملكه التأثر وهو يتأمل هذه اللوحة الجميلة، لأن الليل عنده مصدر لوافر اللذائذ والمسرات.

-٧١-

على الشاطئ الأملس تلألأت نيران الليل؛ وكانت مأدبة المساء قد انتهت، ودارت كؤوس الخمر الأرجوانية؛ وهذا الذي أتى إليهم فجأة (أتشيلد هارولد) توقف يحدق فيهم بعيون الدهشة. وقبل منتصف الليل، هذه الساعة المليئة بالسكون، بدأت الملاهي الوطنية للجمع الحاشد: فألقى كل بليكار (١) حسامه، ووضع يده في يد آخر، وتماسك الكل وتواثبوا في إيقاع بديع أغانيهم.

-٧٢-

وقف أتشيلد هارولد على مسافة قليلة، ورأى في غير امتعاض هذا العيد والمرح، ولم تعف نفسه هذا المرح البريء، وإن كان فطرياً خشناً: أجل، لم يكن منظراً تافهاً خسيساً، منظر أفراحهم البربرية، الخالية مع هذا من الإفحاش. وحينما تلألأت أشعة النيران في وجوههم، ازدادت حركاتهم خفة ونشاطاً، ورفت عيونهم السود، وتهدلت غدائرهم حتى مناطقهم في فيض من الشعر الوحشي، وغنوا جميعاً هذه الأغنية التي كانوا يرتلون بعضها، ويصيحون ببعضها الآخر (٢):

-أ-

يا صـــاحبَ الطبلِ ردِّدْ صـــوتَكَ العـــالي
وامــــلأ أســـودَ الوغى من طيبِ مــــأمــــولِ
هبت على الصـــوت أبناء لأجـــبـــال
أبناء كـــيـــمـــار ، إليـــرا ، إلى ســـولى

(١) "بليكار ، مأخوذة من اختصار الكلمة اليونانية وهو الاسم المشترك لكل الجنود الذين يتكلمون الرومية بين الألبانيين . ومعناها الأصلي «فتى" (بيرن) . أباه فقد هذا المنصب . فلما نشأ عزم على استرداده . وبدأ بألفِ عصابة من اللصوص وقطاع الطرق ، واستطاع بواسطتهم استرداده ؛ وثبتته الحكومة العثمانية في منصبه . ثم استوليعلى يانينا في سنة ١٧٧٨ . وكان هو الحاكم الفعلي المستقل على ألبانيا لأكثر من ثلاثين سنة . ولما خشي السلطان بأسه ، أمر بقتله ، فقتل في قصره سنة ١٨٢٢ . وبذا تحققت نبوءةُ بيرن عن مصيره في ختام الفقرة التالية .

(٢) "هذه الفقرات مأخوذة من عدة أغان ألبانية ؛ وقد استعنت بتراجم رومية أو إيطالية" (بيرن) .

-ب-

من ذا الذي بذّ هذا الأسود السولي
في المعطف الأبيض المنسوج بالوبر
إلى الذئاب يرد الضأن ، والغول
وينزل السهل مثل السيل من صخر

-جـ-

أبناء كيمار لا يسدون غفراناً
إلى الصديق ، فهل للخصم إغضاء
هل نترك السيف نحو الوتر ظمآنا ؟
بأمر مرمي ، كصدر الخصم ، إغراء ؟

-د-

بالصيد ترسل مقدنيا إلى الحرب ،
فيتركون زمان الكهف والصيد
ثيابهم من نجيع الدم في سكب
قبل السلام ووضع السيف في الغمد

-هـ-

وإن قرصان برجا (١) عند بحرهم
يعلّمون النصارى قسوة الذل
ويحملون الأُسارى عند شطهم
على الزوارق في الأصفاد والغل

-و-

لا أطلب اللهو بالأموال يجتلب ؛
بالسيف أكسب ما لا يكسب الفشل

(١) برجا ، ميناء على البحر ، بالقرب من سولي .

إلا بمال ؛ وعـــرسي بعـــد أكـــتـــسب ؛
كم من فـــتـــاة أســرت بعـــد مـــقـــتـــتل!

-ز-

إنـي أحب مـــحـــيـــا الخـــود ناضـــرةً ،
دعـــهـــا تـناغي بموســـيـــقى ترددها
دعـــهـــا تهـــيئ قـــيـــثـــاراً مـــوترةً ،
دعـــهـــا تغني وترثي مـــوت ســـيـــدها

-ح-

اذكــر ســـقـــوط ابرفـــيـــزا (١) و نكبـــتـــهـــا ،
وصـــيـــحـــة الظافـــر الغـــازي ، وشكواها ؛
كم من بيـــوت مـــضت للنار طعـــمـــتـــهـــا ،
لم تبق شـــيـــنـــاً ســـوى غـــيـــد هويناها

-ط-

لا يعـــرف الخـــوف ، من جند الوزير فـــتى ،
يومـــاً ، ولا رحـــمـــة منه لأعـــدانا
من عـــهـــد أنَّ بذي الدنيـــا النبي أتى ،
لم يبـــصـــر الناس ليـــثـــاً مـــثل باشـــانا

-ي-

مـــخـــتـــارٌ (٢)الشـــهم للدانوب قـــد بعـــثـــا
ابنا قـــوياً على الأعـــداء جـــبـــاراً
بالجـــيـــش يأتي ، لدم ليس مكتـــرثاً ،
يحطم الروس ، أعـــداء وكـــفـــاراً

(١) استولى عليها علي باشا في سنة ١٧٩٨ من الفرنسيين الذين كسبوها في السنة السابقة ، وفقاً لمعاهدة .
(٢) مختار باشا هو ابن علي باشا الذي ارسل ضد الروس الذين كانوا بسبيل غزو المقاطعات التركية .

-يا-

يا حـــامل الســـيف شـــهـــر ســـيف قـــائدنا!
يـا ضـــارب الـطـبـل ، عـــد بـالحـــرب تـأتـيـنـا
ويـا جـــبـــالاً تـرانـا عـنـد شـــاطـئـنـا
لـن تـبـــصـــريـنـا ســـوى بـالـنـصـــر آتـيـنـا

-٧٣-

أي بلاد اليونان الجميلة ! أيها الطلل الحزين الباقي لمجد قد باد! أنت خالدة، وإن كنت غير موجودة بعد؛ أنت عظيمة، على الرغم من سقوطك! من ذا الذي سيقود أبناءك المشتتين الآن كيما يحطم قيود الاستعباد التي ترسفين فيها منذ زمان طويل؟ وا أسفاه! لقد باد هؤلاء اليونانيون الصناديد الذين تقحموا الموت الأكيد ونشدوا قبرهم الماجد الناظر بالفخر في مضيق ثرموبيليه ! أوه! أين من يستلهم هذه الروح النبيلة الباسلة؟

أين من يقفز من شطآنِ ايروتاس [١]، داعياً إياك من القبر الذي ترقدين به؟

-٧٤-

أي روح الحرية! حينما رافقت ترازيبيلوس [٢] وصحبه فوق قمة فيليه، هل قدرت العار والكوارث التي تصيب اليوم نضارة جمال سهلك الأتيكي؟ إنهم لم يعودوا ثلاثين طاغية هؤلاء الذين يكبلون أحفاد ترازيبيلوس، بل في وسع كل مسلم أن يكون السيد فوق أرضك. إن ابناءك لا يستطيعون النهوض، بل يقنعون باللعنات الزائفة التي لا

(١) ايروتاس نهر بنيت إسبرطه على شاطئه ؛ والذين سقطوا في ثرموبيليه كانوا من الإسبرطيين .

(٢) ترازيبيلوس ، قائد أثيني مشهور ، حاول طرد الطغاة الثلاثين ، ونجح في هذه المحاولة سنة ٤٠١ق .م ، وكان صحبه فيها ثلاثون من أصدقائه فحسب . وكان جزاؤه عن هذا العمل الوطني النبيل تاجاً مصنوعاً من غصنين من الزيتون . أما فيليه فقرية في أتكا على مقربة من أثينا ، كانت جيدة التحصين ، إذ تقوم على صخرة وعرة شديدة الانحدار في الطريق من طيبة إلى أثينا . وشهرتها أتت من أنها كانت أول بقعة استولى عليها ترازيبيولس حينما بدأ تحرير أثينا من طغيان الطغاة (سنة ٤٠٤ ق .م) . وعنها يقول بيرن : "من قلعة فيليه التي تبقت منها أطلال كبيرة ،يتبدى للعين مباشرة سهل أثينا وبنتليكوس وهميتوس وإيجبه والأكروبول ؛ وعندي أن هذا المنظر أروع من سنترا ومن استامبول" .

تجدي فتيلاً، ترتعد فرائصهم تحت صولة يد الأتراك الحديدية. إنهم عبيد من الميلاد حتى القبر؛ عبيد في القول والفعل، حتى لم يعودوا جديرين باسم الإنسان.

-٧٥-

كل شيء قد حال فيهم، اللهم إلا قسمات الوجه! ومن ذا الذي يبصر النار التي لا تزال متقدة في كل عين من عيونهم دون أن يميل إلى الاعتقاد أن قلبهم يحترق من جديد بلهيبك الخالد، أيتها الحرية المفقودة؟ كثير منهم لا يزال يحلم بأن الساعة التي سيستعيدون فيها تراث آبائهم قريبة؛ وإنهم ليصبون إلى نجدة من الخارج، مهيبين بأسلحة أوربا، غير متجاسرين على ملاقاة العدو وحدهم، كيما يمحوا اسمهم من صفحة العبودية المؤلمة.

-٧٦-

وأنتم يا من تملكون ميراثاً غير العبودية، أفلا تعلمون أن من يريد أن يكون حراً يجب أن يحطم هو بنفسه أغلاله، وأن ساعده هو وحده الذي يستطيع أن يظفر له بحريته؟ أفتظنون أنكم تستطيعون الحصول عليها بواسطة الفرنسي أو الروسي؟ ألا فلتطرحوا كل هذه الأوهام! أجل، قد يكون في وسع هؤلاء أن يذلوا أعناق مستعبديكم العتاة، ولكن نار الحرية المقدسة لن تشتعل على مذبح الحرية من أجلكم. أي أشباح الهيلوتيين [١]! انتصروا على عدوكم! أي بلاد اليونان! إن غيرت سادتك، لن تتغير حالك البائسة؛ إن أيام مجدك قد زالت، ولكن سنوات عارك لا تزال قائمة.

-٧٧-

إن البلد الذي فتح باسم الله وأخذ من أيدي الكفار (النصارى)، يستطيع هؤلاء الكفار أنفسهم أن يستردوه من بنى عثمان؛ ولعل أبراج السراي التي لا يمكن النفوذ إليها، أن تستقبل الفرنجة الذين دخلوا من قبل [٢]. إن أبناء عبد الوهاب الثائرين [٣] الذين تجاسروا على انتزاع الهبات التقية التي تبرع بها المسلمون لقبر الرسول،

(١) الهيلوتيون هم العبيد العموميون في إسبرطة، وكانوا يعاملون أسوأ معاملة، كما كانوا يميزون بملابس خاصة.

(٢) في العهد الذي غزاها فيه اللاتينيون، وصاروا فيه سادة لعدة قرون (بيرن، عن جون) أو لعل الإشارة إلى احتلال الصليبيين للقسطنطينية.

(٣) "سقطت مكة والمدينة منذ زمن قليل في أيدي الوهابيين. وهم قبيلة عربية تزداد قوة يوماً بعد يوم" (بيرن).

يستطيعون أيضاً أن يشقوا لهم طريقاً دامياً خلال الشرق؛ ولكن الحرية لن تعود مطلقاً لتسكن هذا البلد المسكين، الذي فيه تتوالى أجيال من العبيد إثر أجيال خلال قرون من الآلام والأحزان.

-٧٨-

تأمل مع هذا مرحهم، عما قليل تبدأ أيام الكفارة المسيحية التي يتهيأون فيها للاحتفال بأسرارهم المقدسة كيما يرفع عن الإنسان وزر خطيئته الكبرى، بالصوم والصلاة. ولكن قبل أن تلبس التوبة خرقة الزهد، يسمح للكل بأيام لذات فيها يشارك كل بنصيبه السري؛ فيرقصون في ثياب تنكرية عديدة الشيات والألوان، ويشاركون في موكب التقليد بالكرنفال الجذلان.

-٧٩-

وأية مدينة فيها من اللهو مثل ما فيك، يا استامبول! [١]! في هذه العاصمة القديمة لأمبراطوريتهم الواسعة، ينسي اليونانيون أن العمائم تدنس معبد أياصوفيا ومذابح اليونان (وا أسفاه إن كورثها لا تزال تردد في نشيدي!). لقد كان شعراؤها مرحين جذلاناً، لأن الشعب كان حراً، فكان الكل يشعر حينئذ بسرورهم، اليوم مضطربون إلى التظاهر به. إن عيني لم تبصر يوماً مثل هذا المنظر، ولم تسمع أذني أغنية كهذه، أغنية تردد أصداؤها على ضفاف البسفور.

-٨٠-

ترددت الضوضاء على الشاطئ عالية جذلى، وتنوعت الموسيقى، ولكنها لم تنقطع عن التنغيم، والمجاديف تضرب البحر بإيقاع منتظم، والأمواج المتراقصة لها صيحة عذبة، وملك المد والجزر [١] يبسم من عرشه العالي لهذا المركب الجذلان؛ فإذا ما سرى نسيم عابر فوق صفحة الماء، خيل إلى المرء أنَّ شعاعاً رفافاً منعكساً على الموج يعبِّر عن رضا الإلهة، والأمواج المتلألئة تنير الشاطئ الذي تغمره.

(١) قال بيرن متحدثاً عن استامبول : "لقد رأيت أطلال اثينا وافسوس ودلف ؛ واجتزت شطراً كبيراً من بلاد الأتراك ، وكثيراً من ممالك أوربا ، وبعضاً من أقاليم آسيا ؛ ولكني لم أرأثراً من آثار الطبيعة أو الفن قد أحدث في نفسي تأثيراً مثل هذا الذي أحدثته رؤية استامبول" .
(٢) القمر .

-٨١-

وعلى طول الزبد انزلق عدد وافر من الكيكات [1]؛ وفتيات البلد يتراقصن على الشاطئ؛ والراقصون ومراقصاتهم قد تناسين النوم والبيت؛ وعيونهم الفاترة تتبادل النظرات الفاتانات التي لا تقوى على مقاومتها إلا نوادر القلوب؛ وأكفهم المضطربة بقشعريرة عذبة تشعر بالضغط عليها بحرارة غرام، فستجيب لليد التي تضغط عليها. أيها الحب! في نضرة الشباب! إن العاشق وقد قيّد في أكاليلك من الورد، ليدع الساخر والحكيم يثرثران ماوسعتهما الثرثرة. هذه الساعات، وهي وحدها، هي التي تشفي من أدواء سنّي الحياة.

-٨٢-

لكن، ألا يوجد، وسط هذه الجماعة المرحة في ثيابها التنكرية، قلوب تنبض بالألم المستور، يخون تخفيها وجه شاحب كليل؟ إن صوت الأمواج يبدو لهم ممزوجاً بأنين شاك ينضم إلى أشجانهم اليائسة. عندهم (هذه القلوب) أن سرور كل من حولهم ليس إلا مصدراً لإثارة الأفكار الحزينة والخواطر الأسيانة، فلا يثير في نفوسهم إلا الازدراء الكالح. آه! ما أشد بغضهم لهذا الضحك العالي الصخب، وما أقربهم إلى أن يستبدلوا بثياب العيد والفرح أثواب الحزن والحداد!

-٨٣-

بهذا يجب أن يشعر كل يوناني مخلص لوطنه، لو كان في وسع اليونان أن تفخر بعد بأن فيها ابنا وطنيا مخلصاً. إنهم غير جديرين بهذا الاسم، هؤلاء الذين يتحدثون عن الحرب والجهاد وهم مستسلمون لسلم الاستعباد، وينوحون على كل ما فقدوه؛ ومع هذا يلقون طغاتهم بابتسام رقيق، ويحملون في أيديهم الذليلة منجلاً بدلاً من الخنجر الظامئ للانتقام. آه! أيْ بلاد اليونان! إن أقل الناس حباً لك هم هؤلاء الذين يدينون لك بالأكثر: بالميلاد، ودم البطولة، وهذه السلسلة الطويلة من الأسلاف الماجدين الذين يفضحون شعبك المنحل الآن!

(١) الكيك، كلمة تركية تعني نوعاً من المراكب الخفيفة المستخدمة في البسفور خصوصاً؛ ويسمى بهذا الاسم أيضاً في مصر.

-٨٤-

حينما تستيقظ نخوة أبناء أسبرطة وقوتهم، وحينما تنشء طيبه أبامينونداس آخر، وحينما يحمل فتيان آثينا قلوباً ملأى بالشجاعة، وحينما تلد الأمهات اليونانيات رجلاً حقاً - حينئذ، وحينئذ فحسب، يمكن أن تبعثي وتستعيدي حريتك ومجدك. إن ألف سنة لا تكاد تكفي لتكوِّن دولة؛ لكن ساعة واحدة كفيلة بأن تحطمها. كم من السنين لا بد أن يمضي قبل أن يستطيع شعب أن يستعيد مجده الدارس، وفضائله الذهبية، وينتصر على الزمان والقدر!

-٨٥-

ومع هذا، فما أروع جمالك حتى في سني الحداد والأحزان هذه، أي بلاد الآلهة المفقودة والأبطال أشباه الآلهة! إن أوداءك الدائمة النضرة، وجبالك المغطاة بالثلوج [١] لتعلن أنك لا زلت ابنة الطبيعة المدللة. إن مذابحك المحطمة ومعابدك المهجورة، وأطلالها المختلطة برمام الأبطال، كل هذا قد قضي عليه حديد المرحاث. وهكذا تندرس الآثار التي أقامتها أيد فانية؛ وهكذا يفنى كل شيء اللهم إلا القيم العليا التي مجدتها الأجيال.

-٨٦-

اللهم إلا عموداً متوحداً ينوح على إخوته من المحجر [٢] القريب؛ اللهم إلا حيث يزين معبد تريتونيا صخرة كولونا [٣]، ويرف فوق الأمواج؛ اللهم إلا قبوراً منسية نصف نسيان، قبور محاربين أقوياء. إن أحجارها المسودة ومرجها الأخضر ليتحديان الزمان، لا النسيان. والرحالة الأجانب هم وحدهم الذين يتوقفون، مثلي، كيما يتأملوا، ثم يزفروا: "وا أسفاه!".

---

(١) "هناك كثير من الجبال، خصوصاً تلك التي تحمل اسم لياكورا، لا يذوب عليها الثلج كله أبداً، على الرغم من شدة قيظ الصيف؛ ولكن الثلج يذوب في السهول وهو يسّاقط" (بيرن).

(٢) "جبل بنتليكوس، الذي كان يستخرج منه المرمر الذي بنيت به كل المنشآت العامة في أثينا. وهذا الجبل يسمى اليوم منديلي؛ وفيه لا يزال يُرى كهف ضخم نشأ عن استغلال المحجر" (بيرن).

(٣) كولنا، كانت تسمى قديماً سونيوم، وهي رأس ممتد في البحر في أتكا، على بعد ٤٥ ميلاً من بيره. وكان عليها ميناء جميل ومدينة؛ وكان لمينرفا فيها معبد رائع، لا زالت منه آثار باقية.

-٨٧-

ومع هذا فسماؤك زرقاء، وصخورك عاتية [١]؛ وخمائلك عذبة تشيع فيها النضرة؛ وحقولك ممرعة تكسوها الخضرة؛ ولا زالت أشجار الزيتون فيك يانعة كما كانت حين كانت مينرفا تبسم لك، ولا يزال جبل هيميتوس ثرياً بعسله الذهبي، عليه تبني النحلة الطروب قلعتها العاطرة، هذه الرحلة الحرة المتجولة في جوك الجبلي؛ وأبولون لا يزال يموه بالذهب صيفك الطويل؛ ومرمر منيلي لم يفقد بعد شيئاً من نصاعته العتيقة. إن الفنون والمجد والحرية تمضي، ولكن الطبيعة تظل جميلة على الدوام.

-٨٨-

وأيٍّ طريق سلكنا، وطئنا أرضاً مقدسة؛ فَلِمَ يمتهن من أرضك جزء من أجل آثار تافهة. إنا لنجتاز عالماً فسيحاً من العجائب المنتشرة حوالينا؛ و كل قصص الموسا (الشعراء) لتبدو صادقة حقاً؛ حتى يكل لحظ العين من الإعجاب بهذه الأماكن التي حملتنا إليها مراراً أحلامنا في نضرة الشباب: الجبال والسهول، والروابي والأوداء كلها تتحدى القوة التي حطمت معابدك الدوارس: إن الزمان قد زلزل برج أتينيه [٢]، ولكنه أبقى على سهول مارثون الغبراء.

-٨٩-

لا الشمس تغيرت ولا الأرض في هذا المكان؛ إنما الذي تغير هو العبد؛ وكل شيء لم يعتره تبديل، اللهم إلا السيد الأجنبي الغاصب. إنه لا يزال كما هو بحدوده القديمة وشهرته الذائعة، هذا الميدان العسكري، الذي خضعت فيه رقاب الفرس تحت سيف هلاس البتار، في هذا اليوم العزيز عند المجد، الذي أصبحت فيه مارثون كلمة سحرية، لا يكاد يُنطق بها، حتى يتجلى أمام عين السامع المعسكر والأعداء والقتال ولواء الظافرين.

(١) "لا يوجد في كل أتكا، فيما عدا أثينا ومارثون، منظر أكثر تشويقاً من رأس كولونا. وإن الستة عشر عموداً الباقية لا تزال في نظر صاحب العاديات والفنان ينبوعاً لملاحظات ودراسات لا تنتهي؛ والفيلسوف يستطيع أن يحي فيه المرح المزعوم لبعض من محاورات أفلاطون مع تلاميذه؛ والسائح يمتلئ إعجاباً بالمنظر الرائع الذي تبديه أمام عينيه الجزر التي تتوج بحر ايجه" (بيرن). وأشجار الزيتون مقدسة للآلهة مينرفا.

(٢) أتينيه هي مينرفا، وبرجها هو الباثنون.

-٩٠-

الميدي الهارب، وقد ألقى بقوسه وسهمانه؛ واليوناني الباسل ومعه رمحه الأحمر يطارده؛ والجبال والسهول والمحيط والانتقام والموت، التي تحارب كلها من أجل اليونان - ذلك هو المنظر الذي تقدمه مارثون؛ فماذا بقي منه اليوم؟ وأي أثر مقدس يسم هذا السهل الفسيح، ويعيد ذكرى ابتسام الحرية وبكاء آسيا ؟ إجانة مكسورة، وقبرٌ متهتك، وغبار يثيره حافر جواد يمتطي صهوته أجنبي قاس جاف.

-٩١-

ومع هذا فإن بقايا مجدك الماضي ستدعو إليها دائماً أفواجاً من الرحالة الحزانى، غير المتعبين أبداً. ولن يزال السائح الذي أتت به رياح أيونيا، يحيى جو القتال والغناء الرفاف؛ ولن تزال أخبارك ولسانك الخالد يملآن شباب كثير من البلدان بمآثرك وصيتك المدوِّي في الآفاق. إنهما فجر الشيوخ، ودرس الشباب. إن أناشيد مينرفا والموسا سيستمع إليها الحكماء بكل إجلال وإعجاب، وسيعبدها الشعراء، حينما تميط اللثام عن حكمتها المقدسة.

-٩٢-

إن القلب النازح ليحن إلى الوطن المهجور، إذا كانت تنتظره فيه روابط رقيقة وصلات رحيمة، ويحيا سعيداً في دار أهله. أما المتوحد، فدعه يأتي لزيارة بلاد اليونان هنا، متأملاً هذه البلاد التي تلائم حاله وتنسجم مع نفسه. إن بلاد اليونان ليس بلد الصاخب في الحشد الحافل، إنما هي المأوى لهؤلاء الذين يستهويهم الحزن. ولن يأسف على أرض ميلاده، حينما يتجول حالماً متوانياً قرب المكان الذي أقيم به معبد دلف المقدس، ويتأمل السهول التي شاهدت مصارع الفرس واليونان.

-٩٣ [١]-

دعه إذن هو وأضرابه يأتون لحج هذا البلد المقدس، ويجتازون بسلام هذه القفار الساحرة. لكن ليدعوا بقاياها وآثارها، فلا تقترب أيد مخربة من هذه المناظر، كيما

(١) أضيف هذا الجزء بعد عودة بيرن إلى انجلترا .

تدنسها، فكفاها ما هي فيه وما لاقته حتى الآن من تدنيس ! إن هذه المذابح لم تنشأ من أجل هذه الفعلات الشائنة! تجلوا الآثار الباقية التي تجلتها الأمم من قبلكم؛ فلعل اسم وطننا أن يذكر غير مدنس في الأجيال التالية؛ ولعلك تنعم من جديد بالوطن الذي كان مهد شبابك، وتلفي فيه كل سرور بريء للحب والحياة!

-٩٤-

وأنت يا من رفهت طويلاً عن بطالتك بأناشيد عارية عن المجد، سيفنى تغريدك وسط جمع شعراء يرتفع صوتهم فوق صوتك. تخل لهؤلاء عن أكليل غار يصوِّحه الزمان. عبثاً يحاول التنافس من أجل الظفر به، هذا الذي لا يحفل بالنقد المر ولا بالمدح المحابي، من يوم أن تجمد كل قلب حنون يستطيع الثناء عليه. ولن يسعى المرء للإرضاء والإبهاج إن فقد كل ما يستطيع أن يهبه حبه وقلبه.

-٩٥-

وأنت أيضاً قد مضيت، أيتها المحبوبة العزيزة (١)! أنت التي ربطتني إليك رابطة الشباب وعواطف الشباب؛ يا من فعلت من أجلي ما لم يفعله أحد آخر غيرك، وأبيت أن تهجريني، وإن كنت غير جدير بك ! ما معنى وجودي؟ لقد ضاع وجودك! لم تعودي بعد ماثلة هناك كيما تستقبليني عند عودتي من أسفاري الطوال. لم يبق لديٍّ إلا الأسف على سعادة فقدتها إلى الأبد، وأيام انقضت لن أراها مرة أخرى. ألا ليتها لم تكن، أو ليتها تعود من جديد! ألا ليتني ما عدت هنا كيما أجد أسباباً أخرى للتجوال والأسفار.

-٩٦-

أواه! أيتها الحبيبة المحبة المحبوبة (٢)! إن الحزن الأثر ليفكر في الماضي، ويتعلق بأفكار تزداد إغراء كلما ازدادت عنا بعداً؛ لكن الزمان سيمزق شبحك عني أخيراً.

---

(١) هي تيرزا ، هذه الفتاة المجهولة التي بكاها بيرن .

(٢) جناس مقصود كما في الأصل .

أيها الموت الرهيب! لقد سلبتني كل ما تستطيع أن تسلبني إياه: أم وصديق [1] وثالثة تربطني بها صلة أعز من الصداقة. إن سهامك لم تصب أحداً كما أصابتني: فكل يوم تتهاوى عليَّ الأحزان تلو الأحزان، حتى قضت شيئاً فشيئاً على البقية الضئيلة الباقية من السرور التي سمحت لي بها الحياة.

-٩٧-

هل لي إذن أن أدخل من جديد غمار الناس، وأسعى على كل ما يترفع السلام عن نشدانه؟ هل أسعى إلى المآدب والمباهج والعربدة الصاخبة الزائفة الرنين في مسامع القلوب، المشوهة للخدود الجوفاء، التاركة في النفس المرهقة المكدودة ضعفاً على ضعف؟ هل لي أن أموه قسماتي بسرور مغتصب أو ضيق مستور؟ إن البسمات ليست مجار غير لدموع آتية، أو ترفع شفاهاً ذابلة يعلوها ازدراء مكشوف رغم محاولة إخفائه.

-٩٨-

ما أعظم كارثة تنتظرنا في الشيخوخة؟ أي شيء يطبع على الجبين أعمق الغضون؟ إنه أن يرى المرء كل أحبائه قد محوا من صفحة الحياة، وأن يكون وحيداً على ظهر الأرض، مثلي أنا الآن. أمام إلهي أجثو خاشعاً ضارعاً، على قلوب تمزقت وآمال تحطمت. مرِّي سريعاً، أيتها الأيام الزائفة! امضي بكل قواك كما تشائين، فلم أعد أحفل بك، منذ أن سلبني الدهر كل ما متع نفسي، وصبيَّ على سنوات شبابي أحزان شيخوختي.

(١) صديقه في كمبردج المسمى مثيوس، الذي غرق في نهر كام. أما الثالثة فهي تيرزا.

النشيد الثالث

"كيما يكون في هذا العمل ما يضطرك إلى التفكير في شيء آخر؛ فلا دواء لك في الحقيقة غير هذا والزمان"

من رسالة من ملك بروسيا إلى دالنبير، في ١٧٧٦/٩/٧ .

-١-

أثمة شبه بين محياكِ ومحيا أمك؛ أي بنيتي الجميلة! أدا [١]! أيتها الابنة الوحيدة لأسرتي ولقلبي؟ عيونك الزرق، حين رأيتها آخر مرة، كانت تبسم، ثم افترقنا- لا كما نفترق الآن - لكن وعندنا أمل.

أواه! إني لأستيقظ مرتعداً: الأمواج تختلج من حولي؛ والرياح ترفع صوتها حتى السماء. هاأنذا راحل ، إلى أين؟ لست أدري؛ لكن مضى العهد الذي كانت فيه شواطئ ألبيون تشيع في نفسي الحزن أو السرور وهي تختفي بعيداً عن ناظري.

-٢-

لقد صرت مرة أخرى فوق ثبج الموج، أجل مرة أخرى! والأمواج تتواثب تحتي كجواد يعرف راكبه. ألا تحية إلى هديرها! فلتقذفني بسرعة، إلى أي مكان شاءت!

(١) أدا : تزوج بيرن مس ملبانك في ٢ يناير سنة ١٨١٥ ؛ وولد له منها ابنة هي أدا في ١٠ ديسمبر في السنة عينها . وقد تزوجت أدا إيرل لوفليس ، وتوفيت سنة ١٨٥٢ .

فمهما اضطربت سارية السفينة المتوترة كما يهتز عود القصب، ومهما تطايرت الأشرعة الممزقة قطعاً في الهواء، فسأتابع على أي حال طريقي قدُماً. إن مثلي مثل عود من العشب البحري قد انتزع من الصخر وقذف به فوق زبد المحيط كيما يسبح إلى حيث تقوده تيارات الهاوية وأنفاس العاصفة.

-٣-

في ربيع شبابي تغنيت بأسفار من نفى نفسه باختياره وفر من روحه القاتمة: وها أنذا استأنف حديثاً لم أكد أبدأه، حاملاً إياه معي كما تحمل الريح الصرصر العاتية ساحبة. في هذه القصة أجد آثار أفكاري العتيقة وينبوع دموعي الجاف، هذه الدموع التي لم تترك خلفها غير سبيل مقفرة عقيم. إن سنواتي الراحلة لتسير متثاقلة هادجة على بقايا رمال حياتي حيث لا تنمو زهرة واحدة.

-٤-

من أيام شبابي العاصف الوجدان باللذات والأحزان فقد قلبي وقيثارتي وتراً، فصار في غير انسجام؛ ولعلي أحاول اليوم عبثاً أن أغني كم كنت من قبل أغني. لكن على الرغم مما يبعث هذا من أسى، فإني سأتعلق به، كيما ينتزعني من الحلم المرهق بحزن أثر أو سرور، فيحيطني بهالة من النسيان؛ فتبدو لي أنا أنشودة لا تخلو من متعة وإِحسان، وإن لم تبد هكذا لغيري من الناس.

-٥-

من عاش طويلاً في عالم الأحزان، وتعمق الحياة في حتى القاع بالأفعال لا بالسنوات، حتى لم يعد يدهشه شيء، ولم تعد سهام الحب أو الألم أو الشهرة أو الطموح أو الكفاح تصيب قلبه بنصل الاحتمال الصامت الحاد- إن هذا ليستطيع أن ينبئ لماذا يبحث الفكر عن ملجأ له في الكهوف المنعزلة، ولكنه يرى في هذه الكهوف تصاوير خيالية وأشكالاً تظل على حالها، برغم قدمها، في صومعة الروح المسحورة.

-٦-

إننا نهب خيالنا شكلاً وصورة من أجل الخلق، من أجل أن نحيا بواسطة الخلق حياة مليئة عميقة، محققين بهذا الحياة التي نتخيلها ونبتدعها، كما أفعل أنا الآن. من أنا؟ لست شيئاً، ولكنك لست كذلك، يا روح أفكاري! يا من أجتاب معها الدنيا، غير مرئي، وكان في وسعي أن أتأمل كل شيء، مشتعلاً بنيران روحك، ممزوجاً بميلادك وأصولك، مستشعراً بك قدرة على الإحساس جديدة، في الوقت الذي تبدت فيه حساسيتي وكأنها أوشكت على الزوال.

-٧-

لكن يخلق بي أن أفكر بطريقة أكثر وضوحاً: لقد أطلت التفكير وتركت نفسي فريسةً لأشد الأفكار ظلمة وحلوكاً، حتى صار عقلي المحترق المنهوك دوامة من الخيال واللهيب: فإنني لم أتعلم في شبابي كيف أروض قلبي، لذا تسممت ينابيع حياتي. اليوم صار الأمر متاخراً كل التأخير. فقد تغيرت حقاً؛ لكن بقيت لدي فضلة من القدرة على احتمال ما لا يستطيع الزمان القضاء عليه، وعلى التغذي بفاكهة مرة دون اتهام الأقدار.

-٨-

وكفانا من هذا القدر- فقد صار الآن في غمرة الماضي، وختم عليه السحر بخاتم الصمت.

إن هارولد الغائب منذ زمان طويل قد ظهر أخيراً من جديد؛ وإن قلبه يود ألا يحس بشيء، لكنه جريح تمزقه كلوم إن لم تكن قاتلة، فهي لا تقبل الشفاء. والزمان الذي يغير من كل شيء قد أحال روحه وقسماته كما أحال عمره: لأن السنين تختلس الشعلة من الروح، كما تختلس من الأعضاء قواها؛ وكأس الحياة المسحور لا يتلألأ إلا عند الحافة.

-٩-

لقد أفرغ هارولد كأسه سريعاً، ووجد الثمالة مُرةً كالحنظل. ثم ذهب يملؤها مرةً أخرى من ينبوعٍ أصفى وأطهر، ينبثق في أرض مقدسة، وخالَ أنه ينبوع خالد، لكن

عبثاً ؛ فإن أغلالاً مستسرة قد أحاطت به وأرهقته وإن كانت غير مرئية، وحطمت قواه وإن كانت لا تصلصل. فلما مزقه الألم، الذي أضناه صامتاً، شعر بازدياد آلامه كلما خطا خطوة، وفي أي مكان اختار أن يقيم.

-١٠-

ولما تحصَّنَ بعدم الاكتراث، خيل إليه أنه يستطيع أن يعاشر الناس من جديد، وظن أن روحه قد صارت اليوم من المناعة والأمان بحيث لم تعد تخشى أن يصيبها ما يحزنها، وإن لم يأتها ما يسرها. وفي هذا الحشد الذي كان فيه وحيداً لا يحفل به إنسان، راح ينشد موضوعاً خليقاً بالتفكير، كهذه الأشياء التي رآها فيما أبدع الله والطبيعة صنعه في البلاد البعيدة التي زارها.

-١١-

لكن من ذا الذي يرى ا لورد متفتحاً ولا يود اقتطافه؟ ومن ذا الذي يستطيع أن يعجب بنعومة الجمال ورُوائه دون أن يشعر بأن قلبه لا يمكن أن يهرم كله؟ ومن ذا يقدر على تأمل النجم الذي يجعله المجد مضيئاً فوقه هاوية الطموح دون أن يقذف بنفسه كيما يجتاز هذه الهاوية؟ إن هارولد، وقد دخل مرة أخرىٰ في زحمة الناس، قد جُرَّ بِهِ مع الدهماء المُبْلسين، فصار يطارد الزمان، لكن من أجل غاية أنبل من تلك التي كانت من قبل لديه في ربيع حياته.

-١٢-

غير أنه سرعان ما تبين أنه أقل الناس قدرة على استبطان سواد الناس، ممن لا تجمع بينهم وبينه وشيجة ولا مشابهة. فإن روحه لم تعرف مطلقاً كيف تخضع أفكارها لأفكار الآخرين، ولم تكن تستطيع أن تخضع إلا لنفسها. إنما كانت ثائرة على كل إيحاء أجنبي، فخوراً بقنوطها، قد حملتها الكبرياء على عدم الانقياد إلى أي مخلوق كائناً من كان. أجل، لقد كان هارولد قادراً على أن يجد الحياة في داخل نفسه، وأن يتنفس دون بني الإنسان.

-١٣-

فهناك حيث تقوم الجبال، يجد الأصدقاء؛ وحيث يتلاطم موج المحيط، ينشد لنفسه المأوى؛ وحيث تمتد السماء الصافية والجو الملتهب، كانت لديه النوازع إلى التجوال. والصحراء والغابة والكهف وزبد الموج الصاخب، كلها كانت له أصدقاء: فقد كانت تتحدثُ إليه بلغة متبادلة أوضح من لغته الوطنية، حتى رغب في أن يطرح ما كتب بلغته من أجل أن يفرغ لأسفار الطبيعة الرفافة على مرآة البحيرة تحت أشعة الشمس اللامعة.

-١٤-

إن مثله مثل الكلداني، يستطيع أن يتأمل النجوم، حتى يملأها بسُكّانٍ يلمعون كما تلمع أشعتها؛ هنالك تنسى الأرض وما عليها من تفاهات ووضاعات إنسانية. ألا ليته قد استطاع أن يسمو بروحه إلى تلك الآفاق، إذن لكان سعيداً! ولكن الطين الذي منه صنع الإنسان يقضي على شعاعه الخالد، حاسداً إياه على هذا النور الذي يصبو إليه، كيما تنقطع الرابطة التي تحول بينه وبين تلك السماء التي تهيب بنا إليها في شوق وحنين.

-١٥-

أما في مساكن بني الإنسان، فإن هارولد قد صار قلقاً لاغباً، محزوناً ممزقاً، يترنح كالصقر الوحشي المهيض الجناح، بعد أن كان مقامه في الهواء الطلق اللامحدود وحده: ثم ما لبث أن انتابته نوبة، حاول أن يقهرها ففعل كما يفعل الطائر السجين الذي يهاجم حديد القفص بصدره ومنقاره، حتى يصبغ الدم ريشه بالحمرة، وتحرق حرارة روحه السجين صدره الممزق.

-١٦-

وها هو ذا الآن قد شرع من جديد، وهو النافي نفسه بنفسه، في التجوال؛ لم يدع من الأمل شيئاً وراءه، وإن كان حزنه قد تضاءل. وإن علمه بأنه قد عاش في طائل،

وأنه لن يكون ثمة شيء فيما وراء القبر، قد أضفى على يأسه بسمة كالحة، بسمة إن تكن وحشية- كتلك التي ترى على وجوه الملاحين حين ينظرون إلى بقايا سفنهم الغارقة ويتأهبون لملاقة مصيرهم بجنون وتهور. فإنها مع هذا توحي بابتهاج لم يفكر في طرده عن نفسه.

-١٧-

قف!. فإنك تطأ هنا تراب أمبراطورية [١]! هنا انقبرت آثار زلزال! ألا يقوم في هذا المكان تمثال هائل، بل ولا عمود يخلد ذكرى انتصار؟ كلا، لا شيء. لكن الحقيقة السافرة فيها عظة أكبر. فلتبق هذه الأرض كما كانت! انظر كيف أخصبت الأمطار الحمراء هذه التربة وأشاعت فيها النماء! فهل هذا كل ما كسبه العالم من هذه المعركة الأولى والأخيرة، أيها "الانتصار" الواهب العروش والتيجان؟

-١٨-

وهارولد واقف وسط هذا السهل المفروش بالعظام، قبر فرنسا، ووترلو الرهيبة! كيف تمحو القوة التي أعطت، كيف تمحو في ساعة ما وهبته من عطايا، ناقلة المجد والشهرة من يد إلى أخرى، هذا المجد الزائل العابر مثلها؟ ههنا حلق النسر تحليقته الأخيرة وانقض على أعدائه، ومزق الميدان بمخالبه الدامية، ولكن سهم الأمم المتحدة قد نفذ في صدره، فضاعت حياة المجد والطموح وذهبت أفعاله سدى، وصار يحمل الحلقات المتناثرة من أصفاد العالم المحطمة.

-١٩-

جزاء عادل! إن فرنسا تعض على لجمها وتزيد من قسوة أغلالها. لكن هل صارت الأرض بهذا أكثر حرية مما كانت؟ أحاربت الأمم من أجل إخضاع رجل "واحد"؟ أو قد اتحدت كلها من أجل أن تعلم الملوك جميعاً ما هي السيادة الحقة؟ ماذا! أستظل العبودية أيضاً من جديد وثناً تعبده عصور التنوير هاتيك؟ ونحن الذين جندلنا الأسد،

(١) أمبراطورية نابليون، وقد كان بيرن شديد الإعجاب بها.

هل سندين بالطاعة بعد للذئب؟ هل سنظل نجثو بخضوع وذلة أمام العروش؟ كلا؛ لننتظر قبل أن نمدح ونمجّد.

-٢٠-

فإذا كان الملوك غير جديرين بهذا التمجيد، فلا نفخز بعد بسقوط طاغية! عبثاً سالت إذن العبرات الحارة على الخدود الناعمة، بكاءً على أزهار أوربا التي استأصلها طاغية داس كرومها. وعبثا تحمل الناس سنوات طوالاً من الموت والتخريب والاستعباد والرعب، قضي عليها اتحاد الملايين من البشر الذين هبوا ونهضوا للإجهاز عليها؛ إن المجد لا يكون عزيزاً عند الشعوب المحررة إلا إذا جَلّلَ الآسُ سيفاً كهذا الذي جرده هرموديوس على طاغية أثينا(١).

-٢١-

ترددت ضوضاء عيد يحتفل به في الليل: فإن عاصمة البلجيكيين قد حشدت نبلاءها وحسناواتها، وتلألأت المصابيح بأضوائها على وجوه الحسان والشجعان. آلاف القلوب تنبض بالسرور، حتى إذا ما علت الموسيقى بتموجاتها الصوتية الشهوانية، تبادلت العيون الناعمة نظرات الغرام وتحدث بعضها إلى بعض، وسرت النشوةُ في الجمع كصوت ناقوس الزفاف. ولكن صه، اسمع! إن صوتاً عميقاً يتردد كأنه صوت النعيٍّ الحزين.

-٢٢-

ألم تسمع شيئاً؟. كلا إن هذا لم يكن غير صوت الريح أو جلبة العربة على الطريق الصخري. ألا فلتواصلوا الرقص، ولا تدعوا السرور يقف عند حد! ولا نوم حتى الصباح، حين يلتقي الشباب باللذة من أجل طرد الساعات الحمراء الخفيفة الأقدام. لكن

(١) الإشارة هنا إلى النشيد المشهور الخاص بهرموديسو وارستوجيتون ، وهو : "سأضفر سيفي بغصن من الآس ، هذا السيف الذي جندل الطاغية ، حينما أعطى الوطنيون المتحرقون إلى الحرية والمساواة إلى أثينا . سلام لك ، يا هرموديوس! أنت يامن أعوزك النفس ؛ إنك لن تشعر مطلقاً بضربة الموت ؛ وإن جزر الأبطال السعيدة ستكون المقام الرائع الممنوحَ لك . سأضفر سيفي بغصن من الآس ، هذا السيف الذي جندل هبارخوس ، حينما ركع أمام معبد أتينيه ، ولم ينهض بعد . فإذا فهم معنى الحرية ، سُرَّ الصالح والحكيم . لقد استطعت أن تحرر وطنك ، وأن تنتشر فيها المساواة أمام القانون" وهيباس وهبارخوس كانا ولدين لبيروستاتوس طاغية أثينا ؛ وقد خلفاه في الحكم . أما هبارخوس فقد قتله هورموديوس وارستوجيتون لأسباب شخصية ؛ وكانا قد أخفيا سيفهما في أوراق آس .

أصغ! إن هذا الصوت الثقيل قد استأنف ترديده، وكأن السحاب يردد أصداءه. وإنه ليقترب من هذه الأماكن قليلاً قليلاً، ويزداد وضوحاً ورهبة. السلاح، السلاح! إنه صوت المدفع الصاخب الهدار.

-٢٣-

إن أمير برنزفك البائس قد جلس في كوة نافذة من نوافذ بهوه العالي؛ وكان أول من سمع هذا الصوت وسط هذا الاحتفال، والتقط نغمته بأذن الموت المتنبئة. وحينما تبسموا لأنه ظن أن هذا الصوت قريب، أدرك قلبه حقاً تلك الطعنة القاتلة التي جعلت أباه ممدداً فوق نعش دام [1]، والتي تهيب به أن يثأر ثاراً لا يشبعه إلا الدم. فانَطَلقَ إلى الميدان؛ وسقط صريعاً في الصفوف الأولى.

-٢٤-

آه! الناس يغدون مهطعين هنا وهناك؛ والعيون كلها تفيض بالدموع؛ والجمال الخجول يستشعر الرواع؛ وشحوب قاتل قد علا الخدود التي كانت منذ قليل تحمر خجلاً عند سماع إطراء جمالها. ثم كانت توديعات مفاجئة، وتنهدات أليمة لعلها أن لاتتكرر بعد يوماً ما. فمن ذا يستطيع أن يحدس إذا كانت هذه العيون العاشقة ستتلاقى من جديد، ما دامت هذه الليلة العذبة قد تلاها صباح كهذا مريع؟

-٢٥-

وها هم الفرسان يبادرون امتطاء صهوات الجياد، والكتائب تحتشد، والعربات تزم، والكل يهرع إلى الميدان بسرعة هائلة وينتظم في صفوف القتال؛ والرعد العميق يهدر من فوهات المدافع من بعيد؛ وفي المدينة يقرع الطبل المنذر بإيقاظ الجنود قبل أن تلمع نجمة الصباح. لكن المواطنين قد احتشدوا وفي وجوههم رهبة الروع، وتهامسوا بشفاه شاحبة: "إنه العدو! ها هو ذا قادم!".

(١) جرح والد دوق برنزفك جرحاً قاتلاً في معركة يينا.

-٢٦-

وتردد نداء أبناء كمرون وحشياً عالياً! إنه نشيد حرب لوشيل [١] الذي طالما سمعت له روابي ألبين[٢] كما سمع له أيضاً السكسون أعداؤه. أواه! وقع هذه الأنغام العسكرية في الظلام! غير أنه، كما أن النفخ يحي المزمار ذا القربة، فإن هذه الموسيقى تملأ قلوب الجبليين بجسارة حربية هائلة، وتلقى على أسماعها أنباء مغامرات إيفان ودونلد [٣].

-٢٧-

إن غابة الأردن تهدهد في أعاليها أغصانها المخضرة؛ وأشجار البلوط المجللة بأنداء الصباح تتبدى وكأنها تبكي على الشجعان السائرين إلى القتال، إذا كان لأي جماد أن يبكي. أواه! قبل أن يقبل المساء، سيُداس على هؤلاء كالعشب الذي يطأونه هم الآن. أجل إن هذا العشب سيغطيهم هم بخضرته، حينما تصرع هذه الكتل المليئة بالشجاعة الحية، وهي تنقض على عدوها يحدوها الأمل العالي.

-٢٨-

لقد رآهم آخر نهار مليئين بالحياة المتوثبة، وشاهدهم آخر مساء مغمورين بنشوة السرور وسط حلقة من الغادات الحسان. لكن منتصف الليل قد أتاهم بنذير الكفاح، وما أصبح الصباح حتى تجللوا بالسلاح، وفي النهار تلألأت كتائبهم المسلحة المتحفزة. وتجمعت السحب المنذرة بالرعد من فوقهم، ثم انفجرت عن اشلاء امتلأت بها الأرض حتى تغطت بطين جديد قد تكدس: فالفارس والجواد، والصديق العدو- كلهم قد دفنوا في قبر أحمر واحد.

-٢٩-

إن مجدهم قد تغنى به شعراء، قيثارتهم أسمى من قيثارتي؛ لكنَّ ثمة من بين هؤلاء الأبطال بطلاً أصطفيه لإنشادي، أولاً لأكفر عن ذنب أتيته نحو أبيه، وثانياً لما

(١) لوشيل أسم مقاطعة زعيم آل كمرون .

(٢) ألبين ، هي هنا اسكتلنده .

(٣) سيرايفان كمرون ، الذي حارب في كيليكرنكي في صفوف الملكيين ؛ وحفيده دونلد المشهور بلقب "لوشيل الرقيق" .

بيننا من وشائج الدم، وثالثاً لأن الأسماء اللامعة تمجد الغناء. إن اسمه ليرف من بين أعظم الأبطال الشجعان؛ وحينما أنارت صواعق الموت صفوف شجعاننا، حيث بلغ التذبيح والقتال أوجه، لم تصب هذه الصواعق قلباً أنبل من قلبك، أي هورد [1] الشاب الشجاع!

-٣٠-

الآن وقد حطم مصابك كثيراً من القلوب، وأجريي ما أجريي من العبرات، ما عسى أن تكون عبراتي، لو كان في وسعي تذارف شيء؟ غير أني حين صرت إلى جوار الشجرة ذات الغصون الخضر التي فَقَدْتَ الحياة إلى جوارها، وحين رأيت من حولي حقولاً ملأى بالثمار، والربيع قد أتى يعمل عمله الفائض بالخير والسرور، وأسراب الطير الجريئة تحلق على حفافي موكبه، أشحْتُ بصري عن كل ما أتى به، والتفت إلى ما لم يستطع الإتيان به.

-٣١-

لقد أهبت بروحك وبأرواح هذه الآلاف من الأبطال الذين خَلَّفَ كل منهم فراغاً أليماً في قلب أهله وأحبائه. ما أسعد هؤلاء الذين يبكون عليهم، لو استطاعوا أن ينسوهم ! إن بوق الملاك لن يوقظ إلاّ عواطفهم. أجل، قد يكون في وسع صوت الشهرة أن يخفف لحظة حزن صديق يدعو بلا جدوى صديقاً قد فارق الحياة، لكنه لا يستطيع أن يهدئ ثائرة الشوق الملح غير المجدي، بل يزداد هذا الاسم المبجل إعزازاً، ويملأ الحنين إليه النفس عذاباً ومرارة.

-٣٢-

إنهم ينوحون، ولكنهم في النهاية يبسمون، وهم في بسماتهم يتوجعون: وستذبل الشجرة طويلاً قبل أن تسقط. إن المركب ليسير، على الرغم من أن الشراع قد تمزق

---

(١) هو الصاغ فردريك هورد ، ابن العم الثاني لبيرن . وقد كان أبوه وصياً على بيرن ؛ والذنب الذي أتاه بيرن في حق هذا الولد هو أنه هاجمه في "الشعراء الإنجليز والنقاد الاسكتلنديون" .

والسارية قد تحطمت؛ وإن سقف القصر ليسقط، لكن أطلاله تستمر طويلاً تملأ الأبهاء الخاوية؛ وإن السور المتداعي ليظل قائماً، حينما تعصف الزوابع بشرفاته؛ والأغلال تبقى بعد المغلول بها؛ والنهار لايزال يمضي على الرغم من السحب التي تحجب الشمس: وهكذا يتحطم القلب بالألم دون أن ينضب ينبوع الحياة.

-٣٣-

إن القلب الذي مزقته الخطوب شبيه بالمرآة المكسورة التي تتكرر في كل أجزاء الزجاج، وتصنع آلاف الصور من صورة كانت واحدة، وستظل هكذا كلما ازداد تكسرها: فإنه لا يزالُ يحمل طويلاً كل آلامه؛ ويظل هادئاً، بارداً، خالياً من الدم، لا تأخذ آلامه سنة ولا نوم، لكنه يستمر في الذبول حتى يشيخ كل ما حواليه، دون أن يظهر أي شكوى، لأن هذه الأشياء فوق متناول كل تعبير.

-٣٤-

إن في ياسنا لحياة و أيّ حياة، ألا وهي حياة السم: إنه جذر حي يغذي هذه الأغصان الذابلة. لأن اليأس لن يكون شيئاً ذا بال إن أماتنا؛ لكن الحياة تنضج ثمار الألم المريعة، مثلها مثل التفاح النامي على شواطئ البحر الميت، هذا التفاح الذي لا يعطي للمسافر العطشان إلا طعم الرماد [(١)]. لو حسبَ الإنسان عمره وفقاً لساعات سروره، وقارن هذه الساعات بالباقي من حياته ـ فهل يُعَدُّ عمره بعد ستين سنة؟

-٣٥-

إن صاحب المزامير [(٢)] قد حسب عمر الإنسان؛ وإن مقداره لكاف بل وكبير حقاً، إذا كان لنا أن نصدق أخبارك، أي ووترلو ! أنت يا من قصرت أيضاً من هذه الحياة القصيرة بطبعها. إن ملايين من البشر لينطقونَ باسمك الذي صار مشهوراً، وسيردده أحفادهم صائحين: "في ووترلو امتشقت الأمم المتحدة الحسام؛ وإن أجدادنا كانوا يحاربون في ذلك اليوم الرهيب"! وهذا كثير، وهو كل ما سيبقى من ذكراها.

(١) "على شواطئ بحيرة أسفلت تنمو أشجار لها ثمار يقال عنها إنها رائعة الجمال في مظهرها الخارجي، لكنها لا تشمل في داخلها إلا على الرماد. راجع تاكيتوس، التاريخ، ١ :٥-٧" (بيرن).

(٢) النبي داود، في "المزامير"، ١٠ :٩٠ : "أيام عمرنا ستون سنة وعشر".

-٣٦- (١)

هنا في ووترلو سقط أعظم بني الإنسان، هذا الذي لم يكن شر الناس. لقد كانت روحه مزيجاً من المبادئ المتناقضة، فكانت تتعلق حيناً بأجل الأشياء، وحيناً آخر بأقلها، وكل هذا بإصرار ثابت وعزم وطيد في كلا الحالين. لقد كان متطرفاً بل وطرفاً في كل شيء! آه! لو أنك اتخذت الوسط، إذن لبقي عرشك قائماً، أو لم يكن قد وجد مطلقاً: لأن المخاطرة هي التي رفعتك وهي التي أسقطتك؛ بل أنت لا تزال تسعى الآن أيضاً إلى استعادة مجدك الأمبراطوري، وزلزلة العالم مرة أخرى، أيها الرعد الذي دوّى في أنحاء الدنيا!

-٣٧-

أنت فاتح الدنيا وأسيرها معاً ! إنها لا تزال ترتعد منك، وإن اسمك الرهيب لم يتردد في عقول الناس مثلما يتردد الآن. وقد دالت دولتك ولم تعد بعد شيئاً، اللهم إلا أن تكون ألعوبة في يد الشهرة. هذه الشهرة التي ناغتك من قبل، وصارت خادمة لك، ومتملقة لقسوتك وصولتك، حتى صرت تنظر إلى نفسك كإله: أجل، لقد تبدّيْت على هذا النحو أيضاً في عيون هذه الأمم المشدوهة التي أذهلتها فحسبتك طويلاً في نظرها كما أنت في نظر نفسك.

-٣٨-

لقد كنت دائماً فوق أو تحت مستوى الإنسان، إن في اوج عظمتك أو في حضيض شقائك: في قتالك الدنيا بأسرها، وفي فرارك من ميدان المعركة الأخيرة؛ وحيناً كنت تستعين برءوس الملوك كسلم لك، وحيناً أكثر خضوعاً من أدنى جنودك. لقد كنت قادراً على تحطيم أمبراطورية والسيطرة عليها وإنشائها من جديد، لكنك لم تقدر على التحكم في أضأل عواطفك وشهواتك! لقد كنت ماهراً في فهم الناس، لكنك لم تستطع أن تفهم نفسك، ولا أن تخفف من شهوتك للقتال؛ أجل، لقد جهلت أن الحظ حينما يطلب كثيراً، يهجر حتى أعز النجوم.

---

(١) هنا يبدأ بيرن حديثه عن نابليون .

-٣٩-

ومع هذا فإن نفسك قد تجلدت للكوارث واحتلمت مصيرها بهذا النوع من الفلسفة الفطرية التي تكون حيناً حكمة أو بروداً أو كبرياء عميقة، لكنها كانت دائماً صاباً وسماً زعافاً في نفوس الأعداء. حينما كانت جحافل الكراهية ترنو إليك كيما تسخر من رهبتك، كنت تبسم بعين هادئة متجلدة. إن الحظ حينما خان طفله المدلل، بقي هذا الطفل ثابتاً تحت أمطار الكوارث التي انهمرت عليه انهماراً.

-٤٠-

أنت اليوم أعظم حكمة مما كنت في أيام مجدك وجلالك! لأن الطموح قد أشاع في نفسك آنذاك احتقاراً بادياً للناس ولأفكار الناس. ولقد كان احتقاراً عادلاً؛ لكن هل يخلق بك أن تعبر عنه بشفتيك وجبهتك؟ أكان جديراً بك أن تنبذ بازدراء أدوات أمجادك، الذين انقلبوا أخيراً عليك من أجل تحطيمك؟ آه! إن هذا العالم شيء تافه إن اكتسب أو فقد؛ وأنت برهنت على هذا وأحسست به، كما أحس به كل من اختاروا هذا المصير.

-٤١-

آه! لو أنك خلقت لكي تقوم أو تسقط وحدك، كبرج على قمة صخرة عاتية، إذن لأعانك احتقارك للبشر على مجابهة الصدمة التي ارتطمت بها. لكن أفكار الناس كانت خطوات عبَّدت سبيلك إلى السلطان والعرش؛ وكان إعجابهم هم خير سلاح في يديك. لقد كنت اسكندراً آخر، فلم يكن لك أن تفعل ما فعله ذيوجانس من احتقار الناس، إلا إذا عزمت على خلع ثياب الملك؛ فإن الأرض ستكون إذن كهفاً واسعاً كل السعة بالنسبة إلى الساخرين المتوَّجين.

-٤٢-

لكن الهدوء جحيم بالنسبة إلى النفوس المتوثبة. وهذا كان سبب شقائك وبلائك. إن ثمة ناراً وحركة في النفوس التي تأبى أن تحصر في دائرة وجودها الضيقة، بل تصبو إلى ما وراء حدود الرغبة المتوسطة المعتدلة. إنها حين تشتعل مرة بهذه النار العسيرة

الإطفاء، لتتحرق عطشاً ولُواحاً إلى المخاطر العالية، ولا تتعب من شيء إلا الراحة؛ هذه النار حمّى في القلوب، قاسية على كل من يحملها، وكل من أصيبوا بها.

-٤٣-

إنها هي التي تصنع هؤلاء المجانين الذين ينقلون جنونهم بالعدوى إلى بقية الناس: من فاتحين غزاة وملوك، ومؤسسي شيع ومذاهب، يضاف إليهم الفسسطائيون والشعراء والساسة، وما إليهم من كائنات يعذبها القلق، وتهز بشدة كل الأوتار الخفية في النفس وهم أنفسهم فرائس خداع لمن يخدعونهم. إن مصيرهم مرموق وإن لم يكن خليقاً بهذا الرمق والحسد؛ فكم من آلام مُرَّةٍ يعانون! لو كشف الناس عن قلوب هؤلاء لتلقوا درساً نافعاً في احتقار المطامع في الظهور والسلطان.

-٤٤-

إن أنفاسهم لُهاث، وحياتهم عاصفة تحملهم حيناً في الهواء كيما تلقي بهم بعد على الأرض. لكنهم قد ألفوا هذه الحياة العاصفة إلى حد أنهم إذا بقوا بعد الأخطار التي يواجهونها ورأوا هدوء الأصيل يتلو نهار الأخطار البراق، فإنهم يشعرون بإرهاق الحزن لهم ويموتون من فرط التراخي، كالنار التي تهمل فلا تذكى، فلا ينبعث منها إلا لهيب مترنح، أو كالسيف الذي يصدأ من عدم استعماله، ويأكل نفسه دون أن يظهر أمجاداً.

-٤٥-

إن من يصعد قُنّاتِ الجبال، يشاهد أن الثلوج أو السحب تغطي أشدها ارتفاعاً. والإنسان الذي يخضع الناس لسلطانه، أو يتذرأهم بعبقريته، لا بد أن يتوقع الكراهية والغل من جانب هؤلاء الذي ينبذهم أسفله. فعلى الرغم من أن شمس المجد تشرق وتلمع فوق رأسه، وعلى الرغم من أنه يرى أسفله الأرض والمحيط، فإن صخوراً مجللة بالثلوج تحيط به، والعواصف تزأر وتهدده: ذلك ثمن الأفعال التي تقود إلى تلك الأعالي.

-٤٦-

ألا بعداً لها إذن! إن عالم الحكمة يوجد في الحكمة نفسها، أو فيك أنتِ، أيتها الطبيعة، أيتها الأم الحنون! فمن ذا الذي يقدر على منافستك في جمالك؟ آه! ما أروعك هنا على ضفاف نهر الرين الباهر الطلعة والجلال! هنا يحدق هارولد في أعمال إلهية، هي جماع لكل ما في الطبيعة من مفاتن وجمال: المياه الجارية والأوداءُ الأريضة، والثمار والأغصان المورقة، والصخور والغابات، والحقول ذوات الحصاد، والجبال، والكروم، والقصور الشامخة التي هجرها أهلوها فتنفَّستْ عن توديعات حزينة بعثت بها من أعالي شرفاتها وواجهات جدرانها التي أحاطت فيها الأعشاب بالخراب.

-٤٧-

وها هي ذي تقوم هناك، كما تقوم الروح العالية، تحطمت ولكنها لم تركع للدهماء الوضعاء؟ إنها خاوية لا تسكنها إلا الرياح التي تنفذ إلى مخادعها من ثقوبها؛ ولا تتصل إلا بالسحب المظلمة. لقد كان لها من قبل عهد نعمت فيه بالشباب والكبرياء؛ وكانت الألوية ترفرف من فوقها عالية؛ وكثير من المعارك قد نشب عند أسوارها. لكن جميع المحاربين الذين ناضلوا دونها صاروا يرقدون اليوم في قبر دام، والألوية التي رفرفت قد تمزقت واستحالت إلى تراب؛ وهذه الأبراج الشاحبة لم تعد تحتمل بعد أية ضربة.

-٤٨-

تحت هذه السقوف، وفي داخل هذه الجدران، أقامت القوة وسط نوازعها. وأصحابها من رؤساء المناسر قد دافعوا بافتخار وصولة عن قصورهم المحصنة، وفعلوا ما أملته عليهم إرادتهم الشريرة، وكانوا في تباهيهم لا يقلون عن كبار الأبطال ذوي التاريخ العريق المجدي. ماذا كان يعوز هؤلاء الغزاة الخارجين عن القانون، إلا أن يشتروا ذمة المؤرخين كيما يكرسوا لهم صفحات في كتبهم؟ أكان ينقصهم مكان أفسح؛ وقبر مزوق؟ إنهم لم يكونوا اقل شجاعة، ولم تكن آمالهم أقل سعة وحرارة.

-٤٩-

كم من أعمال مجيدة أتاها هؤلاء في منازعاتهم حول الشرف والإقطاع؛ لكن طواها الزمان! والحب، الذي يُعيرُ شعاره لدروعهم ويسجل عليها عبارات حنان فخور، قد استطاع أن ينفذ من خلال صفائح قلوبهم الفولاذية. لكنه لم يشعل من حروب. كم مرة رأت هذه الأبراج، التي استولى عليها من أجل حسناء، نهر الرين يجري ممزوجاً بالدماء تحت أنقاضها!

-٥٠-

وأنت أيها النهر الظافر النشوان، الزاخر الفيضان! إن أمواجك بَركةٌ ونعمة للشواطئ التي يستطيع جمالها أن يبقى أبداً، لو ترك الإنسان خليقتك الرائعة هاتيك على حالها، ولم يقض على وعودها الجميلة بمنجل المعارك الفتاك. آه! هنالك يصبح منظر الوادي الذي يرويه ماؤك العذب فردوساً حقاً. بل ماذا ينقص تيارك الآن، كما يتبدى لي على هذا النحو؟ يعوزه أن يكون ليثيته (نهر النسيان).

-٥١-

لقد كنت مسرحاً لآلاف المعارك؛ ولكنها زالت وباد نصف شهرتها؛ وإله المذابح طالما كدس الجثث والأشلاء على شطئانك. وإن قبورهم نفسها قد درست وعفت، ومن هم هؤلاء؟ إن تيارك قد رحض دماء الأمس، وصار كل شيء صافياً، فتلألأ شعاع الشمس على سطح مجراك متراقصاً بضيائه. لكن، أياً ما كانت سرعة أمواجك، فإنها ستجري عبثاً فوق الأحلام المريعة للذاكرة المظلمة.

-٥٢-

تلك كانت خواطر هارولد أثناء ما كان يتابع مجرى النهر. لكنه لم يخل من التأثر بمفاتن الإقليم الذي كان يجوس خلاله، وبغناء الطير المسرور في الصباح الباكر، وهي تحيي أودية تجعل المنفى عزيزاً . وعلى الرغم مما كان يعلو جبينه من كآبة وقسوة باردة حلت لديه محل عواطف أشد عنفاً وقسوة، فإن السرور لم يهجر وجهه دائماً، بل كان يختلس لحظات يظهر فيها حينما تختلبه المناظر الفاتنة.

-٥٣-

والحب هو الآخر لم يغلق بابه دونه نهائياً، على الرغم من أن أيام غرامه قد زالت واستحالت إليتراب. عبثاً نحاول أن ننظر ببرودة إلى من يبسم لنا؛ فإن القلب لا يلبث أن يعود إلى عواطفه الرقيقة على الرغم منا، ولو أن الضجر والملال قد أبعداه عن كل عاطفة دنيوية. فهكذا استشعر: لأنه كان يحتضن ذكرى عذبة، وكان ثمة قلب [1] لا يزال يعزه، ويود هو أن يذوب فيه، حتى لذ له أن يحلم به في ساعات حنانه.

-٥٤-

وهو قد عرف كيف يسر بتأمل نظرات الطفولة البريئة. لماذا، لست أدري، لأن هذا شيء غريب على من في مثل حاله. لكن ماذا تجدي معرفة الدافع إلى إحداث هذا التغيير في نفس عامرة بازدراء بني الإنسان! إن العواطف الخامدة لا تستطيع أن تشتعل في الوحدة إلا بعسر؛ ومع هذا فقد اشتعلت تلك العاطفة، على الرغم من خمود بقية العواطف.

-٥٥-

وكان ثمة قلب حنون يرتبط به بوشائج أوثق من تلك التي تربطها الكنيسة (بالزواج). وعلى الرغم من أنهما لم يرتبطا بزواج، فإن ما بينهما كان حباً طاهراً، ظاهراً، قد استطاع مجابهة كل العداوات الإنسانية القاتلة، وازداد عمقاً وتوثقاً بواسطة الحظ، ولم تؤثر في قوته نظرات العيون الساحرة لحسان أخريات. لقد ظل هارولد مخلصاً ثابتاً في غرامه، وإنه ليرسل هذه التحيات من بعيد، وهو على الشاطئ الغريب، إلى ذلك القلب الحبيب:

-أ-

في دارا خِنْفلْرَ قصر شامخ
جاثم فوق ثنيات الرنين

---

(١) حب نصف أخته، أو جستا.

حــــــولـه الأمـــــــواج تـنـزو بـين شـطـنــــــــان .
عـــــــــــلاهـا الـكـرم نـشـــــــــــوان الـفـنن
والروابـي فـــــوقـــــهــــا الأشــــجـــــار تـزهى
وحـــــــقـــــــول كـلهــــــا قـــــمح حَــــسَنْ
والقـــــرى ، تـاج جــــمــــيلٌ فـــــوقـــــهــــا
والـسـنـا يـبـــــــهـــــــــر مـن ســــــــور المدن
مـنـظـر كـــــــان فـــــــريداً فــــــتـــــــــاناً
آه! لــو كـنـت مــــــــــــعـي فـي ذا الـوطـن

-ب-

وفــــــتــــــاة الـريف زرقـــــاء الـعـــــيـــــون
ولــهــــــــــــــا كـف بـه الأزهـار تـنـدى
هـذه الجـنـة تمشي مـن عـليـــــــــــهـــــــــا
هـذه الحـــــــــسـنـاء في بَسْمٍ تـبـــــــــدى
وتجلى في الـعـــــــلا الـبــــــرج غـــــريقـــــاً
بـين أوراق عـلـت ســـــــــــوراً تحـــــــــــدى
وعـــــــلــــى واد مــــن الـــــكــــرم أطـــلــــت
صـــــخـــــرة تهــــوي بـهـــــا قـــــوس تـردى
إنمــا يـعـــــــــــــــوز هـذا الـشـطَّ كـفٌ
كَــــــفُّكَ الـبَضُ لـكـفـي يـتـــــــهــــــدى

-جـ-

إنـنـي أرسـل مــــــــــا أعـطـيـت مـن زنـبـق
لـن يـبـــــقى نضـــــيـــــراً فــــخـــــذيه
اقــــــبـليـــــــــه ، رغـم أنـي عــــــالـم
أنـه يـذبـل مـن قــــــبـل ، اقــــبـليــــــه

إنـني أحـــبــــبـــتـــــه حـــقـــاً لـعلمي :
ربما عـــــينك يـومـــــاً تجـــــتـلـيـــــه
ربـمــا روحــك تــــنــــقـــــــــــاد إلـــى
هـهـنــا ، إن ذابـلاً ذا تـبـــــصــــــريـه
وتـريـه مـن ضـــــفـــــاف الـريـن قـــــد
اقـــــبـل ، مـن قـلـبي إلى قـلبك فـــــيــــه

-د-

يـزبـد الـريـن بـنـبـل ، فـــــانـضـــــاً
يـنـشـــر الـســـحـــر بـهـــاتيك المغــــاني
والـسـنـا يـبـــهـــر والـفــــتـنـة تـبـــدو
جـــــمـــــة الألـوان فـي تـلـك المـثــــاني
أي قـــــلــــــب لا يـــــود الآن أن
يـقـــصـــر الـعـــيـش عـلى هـذا المكـان
لـيـس فـي الـدنـيــــا مـكـان مـــثـلـه
عـــز فـي الـنـفـس وفـي طـبـع الـكـيــــان
لـو رنـت عـــــيـنـاك نـحـــــوي وأنـا
هـائـم فـــوق ضـــفـــاف الـريـن فـــاني

-٥٦-

غـيـر بعـيـد من كـوبلنس يتـوهج هرم بسيط فـوق رابيـة من العـشب الرقـيق؛ وتحت قـاعدته يرقد رمـاد أحد الأبطال. لقد كـان من أعـدائنا؛ لكن هذا لا يمنعنا من إزجـاء المديح إلى ذكرى مرسو [١]. فعلى قبر هذا البطل الشاب، انهمرت الدموع الغزار الكبار من جفون الجنود الغليظة، نوحاً وحسـداً على مصـير هذا الذي عـاش من أجل فرنسـا، وناضل من أجل الدفاع عن حقوقها.

(١) فرنسوا شفران مرسو ، قائد فرنسي عظيم من قواد الثورة الفرنسية . ولد في شارتر ، وقاد جيش السانبر والميز ، وقتل عند ألتكرشن (سنة ١٧٦٩-سنة١٧٩٦) .

-٥٧-

لقد كانت حياته قصيرة، ملآى بالشجاعة والأمجاد؛ فبكاه جيشان، وناح عليه الأصدقاء والأعداء على السواء. فليتوقف الأجنبي عند تمثاله هنا، كيما يصلي لراحة هذه الروح الباسلة. أجل، لقد كان مرسو بطل الحرية، وكان من هذه الصفوة من الناس الذين لا يسيئون استخدام القوة الهائلة التي تمنحها الحرية للذين يمتشقون السلاح باسمها. إن مرسو قد احتفظ بطهارة نفسه؛ لذا ذهب مبكياً عليه من الجميع.

-٥٨-

وههنا إيرنبر يتشيتين ذات السور المتهدم وقد علاه السواد من انفجار منجم، مما يشهد بما كانت عليه هذه القلعة الرهيبة التي قاومت كل الهجمات التي انصبت عليها من المدافع والقنابل. أي قلعة النصر العزيزة! من أعلى هذه الصخرة رؤيَ الأعداء يفرون في السهل. لكن السلام قد قضى على ما لم تقو الحرب على القضاء عليه: فسلم لأمطار الصيف هذه السقوف المتكبرة التي انصبت عليها عبثاً أمطار من الحديد طوال عدة سنوات.

-٥٩-

وداعاً إذن أيها الرين الجميل! إن الغريب ليمتع نفسه طويلاً هنا ويود ألا يغادر هذا المكان الفتان. إن إقليمك مقام رائع لروحين متحدين أو للتأمل المتوحد، فكلاهما يلذ له أن يعيش شارداً فيه. آه! لو قدر لحدأة تأنيب الضمير أن تفارق أخيراً ذلك القلب الذي صار فريستها! فههنا الطبيعة التي ليست حزينة كل الحزن ولا فرحة كل الفرح، والتي هي متوحشة دون أن تكون قاسية، تصير بالنسبة إلى بقية الأرض الناعمة كالخريف بالنسبة إلى بقية فصول العام.

-٦٠-

وداعاً لك مرة أخرى! وداعاً لا غناء فيه! فلا وداع لمكان كمكانك هذا. إن نفسي مصبوغة بكل لون من ألوانك. وإذا عزفت العيون عن التملّي بسحر مناظرك، أنت أيها

الرين العزيز! فإن النظرة الأخيرة لتفيض بالإعجاب والاعتراف بالجميل. أجل، قد توجد ثمة مناطق أكثر قوة وأبهر فتنة؛ لكن لا يوجد إقليم واحد قد جمع مثلك كل هذا الجمال والعذوبة وأمجاد الماضي العريق.

-٦١-

العظمة البسيطة، والزهرة المؤذنة بأشهى الثمار وخير النضوج، والأسوار البيض اللامعة، والتيار الجاري، والهاوية المظلمة، والغابة المتوثبة النماء، والجدران القوطية الشامخة، والصخور المتوحشة الشبيهة بالأبراج، والتي تتحدى فنون بني الإنسان - كل هذا مضافاً إلى شعب أفراده بيض الوجوه كريمة أحسابهم كأبناء الإقليم، الذي تفيض خيراته الوفيرة على الجميع، وتشيع البهجة في كل أنحائه، على الرغم من سقوط الإمبراطوريات المجاورة من حوله.

-٦٢-

لكن هذا قد صار عني بعيداً. فمن فوقي جبال الألب، قصور الطبيعة، التي تمتد أسوارها العالية بشرفاتها البيض إلى أعلى السحاب. إن السرمدية قد اتخذت عرشاً لها في أبهاء ثلجية ذات سمو بارد، فيها تتكون مهاوي الثلوج، وإن كان يخيفها، يلتئم شمله عند هذه القمم العالية، كيما يبين كيف تنفذ الأرض إلى السماء، تاركة الإنسان المغرور عند الأسافل.

-٦٣-

لكن قبل أن أتجاسر على التحديق في هذه الأعالي المنقطعة النظير، لا بد لي من التوقف عند بقعة لا يخلق بي أن أمر بها عابراً: موراً ! [1] أي مورا الفخور ! أيها الميدان الوطني الغيور الذي يستطيع المرء أن يبصر فيه آثار المذابح الرهيبة، دون أن يخجل من أجل هؤلاء الذين غزوا هذا السهل! ههنا خَلَّفَ أهل برجونيا جنودهم بلا

(١) مورا ، واسمها بالألبانية مورتن ، اسم لمدينة ولبحيرة في شمال مقاطعة فريبورج وشرقي نيوشاتل ؛ وعندها حدثت معركة هائلة بين شارل الجسور ، دون بورجوني الأخير الذي غزا سويسرة ، وبين السويسريين الأحرار الذين هزموه فيها سنة ١٤٧٦ ؛ وقد خلف البورجونيون في سهل مورا ما يقرب من خمسة عشر ألف قتيل .

قبور؛ والتمثال الوحيد الباقي منهم قد تكوَّنَ من رفاتهم وعظامهم التي بقيت مكدسة على مرِّ القرون: إن أشباحهم، وقد حرمت من الراحة التي يجلبها الاحتفال الجنازي، تهيم شاردة على شطئان الاستيكس، ولهم ولولة وعويل [1].

-٦٤-

بينما ووترلو يتنافس [2] كأنَّا في هول المذابح، فإن مورا ومارثون يقف اسماهما الواحد جوار الآخر. لقد كانا انتصارين طاهرين ولدهما مجد صحيح، وأحرزهما قلب خلا من الطمع، ويد عفة لعصبة متآخية مهذبة فخور، كلها أبطال لم يدخلوا في حمأة منافسة بين أمراء أفسدتهم الرذيلة. إنهم لم يرفضوا على أمة أن تنوح على هذه القوانين الدراكونية [3] التي تزعم أن حق الملوك إلهي مقدس.

-٦٥-

بالقرب من سور متوحد، يقوم عموداً أكثر توحداً، يرفع رأسه الحزين منذ العهود الخالية. إنه الأثر الباقي الأخير من خراب السنين؛ وإنه ليحدق كما يحدق إنسان قد أحاله الخوف إلى حجر، ولكنه لا يزال حياً. وإن المرء ليدهش حين يرى هذا العمود قائماً باقياً، بينما غطت افنتكوم، عاصمة هلفسيا المتكبرة، مناطقها القديمة بأطلالها الدارسة.

-٦٦-

هنا وهبت جوليا شبابها للسماء، جوليا- أوه! ما أعذب هذا الاسم وما أجل قداسته! جوليا، هذه الطاهرة المخلصة في حب أبيها. إن قلبه كان لِمَنْ حقه أن يتلوَ حق رب السماء، إذ تحطم على قبر أبيها. لقد أقسمت العدالة ألا تأخذها الرأفة: فلم

(١) تقول الأساطير اليونانية والرومانة إن أرواح الموتى الذين لا يقبرون لا تستطيع أن تجتاز نهر الاستيكس وتدخل عليين، إلا إذا دفنت أجسادهم.

(٢) كانا، قرية صغيرة في ابوليا، فيها انتصر هانيبال على القناصل الرومان، وذبح ما يقرب من أربعين ألفاً من الرومان؛ وكان ذلك في ٢١ مايو سنة ٢١٦ ق.م. أما ماراثون: فقرية في آتكا، على بعد عشرة أميال من أثينا، مشهورة بالمعركة التي جرت فيها بين عشرة آلاف أثيني وألف بلاتي تحت قيادة ملتيادس، ضد الفرس، وقد انتصر فيها اليونان فحفظوا بذلك بلادهم من الفرس.

(٣) نسبة إلى داركون، المشرع الأثيني المشهور الذي وضع تشريعاً حوالي سنة ٦٢٣ ق.م اشتهر بشدة القسوة، حتى يقال إنه كان مكتوباً بالدم. فقد كان الكسل يعاقب تبعاً لها كما يعاقب القتل، فيحكم على مرتكب كليهما بالإعدام.

تستطع عبرات جوليا أن ترد الحياة إلى من وهبها إياها؛ لكن الحاكم كان عادلاً، فماتت على قبر هذا الذي لم تستطع إنقاذه. لقد كان قبرهما بسيطاً، لا تعلوه زينة ولا تمثال، وإن إجَّانتهما لتحمل قلباً واحداً وعقلاً واحداً، وتراباً واحداً [١].

-٦٧-

تلك أعمال مجيدة خالدة الذكرى، وأسماء يجب ألا يلحقها فناء، على الرغم من أن الأرض تنسى، ولها الحق، الأمبراطوريات التي ترتفع ثم تفنى، والشعوب المهزومة وسادتهم الطغاة. إن جلال الفضيلة الشامخ يجب أن يبقى، بل و إنه سيبقى بعد متاعبها؛ إنها ستتلألأ من معبد خلودها في شعاع الشمس، فوق كل شئون هذه الدنيا، مثل هذا الثلج [٢] الصافي الخالد الذي يتوج قمة جبال الألب.

-٦٨-

إن بحيرة ليمان تغازلني بمحياها البلوري الذي يشبه مرآةً تنظر فيها النجوم والجبال إلى هدوء مرآها في كل أثر يتركه عمقها الصافي عن علوها وألوانها: إن ههنا كثيراً من آثار الإنسان، حتى إن في وسعي أن أتأمل بهدوء كل ما أتبينه فيها من جليل. لكن سرعان ما تجدد الوحدة أفكاراً وخواطر في نفسي خفية، لعلها قد نُسيت، لكنها مع هذا لا تقل تأثيراً في نفسي عما كانت من قبل، قبل أن فرض عليَّ عَوْدي إلى حظيرة بني الإنسان أن أحيا وسط قطعانهم.

---

(١) "جوليا ألبينولا ، كاهنة شابة ، ماتت بعد وفاة أبيها بقليل ، أبيها الذي حَكَمَ عليهِ بالإعدام أولوف كيكينا بتهمة الخيانة . وكانت قد حاولت عبثا أن تظفر بالعفو عنه . وقد اكتشف شاهد قبرها منذ عدة سنوات وها هو ذا : جوليا ألبينولا ، هنا أرقد ، كخلف بائس لأب بائس ؛ وأنا كاهنة في خدمة الآلهة ؛ لم أستطع أن أنقذ أبي من الموت بصلواتي . . . وقد عشت ثلاثاً وعشرين سنة . "ولا أعلم نقشاً مؤثراً كهذا الشاهد ، وليس ثمة من تاريخ يبدو أكثر من هذا تشريفاً . تلك أسماء وأعمال يجب أن لا تنسى ؛ وإن المرء ليذكرها دائماً بعطف مواسٍ ، حينما يشيح باشتباهه عن صورة المعارك المختلطة ، التي تثير أحياناً نوعاً من المشاركة الوجدانية الزائفة التي يتلوها أخيراً اشمئزاز صادق ، ناشئ عن تلك النشوة العابرة" (بيرن) .

(٢) "أكتب هذا قبالة مونبلان (٣ يونيو سنة ١٨١٦) ، الذي يبدو باهراً حتى على هذا البعد . . (٢٠يوليو) اليوم تأملت ملياً بوضوح انعكاس مونبلان وجبل أرجنتان في بحيرة ليمان ، التي عبرتها في زورق . (بيرن) .

-٦٩-

إن تجنب بني الإنسان ليس معناه بالضرورة كراهيتهم؛ فليس كل امرئ بمهيأ للدخول في غمرتهم ومزاحمتهم في مشاغلهم. وليس من الزراية بهم أن تحتفظ بقلبك عميقاً في ينبوعه، خوفاً من أن يفيض غلياناً في حميم الطغام، حيث نصير فريسة لداء عياء، إلى أن نندب متأخراً ولزمان طويل ضرورة كفاحنا ضد العدوى، وننتقل من خطأ إلى خطأ ومن شقاء إلى شقاء وسط عالم تشيع فيه روح معادية لا نقوى على صدها والتغلب عليها.

-٧٠-

هناك تكفي لحظة واحدة من أجل أن تقذف بنا في هاوية أسف لا سبيل إلى الخلاص منه. وروحنا المعذبة تحيل حينئذ كل دمائنا إلى دموع، وتصبغ المستقبل بألوان الظلام. ولن تكون رحلة الحياة ثمّتئذ غير فرار لا أمل فيه بالنسبة إلى هؤلاء الذين يمشون في الظلام. إنَّ أشد النوتية جسارة يبحر دائماً إلى مرفأ معروف لديه؛ ولكن ثمة على خضم السرمدية بحارة رحالة تسير مراكبهم هنا وهناك، هائمة لا ترسو عند شاطئ أبداً.

-٧١-

أفليس أفضل إذن أن يظل المرء وحيداً، وأن لا يحب الأرض إلا من أجل ما فيها من مفاتن أرضية فحسب، سواء عند الأماكن التي ينبع فيها نهر الرون المنطلق كالسهم تعلوه الزرقة [١]، أو على شواطئ البحيرة التي تغذي النهر الفتي كأم تغدق حبها وحنانها على طفل عنيد تخفف صيحاته بالملاطفات؟ أوليس من الحكمة إذن أن نقضي حياتنا في مكان منعزل، بدلاً من الدخول في مضطرب الجماعة، كيما نكون قسراً مسيطِرين أو مستعبدَين؟

(١) "لون الرون ، عند جنيف ، أزرق غامق لدرجة لم أشهد مثلها في أي ماء ملح أو عذب ، لا استثني من هذا إلا البحر المتوسط في منطقة الأرخبيل" (بيرن) .

-٧٢-

إنني لا أحيا بعد في نفسي، لكنني أصير بضعة مما حوالي. والجبال تثير في نفسي عطفاً ومشاركة وجدانية، لكن ضوضاء المدينة ترهقني وتعنّيني. ولست أرى في الطبيعة شيئاً يثير اشمئزازي غير كوني حلقة بالرغم منّي في سلسلة الأبدان، وغير اعتباري واحداً من بين الكائنات، بينما تستطيع روحي أن تطير وتحلق وتمتزج بالسماء، وذرى الجبال، وسهل المحيط المنبسط، والنجوم اللامعة؛ تمتزجَ وإياها حقاً، لا باطلا.

-٧٣-

وهكذا أستغرق في مثل هذه الخواطر والأفكار، وتلك حياتي. إنني أنظر إلى صحراء العالم الآهلة بالسكان كمكان للمحن والآلام، نفيتُ فيه من أجل التفكير عن بعض الخطايا؛ وأعتقد أن في وسعي أن أفر أخيراً بأجنحة رشيقة تفوق في طيرانها سرعة الإعصار، محتقراً قيودي من الطين التي تأسر كياني السجين.

-٧٤-

وحينما تصير النفس يوماً حرة من كل ما تبغضه في هذا الشكل الوضيع، غير محتفظة بشيء من حياتها الجسدية إلا ما يبقى من الفراشة والدودة ـ ؛ وحينما تتحد العناصر بالعناصر، ويصير التراب تراباً خالصاً، أفلا أحس بكل ما أرى صادقاً بادياً حقاً، وإن كان لا يبهرني؟ أفلن أبصر الفكر الخالص من البدن، والروح الشائعة في كل مكان، الروح أشارك منذ الآن في وجودها الخالد؟

-٧٥-

أليست الجبال والأمواج والسموات بضعة مني ومن روحي، كما أني أنا بضعة منها؟ أليس حبها عميقاً في قلبي، خالصاً طاهراً؟ أولا أحتقر كل شيء إذا ما قورن بهذه الروائع؟ أولا أجابه كل المصائب والآلام فذلك أولى من أن أعزف عن مثل هذه الأحساس من أجل برود العالم القاسي، برود هؤلاء الذين قلبت عيونهم إلى أسفل، وعلقت أبصارهم بالطين، وامتلأوا بأفكار لا يضيئها نور نبيل؟

-٧٦-

لكن هذا ليس الآن موضوعي؛ فلأعد إلى ما يشغلني، سائلاً هؤلاء الذين يلذ لهم التأمل في الإجّانة التي تشمل على بقايا الموتى أن ينظروا إلى هذا الذي كان ترابه من قبل ناراً كله، والذي هو وليد هذه الأرض التي أستنشق هواءها الصافي الآن كزائر عابر. لقد حاول أن يملأ الدنيا بأمجاده؛ لكنها محاولة جنونية ضحى بكل شيء من أجل الاحتفاظ بها والحصول على أغراضه منها.

-٧٧-

هنا بدأ روسو حياته المليئة بالمتاعب والأحزان، وروسو، هذا السفسطائيُّ الوحشي المعذب نفسه؛ رسول الحزن الذي أضفى السحر على العاطفة والوجدان، وجعل الشقاء يتحدث بأبلغ عبارة. لكنه عرف كيف يجعل الجنون جميلاً، وكيف يصبغ الأفعال الخاطئة والأفكار الضالة بألوان سماوية من كلمات كأنها أشعة الشمس، تبهر العين حين تمر عليها، وتستثير الدمع الحزين بإخلاص وثبات.

-٧٨-

لقد كان حبه جوهرَ الوجدان؛ - إذ كان شعلة أثيرية تحترق وتحرق قلبه، مثله مثل شجرة ألهبتها الصاعقة؛ لأن الحب والاشتعال والاحتراق كانت كلها عنده معاني مترادفة واحدة. لكن هذا الحب لم يكن حباً لامرأة حية، ولا لميتة تطوف بنا في خيال الأحلام؛ إنما كان حباً للجمال المثالي، الذي صار عنده وجوداً، وأشعل صفحات كتبه المشبوبة، مهما يكن من غرابة مثل هذا العشق.

-٧٩-

هذه العاطفة قد تنفست وحَيّتْ في جوليا [١]، ووهبتها كل ما هو عذب ووحشي. وهذا ما قدّس أيضاً هذه القبلةَ الخالدةَ التي حيَّتْ في كل صباح شفته الملتهبة المحمومة، منحته إياها على سبيل الصداقة وحدها. لكن هذا المس الرقيق قد أشعل

(١) جوليا بطلة رواية "هلويزا الجديدة" لروسو ، ومحبوبة سان بريه المشهورة .

الشـرارة التي أضـرمت في كل حـواسـه وفـؤاده نار الغـرام المحـرقـة. في هذه الزفـرة المسـتغرقـة للروح، شعـر بأسمى مما تشعر به النفوس العـادية في امتـلاكها لكل ما تتعشقه [1].

-٨٠-

لقد كانت حياته حربا طويلة مع أعداء كان هو الناشد لهم، أو مع أصدقاء كان هو الذي لوى عنهم عذاره؛ لأن نفسه قد صارت معبداً للظنون والاتهام المتزايد، واختارت، من أجل تضحيتها القاسية، هؤلاء الذين أحبوه ولكنه حمل نحوهم كل غضب غريب أهوج. غير أنه كان في هذيان ـ لماذا ؟ من يدري ! لقد كان سببه خفياً لا يستطيع ذكاءٌ أن يكشف عنه. لكنه أصيب بالهذيان بسبب المرض أو الشقاء؛ وكان جنونه من أخطر الأنواع، لأنه كان من ذلك النوع الذي يبدو في مظهر العقل.

-٨١-

ذلك أنه كان يوحى إليه؛ ومن فمه كانت تصدر هذه الألوان من الوحي التي تلهب العالم بأسره، مثل وحيه مثل ذلك الذي كان يأتي قديماً من كهف بيثيا السري؛ وكان وحياً لا ينقطع عن الاحراق حتى تصير الممالك أطلالاً. ألم يفعل هذا بالنسبة إلى فرنسا ؟ إن فرنسا كانت قد عنت لنير الاستبداد طوال عدة قرون. لقد كانت ترتعد محطمة تحت هذا النير الذي كانت تحمله، إلى أن أيقظها صوته وصوت أمثاله فغضبت أعنف الغضب، مما هو نتيجة لمخاوف مفرطة.

-٨٢-

إن شعب فرنسا قد صنع لنفسه تمثالاً رهيباً! تمثالاً من بقايا الأفكار القديمة التي ولدت مع الزمان: فتجاسر على تمزيق القناع، كاشفاً بهذا للعالم أجمع عن كل ما كان

(١) "إشارة إلى فقرة في "اعترافات" جان جاك روسو ، فيها يتحدث عن حبه لمدام دودتو ، وعن النزهات الطويلة التي كان يقوم بها كل صباح من أجل الظفر بالقبلة الوحيدة التي كانت تمنحه الكونتيسة إياها ، وهي تحييه . وإن وصف العواطف التي كان يشعر بها حينئذ ليمكن أن يعد أحر وصف للغرام . ومع هذا فإن تأثيرات الحب هي من نوع تقصر الألفاظ عن وصفه ؛ إن اللوحة المرسومة لا تستطيع أن تمثل لنا المحيط إلا بطريقة ناقصة" (بيرن) .

خافياً حتى الآن فيه. لكنه حطم الخير مع الشر، غير مخلف إلا الأطلال، التي منها سيبني على نفس الأساس، وستجدد السجون والعروش التي امتلأت كما كانت من قبل، لأن الطمع والطموح قد أطلقا لنفسيهما العنان.

-٨٣-

لكن الاستعباد لا يمكن أن يستمر أبداً! فلا يبقى ولا يمكن أن يحتمل. لقد شعرت الإنسانية بقوتها، وأشعرت الآخرين بها. لقد كان في وسعهم أن يحسنّوا استخدامها؛ لكنهم وقد خدعتهم الجديدة، قسا بعضهم على بعض أشد القسوة؛ فتوقفت الرحمة عن الإحسان الذي كان من قبل طبيعياً لديها. لكن هؤلاء، الذين سكنوا كهوف الاستعباد طويلاً، لم يكونوا نسوراً قد ألفوا الحياة في ضوء الشمس. فأي عجب إذن في أن يكونوا قد أخطأوا أحياناً في اختيار فرائسهم؟

-٨٤-

أي جروح تندمل دون أن تترك ندوباً؟ إن جراح القلب تدمى. أطول مما تدمى سائر الجراح، وندوبها لا يمكن أن تمحى. إن من يصارع آماله هو ذاتُها، ويخرج من هذا الصراع مهزوماً، يَخْلُدْ إلى الصمت، لا إلى الإذعان. إن الذحل يصمت في مغارته إلى اللحظة التي تدق فيها ساعة الانتقام المرتقبة منذ سنوات طوال. فلا يقنطنَّ امرؤ؛ لقد أتى وسيأتي اليوم الذي يهب القدرة على المعاقبة أو المغفرة. ونادراً ما يغْتفرُ الانتقام!

-٨٥-

أي ليمان الصافية الساجية! إن التبيان فيما بين بحيرتك وبين العالم الوحشي الذي عشت فيه، لينبهني بسكونه إلى هجر مياه الأرض المعكرة نشداناً لينبوع أنقى وأصفى. إن الشراع الهادئ للمركب الذي أبحرُ عليه فيك ليشبه الجناح الصامت الذي ينتزعني من حياة القيود والاضطراب. لقد كنت من قبل أعشق زئير المحيط، لكن همسك العذب الرقيق يرن كما يرن صوت أخت عاتبتني على شدة تعلقي باللذات القاسية المظلمة.

-٨٦-

أقبلت ساعة الظلام السُّكوت. ومن شطآنك حتى الجبال، تعلو الأشياءَ ألوانُ الأصيل، وعما قليل ستغمرها ظلمة المساء: لكنها لا تزال متميزة، اللهم إلا الجوار الكابية، التي تتبدى أعاليها كَهُويٍّ عاتية وعرة. وبالقرب من ساحلك، أستروح العطور العذبة التي تفوح من كؤوس أزهار كادت أن تتفتح؛ وإلى الآذان تصل ضوضاء خفيفة لقطرات ماء تسّاقط من المجداف المعلق فوق البحيرة، أو طنين الجندب وهو يغني توديعة الليل.

-٨٧-

إن الحشرة المرحة في المساء، التي تجعل من حياتها طفولة، وتغني ملء فيها طوال عمرها؛ وبين فينة وفينة، يسمع صوت طائر من وسط أغصان الديشان، يصدح برهة ثم يصمت. فيبدو حينئذ وكأن ثمة همساً خفيفاً يحلق فوق الرابية. لكن هذا من بنات الخيال؛ لأن الندى الهابط من ضوء النجوم يقطر صامتاً دموع غرامه، قاطعاً وقته بالدموع، حتى يُنْفِذَ داخل حضن الطبيعة روح ألوانه.

-٨٨-

وأنت أيتها النجوم، أنت أشعار السماء؛ إذا كنا نسعى لقراءة مصائر الناس والدول في صفحاتك اللامعة الناصعة فاغفري لطموحنا الجامح محاولته تجاوز نطاقه الفاني من أجل الاتحاد بك؛ لأنك جمال وسر، ولأنك تخلقين في نفوسنا من الحب والإجلال السامي ما يجعل الحظ والشهرة والقوة والحياة تدعو نفسها باسم النجوم بأن تتخذ منها رموزاً عليها.

-٨٩-

خيم الصمت على الأرض وعلى السماء، وإن لم تغرق في النعاس؛ وكلاهما لا يكاد يتنفس، مَثَلُهُ مثل من يحس بشعور حاد عميق؛ وكلاهما صامت صمت هذا الغارق في خواطر عميقة. خيم الصمت على الأرض والسماء: فمن جيش النجوم العالي

إلى البحيرة المهدهدة والجبل الوسنان، كل شيء قد ائتلف في حياة عميقة، يشارك فيها كل من الشعاع والهواء والأوراق نفسها، فلا يغيب منها شيء، بل له حظه من الوجود فيها. كل شيء يشعر بهذا الذي خلق كل شيء ويقوم على حفظه ورعايته.

-٩٠-

في مثل هذه اللحظات يكون الشعور بالوحدة أضأل ما يكون؛ وفيها يستيقظ في نفوسنا الشعور باللانهائي؛ وهو شعور صادق ينفذ في أعماق كياننا، ويطهر كل وجودنا. إنه الروح والينبوع لنغمة تكشف لنا عن الانسجام السرمدي، وتنشر سحراً جديداً على كل شيء، مثل زنار سيتريا الخرافي الذي يربط كل شيء برباط الجمال؛ هذا الجمال الذي ينزع السلاح من شبح الموت، لو أنه يصيب بسلاح مادي.

-٩١-

ما أروع فكرة الفُرْسِ الأولية وهم الذين كانوا يقيمون مذابحهم فوق الأعالي وعلى قنن الجبال (١)، ويعبدون الروح الخالدة في معابد بلا جدران ولا زخارف، ناظرين إلى المعابد المبنية كأنها لا تليق بجلاله وعظمته، هذه المعابد التي شيدتها أيدي الإنسان؟ تعال قارن الأعمدة والمعابد، اليونانية أو القوطية، بمعابد الطبيعة: الأرض والسماء تكف عن حصر صلواتك في مقامات وأبنية محدودة كهاتيك!

-٩٢-

لكن وجه السماء قد تغير وحال، وأيُّ تغير! إيه أيها الليل والعاصفة والظلام، إنك لقوى عجيبة: ولكنك محبوبة برغم قوتك، مثل النور الذي يشع من عين سوداء

(١) "يجب أن نتذكر أن مؤسس المسيحية الإلهي قد نطق بأجمل حكمة وأشدها تأثيراً وهو على ظهر الجبل، لافي المعبد. "لكن دعونا من الدين كيلا نستشهد إلا بالبلاغة الإنسانية : فأجمل الخطب وأبلغها لم يُلْقَ بين الجدران ؛ فديموسنين كان يخطب في المجتمعات الشعبية، وشيشرون كان يتكلم في السوق . . . . . . والمسلمون الذين هم مخلصون لدينهم كل الإخلاص (وعلى الأقل الطبقات الدنيا في المجتمع) وبالتالي هم قابلون جداً للوجد الديني، يؤدون الصلاة في أي مكان يكونون به في الأوقات المحددة للصلاة. لهذا كثيراً ما يراهم المرء يصلون في الهواء الطلق، فوق السجادة التي يحملونها معهم دائماً، والتي يستخدمونها كسرير ومخدة معاً ؛ وطوال الزمن الذي تستغرقه الصلاة، يكونون غارقين تماماً في نفوسهم، وليس في استطاعة شيء أن يلهيهم عنها، حتى ليبدون وكأنهم لا يحيون إلا من أجل الصلاة. وان عبادة هؤلاء الناس الصريحة والروح الدينية التي تشيع في نفوسهم في تلك اللحظات، قد أثرت في نفسي أكثر من تأثير الشعائر التي تقام لله في معابد" (بيرن).

لامرأة! من بعيد تردد أصداء الرعد الواثب من صخرة إلى صخرة. ليس السحاب وحده، بل كل جبل قد وجد له الآن لساناً، والجورا تجيب، من خلال الضباب المتلفعة به، الألب السعيدة التي تناديها بصوت مرتفع.

-٩٣-

وفي كل مكان ساد سكون الليل. ألا أيها الليل الرائع الجليل! إنك لم تُرسَلْ من أجل النوم؛ فدعني أشارك في سرورك العرم الطافح! دعني أكنْ شطراً منك ومن العاصفة! ما أجمل البحيرة وهي تتلألأ وتضيء، وكأنها بحر من الفسفور! وما أروع المطر الغليظ وهو يسّاقط على الأرض متراقصاً! وعما قليل تغمر الظلمة كل هذه المغاني، ويدوّي صوت الجبال الرهيب الجذلان معاً، وكأنها مسرورة بميلاد زلزال شابّ.

-٩٤-

الرون السريع يشق طريقه بين الأعالي التي تبدو كعاشقين هجر كلاهما الآخر سريعاً وانجذم الحبل بينهما فصارت تفصل بينهما هوة شاسعة عميقة، حتى لم يعد في الوسع التقاؤهما من جديد، وإن صارت قلوبهم جميعاً محطمة يائسة؛ على الرغم من أن الحب نفسه هو الذي أوجد الغضب المحبوب الذي قضى على زهرة عمرهم. لقد فر الحب من قلوبهم، تاركاً في قلوبهم المحطمة عهداً من السنين كله شتاء، وحرباً باطنة مليئة بالعذاب.

-٩٥-

في هذه المنطقة التي شق فيها الرون السريع طريقه، هبت أشد العواصف صولة وقسوة؛ فكثير من الرعود المنطلقة من كل ناحية كأنها السهام المشتعلة، تنبئُ أن جمعاً وافراً من الزوابع قد شن الغارة. وبين هذه التلال الوعرة انطلقت أعنفها، وكأنها فهمت أنه في مثل هذه الأخاديد التي أحدثها الخراب، تستطيع السهام السماوية النارية أن تحرق كل ما اختبأ هناك.

-٩٦-

أيتـهـا السـمـاء والجـبـال والنهـر والرياح والبـحـيـرة، إن لي روحـاً قـادرة على أن تفـهـمكم! وفي وسع الليل والسحاب وبروق الصواعق أن يلهمني؛ وإن أنغام أصواتك الراحلة لهي الصليل لكل ما في نفسي من قلق ـ لو قدر لي أن أشعر بالراحة. لكن إلى أية غاية تسيرين، أيتها العواصف؟ أأنت كتلك التي تثور في داخل صدر الإنسان؟ أو أنت تجدين في النهاية، كالنسر، عشاً عالياً؟

-٩٧-

ألا ليتني أستطيع أن أجسم أفكاري وأعبر عما يجول في نفسي؛ ألا ليتني أقوى على إلباس أفكاري ثوب التعبير، وبهذا ألقي بالروح والقلب والعقل والانفعالات والأحاسيس، قويها وضعيفها، وكل ما نشدته، وكل ما أسعى إليه أو أحمله وأعرفه وأشعر به، وأتنفسه ـ ألا ليتني أستطيع أن ألقي بهذا كله في كلمة واحدة، كلمة تكون هي البرق؛ إذن لفهمت بها: لكنني أحيا وأموت من دون أن أذيع سري، ولي فكر قد خلا من كل صوت، مثله مثل سيف يظل في غمده.

-٩٨-

تبدّى الصبح من جديد، الصبح النديّ، الذي يتنفس عطراً نفيساً، ويحمل خداً من الزهر، ويسخر من السحاب في تلاعب، وينشر النور والحياة وكأن الأرض لا تشتمل على قبر. وها هو ذا قد تطور واستحال نهاراً ضاحياً. أوَ في وسعنا إذن أن نستأنف سَيْرَ حياتنا؛ وهكذا أستطيع؛ أنا الذي لا زلت واقفاً على شطآنك، أي ليمان! أن أجد مجالاً وغذاء للتأمُّلِ والتفكير، وأن أنعم بمنظر فاتن أودُّ التملّيَ به طويلاً.

-٩٩-

كلارانس! كلارانس العذبة، أي مولد الحب العميق! إن هواءك هو النَّفَسُ الشابُّ للفكر الحار المتوثب؛ وإن أشجارك لتمد جذورها في الحب؛ والثلج في الأعالي قد التقط منك ألوانك؛ وأشعة الشمس في وقت الأصيل تصبغُهُ بصبغة وردية، ويلذ لها

أن ترقد في أحضانه؛ والصخور، الصخور العتيقة المعمرة تتحدث هنا عن الحب، الذي نشر عندها ملاذاً من صدمات الدنيا، تلك الصدمات التي تهيج الروح بالأمل الباسم أولاً، المثير للقنوط من بعد.

-١٠٠-

أي كلارانس! إن طرقك قد وطئتْها أقدام سماوية، أقدامُ الحب الخالد الذي ارتقى هنا عرشا، الدرجات الموصلة إليه جبال. إن الحب هنا إله كله نور وحياة - ولكنه لا يهيمن فوق الأعالي وحدها ولا في الكهف الساكن والغابة فحسب؛ بل إن عينه لتضيء فوق الزهرة، وإن أنفاسه قد هبت، أنفاسه الرقيقة الصيفية، التي تفوق قوتها الحنون قوة الأعاصير في عنفها وشدة هبوبها.

-١٠١-

كل ما هنا ينبئ عن قدرته: من الصنوبر الكابي، الذي هو ظله في الأعالي، وهدير السيول العالي، الذي يستمع له، حتى الكروم التي تنحدر بسبيله الأخضر إلى الشاطئ، حيث تلتقي به المياه المنحنية إجلالا له، وتتعبده، مقبلة أقدامه في همس رقيق؛ والغابة المليئة بالأشجار العتيقة والجذوع الهرمة، المتوجه بالأوراق الغضة الشابة شباب السرور - تقوم حيث هي، مقدمة إليه وإلى أتباعه ملاذاً من الوحدة الآهلة بالسكان.

-١٠٢-

وحدة آهلة بالنحل والطيور، والأشياء الجميلة الأشكال والألوان، التي تتعبده بنغمات أعذب من الكلمات، وتبسط ببراءة أجنحتها الجذلى، مليئة بالحياة، لا يتطرق إلى قلبها الخوف؛ وهنا همس الينابيع، وتساقط المياه من النافورات العالية، وحفيف الأوراق فوق الأغصان، وبالبرعم الذي يحمل أعذب فكرة عن الجمال - كلها تمتد هنا وتنتشر، قد وحد الحب بينها وجمعها على غاية سامية واحدة.

-١٠٣-

من لم يعشق، يستطيع أن يتعلم هنا هذه الحكمة، وأن يجعل من قلبه روحاً ملائكية؛ ومن يعرف هذا السر الكريم، يزدد هنا حبا؛ لأن ههنا مأوى الحب، أوى إليه بعيداً عن مضايقات الناس وهموم الدنيا؛ لأن من طَبْعِ الحب أن ينمو أو يموت؛ وليس في وسعه أن يظل ساكناً غير منفعل؛ إنه يتضاءل أو يسمو إلى سعادة خالدة لا حد لها، تنافس الأنوار الخالدة في خلودها.

-١٠٤-

إن روسو لم يختر هذا المكان الذي ملأه بألوان العواطف والغرام، من أجل القصص والخيال؛ لكنه رأى فيه المسرح الذي يجب أن يهبه الوجدان لكائنات الخيال الطاهرة. هنا حل الإله الطفل حزام بسيشيه [(١)]، وجعل منها إلهة جديدة. أيتها الوحدة العميقة الرائعة، إنك تسحرين كل الحواس! هنا بسط الرون مجراه، ورفعت جبال الألب عرشها.

-١٠٥-

وأنت يا لوزان، وأنت يا فرنيه [(٢)]! لقد كنتما مقاماً لأسماء وهبتكما اسماً وشهرة. لقد رحبتما بفانيين بحثاً عن طريق الشهرة والمجد الخالد متخذين سبلاً وعرة: لقد كانا عقلين جبارين، وكان هدفهما البعيد أن يفعلا ما فعله التيتان، فيهاجما السماء من جديد بأفكار جريئة وشكوك ملحدة كان من شأنها أن تصب على رؤسها صواعق السماء، لو كان الإنسان وتجديفاته يلقى من السماء شيئاً أكثر من الابتسام العريض.

-١٠٦-

أحدهما كان هوائياً قُلَّباً، كله شعلة نار، كالطفل لا يستقر عند رغبة؛ ولكنه موهوب عقلاً متشعب الأفق، حيناً سعيداً وحيناً آخر حزيناً، تلهمه الحكمة تارة والجنون

(١) بسيشيه ، حورية بني بها كيوبيد وحملها إلى مكان مبارك ، استطاعا فيه أن ينعما سوياً ولكن فينوس أعدمتها ، لأنها حرمت العالم من ابنها ؛ غير أن جوبتر ، بناء على توسل كيوبيدا ، وهبها الخلود .

(٢) لوزان قد عاش بها جبون ، المؤرخ الإنجليزي المعروف ؛ وفرنيه قد سكنها فولتير ، الكاتب الفيلسوف الفرنسي المشهور .

طوراً آخر؛ وكان مؤرخاً وشاعراً وفيلسوفاً معاً؛ فتكاثر وسط بني الإنسان، حتى كان مجمعاً للمواهب؛ لكنه برّز خصوصاً في التهكم الذي يقلب كل شيء في طريقه، مَثَلُهُ مثَلُ الريح الهوجاء تقلب كل شيء حيث تشاء: فحيناً يهاجم الحماقة، وحيناً آخر يزلزل العروش.

-١٠٧-

أما الآخر فكان عميقاً بطيئاً، مستغرقاً في طويل التفكير، قد كرس حياته الحافلة المجدة لخدمة الحكمة؛ وكان عاكفاً على التأمل، غنياً بالعلم؛ قد هيأ له سلاحاً ذا حد ماض قاس، يقوض صرح عقيدة راسخة بسخرية جديدة. أجل، لقد كان رب السخرية، هذه التميمة السحرية التي كانت تثير ثائرة قلوب أعدائه ومخاوفهم؛ فكانوا ينتقمون لأنفسهم منه بإيعاده بالنار والجحيم: هذه الحجة الكبرى عند الأتقياء المؤمنين ضد كل شكوك الملحدين.

-١٠٨-

لكن، سلام على أرواحهما ! فإن كانا قد استحقا نقمة السماء، فإنهما يتعذبان. وليس من حقنا نحن أن نحكم في أمرها؛ وبالأولى أن نحكم عليها بالإدانة. وستأتي الساعة التي تعلم فيها مثل هذه الأشياء للجميع. إن الرجاء والخوف يرقدان سوياً في تراب القبر؛ وحينما تعود الحياة، كما نعتقد، كيما نحيا من جديد، فسنعاقب بالقسطاس، أو تغفر لنا ذنوبنا.

-١٠٩-

لكن دعنا من أعمال الإنسان، كيما نتأمل أعمال خالقه المنتشرة من حولنا؛ ولْنَقِفْ هذه الصفحات التي أغذيها بالكثير من أحلامي، حتى لتبدو من غير نهاية. إن السحب المتجمعة من فوق رأسي ذاهبة لكي تتوج قمم الألب؛ ولا بد لي أن أنفذ فيها، وأن أتأمل كل ما يستطيع بصري الكشف عنه، بينما أصعد هذه الأقاليم العليا التي تتلقى عندها الأرضُ معانقاتِ قوى الهواء.

-١١٠-

إيطاليا ! أيْ إيطاليا! عندما أراك، أشعر بأن بهاء القرون الماضية قد أضاء فأذهل روحي، منذ أن أوشك القرطاجني [1] القاسي على الاستيلاء عليك حتى الهالة الأخيرة من الزعماء والحكماء الذين يمجدون تاريخك المقدس. لقد كنت عرش الأمبراطوريات وقبرها. واليوم لا يزال الظمآن إلى الينبوع الذي يحوي العلم والعرفان يسعى على الينبوع الخالد في الروابي السبع التي تضمها روما في أحضانها.

-١١١-

لكني أقطع هنا حديثاً اتصلت فقره تحت فأل غير سعيد: إن شعورنا بأننا لم نعد بعد ما كنا عليه، وإحساسنا بأننا لسنا كما يجب أن نكون، وتسليحنا القلب ضد نفسه، وإخفاءنا بحذر متفاخر الحب أو الكراهية، أو الغضب أو الرقة، أو الغرض أو الأحزان أو الحماسة ـ مما يجعل الفكر في استعباد مستمر ـ ؛ كل هذا عمل شاق للروح. لكن لا عليَّ؛ فقد جَرَّبْتُ حظي.

-١١٢-

وهذه الكلمات المنظومة في أغنية قد تكون حيلة بريئة: نوعاً من التلوين للمناظر التي تجلت أمامي، والتي وددت امتلاكها عابراً من أجل أن أسحر قلبي وقلوب الآخرين لبرهة من الزمان. إن الشهرة عطش الشباب؛ ولكني لست من الشباب بالدرجة التي أنظر فيها إلى ابتسام الناس أو عبوسهم كنوع من الفقدان أو الظفر بقسط من المجد. لقد وقفت دائماً وحيداً، وهأنذا أقف اليوم وحيداً، ـ مذكوراً أو منسياً.

-١١٣-

لم أحبب العالم، والعالم لم يحببني؛ ولم أتملق يوماً رتبه ومظاهره؛ ولم أركع أمام معبوداته بركعة صابرة خاضعة؛ كما أني لم أقسر خدي على الابتسام، ولم أدخل في زمرة المتملقين الذين يعبدون صدى. بل لقد كنت في محتشد الناس غريباً وسطهم؛ لقد

---

(١) هانيبال .

أقمت بينهم، لكني لم أكن واحداً منهم؛ لقد تلفعت بثوب من أفكار ليست من أفكارهم، ولا يمكن أن تكون منها إلا إذا كانت سلكت عقلي في عِقْدهِم وأخضعت روحي هكذا لنفوسهم.

-١١٤-

لم أحب العالم، والعالم لم يحببني؛ لكن لنفترق كعدوين كريمين. وبودي أن أومن، على الرغم مما أثبتته لي التجربة، بأن ثمة كلمات هي أشياء، وآمالاً لا تخدع، وفضائل رحيمة لا تنصب الحبائل للضعفاء. وبودي أيضاً أن أومن بأن ثمة مصائب يحنو عليها الآخرون بإخلاص [١]؛ وبأن ثمة على الأقل رجلين أو ثلاثة هم تقريباً كما يظهرون أمام الناس؛ وأن الخير ليس مجرد كلمة، ولا السعادة حُلْمٌ.

-١١٥-

أي بنيتي! باسمك بدأت هذا النشيد؛ وباسمك أيضاً، أي أدا العزيزة، سأختمه. إنني لا أراك، ولا أسمع لك، لكن لا يوجد مخلوق قد تصور نفسه فيك غيري؛ أنت الصديقة التي يمتد إليها الظل، ظل سنواتي المقبلة؛ على الرغم من أنك قد لا ترين جبيني [٢]، فإن صوتي سيتردد في أحلامك، وسيبلغ قلبك، حيثما يكون قلبي قد غاض منه الدم. أجل، ستسمعين نغمات عذبة تتهادى إليك من رُفاتِ أبيك.

-١١٦-

أواه! أن أشارك في تنشئة روحك، وأراقب مطلع فجر مسراتك الطفولية، وأتأمل كيف تكبرين، وأنظر إليك وأنت تتلقفين العلم بالأشياء والأحياء التي تتبدى لك حينئذ عجائب ومعجزات؛ وأن أهدهدك برفق على ركبتي، وأطبع قبلة أبوية على شفتيك الناضرتين ـ كل هذا لم يكن مقدراً لي. ومع هذا فإنه من طبعي؛ وعلى ما أنا عليه الآن لا أدري ماذا في نفسي، لكنني أستشعر بها شيئاً من هذا القبيل.

(١) قال لاروشفوكو : "في محن أعز أصدقائنا يوجد دائماً شيء لانعافه" (بيرن) .

(٢) انفصلت ليدي بيرن عن زوجها في منتصف يناير سنة ١٨١٦ ، وسن أدا خمسة أسابيع . وفي ٢٥ أبريل سنة ١٨١٦ ، غادر بيرن انجلترا إلى غير رجعة أبداً . فكأنه لم ير ابنته إذن بعد هذا الرحيل من بلاده .

-١١٧-

نعم! حتى لو علموك كراهيتي كواجب عليك أداؤه، فإنني موقن بأنك ستحبينني؛ وعلى الرغم من أن اسمي لن يذكر أمامك وسيُحْرُمُ ذكره عليك، وكأنه كلمة من تلك الكلمات السحرية الجالبة للشقاء، وكلقب غير جدير بالاحترام؛ وعلى الرغم من أن القبر سيغلق علي من دونك، فكل هذا سواء، فإنني موقن بأنك ستحبينني؛ وحتى لو حاول امرؤ أن يستنزف دمي من شرايينك، فإنه سيبوء بالفشل التام، فإنك أيضاً ستحبينني، وستتعلقين بهذا الدم أكثر من تعلقك بالحياة.

-١١٨-

أنت ابنة الحب، رغم أنك ولدت في أيام المرارة، ونُشِّئْتِ في أحضان القطيعة والعذاب. لقد كانت هذه عناصر أبيك، كما كانت أيضاً عناصرك أنت الأخرى؛ وإذا كنت تحيين في مثل هذا الوسط، فإن نارك مع هذا ستكون أهدأ، وأملك أسمى.فسلام على مخدوعكِ الذي به ترقدين! بودي أن أرسل إليك، من فوق البحر ومن أعلى الجبال التي استروح الآن نسميها، هذه التحية المباركة التي تحمل من السعادة قدْرَ ما أدين لك منها: هكذا أقول لنفسي زافراً.

النشيد الرابع

"رأيت تسكانيا ولمبارديا ورومانيا، وذلك
الجبل الذي يفصل ويضم أجزاء إيطاليا، والبحر
الذي تسبح فيه"

أريوستو، الأهجية الثالثة

-١-

وقفت على جسر الزفرات[١] في البندقية، وعلى جانبي قصر وسجن؛ ورأيت المدينة تنبثق وسط الأمواج وكأنها برزت فجأة بفعل عصا ساحر. وعَشْرَ قرون تنشر أجنحتها الكابية حواليّ، وموجٌ محتضر يبسم لتلك الأيام الخالية، التي نظرت فيها بلاد خاضعة عدة إلى الأعمدة المرمرية للأسد ذي الجناح [٢]، حين كانت البندقية تجلس على عرشها الرفيع وسط جزرها المائية.

-٢-

إنها تبدو كعرافة بحر، قد انبثقت من المحيط منذ قليل، وعليها تاج من الأبراج الشامخة المتصاعدة في أجواز الفضاء، وهي تتهادى بجلال، كسيدة للمياه وقواها: وقد كانت البندقية هكذا من قبل حقاً. لقد كانت بائنة بناتها تؤخذ من غنائمها من كل الأمم، والشرق الذي لا تنفد له ثروة، قد صب في صدرها كل الجواهر التي انهمرت عليها كالأمطار البراقة. وهي قد تدثرت بالأرجوان، ودعت إلى أعيادها الملوك والحكام، وأغدقت عليهم ما زاد في مقامهم ومكانتهم.

(١) جسر الزفرات جسر يمتد من قصر الدوج إلى سجن الدولة . وقد سمي بهذا الاسم لأنه كانت توجد عليه غرفة يخنق فيها من يحكم عليهم بالإعدام .

(٢) هذا الأسد ، هو أسد القديس مرقس ، شفيع مدينة البندقية .

-٣-

إن أصداء تسو [١] لم تعد تردد بعد في هذه البندقية، وصاحب الجندول الذي طالما كان يتغنى بأشعاره يجدف اليوم في صمت. وقصورها تتداعى فوق الساحل، ولم تعد الأذن تلقى الموسيقى هنا إلا نادراً. آه! لقد انقضت تلك الأيام - ولكن الجمال لا يزال ههنا. إن الدول تسقط، والفنون تحول - ولكن الطبيعة لا تموت، بل ولا تنسي كيف كانت البندقية من قبل عزيزة، حتى كأنها القصر السعيد لكل احتفال، وأكثر مدن الأرض مرحاً، وكرنفال إيطاليا.

-٤-

لكنّ للبندقية في قلوبنا سحراً أروع من اسمها الذي خلده التاريخ كما مجدّته هذه السلسلة الطويلة من الأبطال البارزين الذينَ تحلق أرواحهم حزينة على أطلال المدينة التي فقدت دوجاتها. إن غنائمنا لا تنتهي بانتهاء ريالتو: فإن شيلوك، والمراكشي [٢] وبطرس لا يمكن أن يفنوا في سيل الزمان. إن هؤلاء أحجار الزوايا في هذا البناء؛ وعلى الرغم من أنهم بادوا أجمعين، فإن شاطئهم المهجور لا يزال في نظرنا عامراً بساكنيه.

-٥-

إن أبناء العقل ليسوا من الطين؛ إنهم خالدون بطبعهم، ولذا يخلقون وينشرون شعاعاً يزداد تلألؤاً، ويبعثون حياة أغلى وأعز. فكل ما يحرِّمْهُ القدر على الحياة الرتيبة في عبوديتنا الإنسانية، تهبنا إياه هذه المخلوقات الخيالية؛ إنها تطرد أولاً ما تعافه نفوسنا من أشياء، تستعيض عنها بأن تصب في قلوبنا الشابة، التي ذبلت كلُّ أزهارها الأولى، نضرة جديدة تملأ فراغها.

---

(١) كان رجال الجندولات في عهد جمهورية البندقية يتبادلون إنشاد فقرات من كتاب تسو، الشاعر الإيطالي الكبير، "أورشليم المحررة" فكان كل جندولين يتجاوبان الإنشاد. وقد سمع بيرن وهو في البندقية بعضاً من هذه الأناشيد.

(٢) كان في البندقية ثلاثة أماكن تسمى باسم ريالتو: جزيرة، وموضع استبدال النقود؛ والجسر القائم فوق القنال الكبير. والكلمة منحوتة من كلمتين: ريفا، وألتو، أي الساحل العالي. أما المراكشي فهو بطل؛ رواية شكسبير بهذا الاسم؛ وشيلوك أحد أبطال رواية: "تاجر البندقية" لشكسبير أيضاً؛ أما بطرس فكان بطل رواية "البندقية المصونة" تأليف أوتوي.

-٦-

ذلك ملاذ شبابنا وشيخوختنا: ملاذ الأول من الأمل، وملاذ الشيخوخة من الفراغ. وهذا الشعور المريح يملأ عدة صفحات؛ ولعل منها هذه التي تنمو الآن تحت عينيٌ. ولكن ثمة مع هذا أشياء تفوق قوةُ حقيقتها بهاء بلادنا الخرافية التي نخترعها بخيالنا؛ إنها ذوات أشكال وألوان يفوق جمالها جمال سمائنا الخيالية، وجمال هذه الكواكب الغريبة التي برعت الموسا في نشرها فوق عالمها الوحشي.

-٧-

لقد رأيتها، أو لعلي أكون قد حلمت بها؛ لكن دعنا من هذا! فقد تبدّت أمام عيوني وكأنها الحقيقة، ثم اختفت كالأحلام. وفي وسعي، لو شئت، أن أستبدل بها غيرها. ففي استطاعة عقلي أن يبتكر أشكالا مشابهة لتلك التي نشدتها، ووجدتها أحياناً. لكن دعها أيضاً تسلك سبيلها هي الأخرى؛ فإن العقل وقد استيقظ في نفسي، يعتبر هذه الخيالات المزهوة المغرورة غير لائقة ولا سليمة، وثمة أصوات أخرى تتحدث إليّ، وموضوعات أخرى تحيط بي.

-٨-

لقد تعلمت لغات أخرى؛ ولم أعد غريباً في بلاد ليست وطني؛ والعقل الذي يعرف كيف يكون مخلصاً لذاته، لا يدهش من أي تغير يلاقيه، وليس من العسير عليه أن يجد وطناً؛ - به أو ليس به - إنسان. ومع هذا فقد ولدت في بلد يفخر الناس بأنهم من أبنائه - ولهم الحق في هذا. فإذا كنت قد هجرت هذه الجزيرة إلى الأبد، موطن الحكمة الحرية، وإذا كنت أنشدُ وطناً آخر وراء البحار....

-٩-

فلعلي قد أحببته كل الحب ! وإذا وضعت رفاقي في أرض أجنبية، فإن روحي ستعود إلى وطني، إذا كانت الروح، بعد انفصالها عن البدن، تستطيع أن تختار لها مقاماً. وإني لأناغي الأمل في أن أذكر على لسان ذريتي بلغتي الأصيلة. لكن إذا

كانت هذه الأماني عزيزة المنال بعيدة المجال؛ وإذا كان مجدي مثل سعادتي، سريع الإضاءة والانطفاء؛ وإذا كان النسيان الكئيب الكالح سيمحو...

-١٠-

اسمي من المعبد [١] الذي يبَجّلُ فيه الموتى جميع الأمم ـ فليكن ولتزين أكاليل الغار جبيناً أسمى من جبيني، ولينقش على قبري رثاء هذا الأسبرطي: "لقد كان لاسبرطة ابناء خير منه". [٢] ومع هذا فلست أسعى، بل ولست في محتاجاً إلى أي عطف. إن الأشواك التي اقتطفتها قد نبتت على الشجرة التي غرستها: وقد مزقت قلبي و أسالت منه الدماء؛ وعليّ أن أعلم أي ثمار ستنتجها مثل هذه البذور.

-١١-

إن الأدرياتي الأرمل ينوح اليوم على زوجته؛ وزواجه السنوي لم يعد يتجدد الآن، والبوسنتور يعفن كالثوب الخلق [٣]. والقديس مرقس لا يزال يرى أسده في ذات المكان الذي كان يحتله من قبل، ولكنه صار أضحوكة في يد قوته المتداعية، في ذلك الميدان الذي ظهر فيه أمبراطور متضرعاً، بينما نظر الملوك مشدوهين حاسدين إلى البندقية حين كانت ملكة غنية ذات بائنة لا مثيل لها.

-١٢-

لقد ذل الملك الشفابني [٤]، حيث يسود اليوم الملك النمساوي ! إن امبراطوراً يطأ بأقدام متعجرفة أرضاً ركع عليها إمبراطور آخر. إن الممالك تصير مقاطعات بسيطة؛

(١) هذا المعبد هو وستمنستر أبي ، حيث يدفن عظماء الإنجليز .

(٢) "هذا هو جواب أم براسيداس ، القائد الأسبرطي (الذي مات في ساعة النصر ، سنة ٤٢٢ ق .م) ، للأجانب الذين مدحوا ذكرى ابنها" (بيرن) .

(٣) كانت البندقية في صف البابا في نزاعه مع فريدرش بربروسا (الذي يشير إليه بيرن هنا بقوله : الامبراطور ، والشفابني ، نسبة إلى إقليم إشفابن في جنوب ألمانيا) . فأهداها البابا ، جزاء خدماتها ، خاتماً ذهبياً يكون خاتم خطبتها إلى البحر الأدرياتي ، كتذكار لعظمتها البحرية . فكان يقام احتفال سنوي بمراسم هذه الخطبة والزفاف ، بأن يلقي الدوج بخاتم في الأدرياتي ، وهو على ظهر السفينة المدعوة باسم بوسنتور . وقد منعت هذه العادة منذ أن أصبحت البندقية جزءاً من الأمبراطورية النمساوية في سنة ١٧٩٨

(٤) هو فريدرش بربروسا ، دوق اشفابن ، امبراطور الأمبراطورية الرومانية المقدسة في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، وقد وقع في نزاع مع البابا اسكندر الثالث . ولكنه هزم واضطر للخضوع لهذا البابا خضوعاً مهيناً علنياً يكون حادثة من أشنع الحوادث التاريخية ، إذ اجتمع البابا اسكندر الثالث في بهو كنيسة القديس مرقس ومن حوله كبار رجال الكنيسة ، وتقدم نحوه الأمبراطور فردريك ، وألقى كل مظاهر أبهته الأمبراطورية ، وخلع معطفه ثم سجد بكل جسمه تحت أقدام الباب . فرفعه اسكندر برفق من الأرض ، وقبله ، وباركه .

والأغلال تصفد مدناً كانت ذات صولة وسلطان؛ والأمم تهوي من ذروة المجد: فبعد أن تلألأت مدة في شمس المجد، هوت دفعة واحدة إلى الحضيض كثلاجة انحلت من حزام الجبال. أوه! ألا ليت ساعة أخرى لدندولو [١] العجوز الأعمى ! ألا يبعث هذا السيد الذي بلغ الثمانين، هذا الذي فتح القسطنطينية!

-١٣-

إن جياده البرنزية [٢] لا تزال تلمع أمام باب سان مركو، وعقودها الذهبية تعكس أشعة الشمس الزاهية. لكن، ألم يتحقق وعيد دوريا [٣]؟ ألم توضع اللجم في جياده؟ إن البندقية، وقد فُقِدتْ وكُسِبَتْ، قد انتهت الثلاثة عشر قرناً التي نعمت فيها بالحرية، وغرقت هي كالنبتة البحرية تحت الأمواج التي انبعثت هي منها. وخير لها أن تغرق تحت الأمواج؛ وأن تفر من أعدائها حتى وهي في أعماق الخراب، هؤلاء الأعداء الغرباء الذين إن خضعت لهم ودانت، جللوها بعار ولم تنشد الراحة إلا في الذل والقماءة.

-١٤-

لقد كانت في شبابها مجللة بأكاليل المجد، حتى كانت (صوراً) [٤] أخرى؛ فكانت الكلمة المشهورة فيها مأخوذة عن النصر :"حاملة لواء الأسد"، [٥] هذا اللواء الذي حملته خلال الدم والنار فوق الأرض وعلى متون البحار. وفي كل حين كانت تستعبد أمة جديدة، دون أن تفقد حريتها؛ كما كانت درعاً يحمي أوربا من العثمانيين. وإني لأستشهد على هذا بكانديا [١]، منافسة طروادة، وأنت أيتها الأمواج الخالدة التي

(١) دنرولو الشيخ الأعمى كان من كبار دوجات البندقية ، وقد استولى على القسطنطينية سنة ١٢٠٤ .

(٢) الجياد البرنزية الأربعة الموجودة أمام كنيسة القديس مرقس ، وقد أحضرها دنولو من القسطنطينية بعد استيلائه عليها .

(٣) كانت البندقية في نزاع طويل مع جنوة ، حتى اضطرت إلى طلب الصلح سنة ١٣٧٩ ، فأجاب دوريا ، زعيم جنوة بهذا الجواب : أقسم بالله يا أهل البندقية ، إنكم لن تحصلوا على سلام . . . قبل أن نضع لجماً في جياد كم المطلقة العنان" . ولكن الحظ أسعف البندقية فانتصرت ، وقتل دوريا ، وهزمت جنوة أشنع هزيمة ، حتى اضطرت إلى طلب الصلح .

(٤) كانت صور أول امبراطورية بحرية كبرى في التاريخ .

(٥) قال بيرن في التعليق : "حاملة لواء الأسد" ، أي أسد القديس مرقس ، لواء الجمهورية ، ومنه أتت الكلمة بنتالون ، وبناتليون إلخ" . ولكن هذا الاشتقاق موهوم غير صحيح ؛ إنما أتت هذه الكلمة المعبر عنها بهذا القول : حاملة لواء الأسد ، من اسم "القديس بنتاليون ، القديس الشفيع لمدينة البندقية ؛ ومن هنا صار اسم بنتاليون لقباً على كل بندقي .

شاهدت معركة ليبانتو، فتلك أسماء لن يمحوها الزمان ولا الطغيان.

-١٥-

إن دوجاتها الغابرين قد صاروا في التراب كأنهم تماثيل من الزجاج قد حطمت. لكن مساكنهم هنا من قصور شامخة فاخرة تتحدث عن مجدهم التالد العريق. وإن صولجانهم المحطم وسيفهم المغطى بالصدأ قد سُلِّما للغازي الأجنبي. وإن قصورها الخاوية، وشوارعها الضيقة والوجوه الغريبة التي تذكرها بمن هم الناس الذين استعبدوها، كل هذا قد أرخى سحابة كابية موحشة فوق أسوار البندقية العزيزة.

-١٦-

حينما صرعت جيوش أثينا في سروفوسة، وتحمل الآلاف المغلولون نير الحرب، جاء الخلاص من الموسا الأتيكية، فكانت أغانيها فديتهم الوحيدة بعيداً عن بلادهم. انظر! حينما يتردد نشيدهم الحزين، تتوقف عربة الظافر المدهشة، فيسقط من يده اللجام والسيف الذي لا يعمل شيئاً آنذاك، وإذا به يفك أغلال الأسرى، ويأمرهم بأن يشكروا للشاعر أشعاره التي وهبتهم الحرية [٢].

-١٧-

وهكذا، أي مدينة البندقية! حينما لا تكون حقوقك ثابتة قوية، وتكون انتصاراتك التاريخية قد نسيت، سيكون في وسع ذكرى شاعرك المحبوب، وحبك لتسو أن يحطما الأغلال التي قيدك بها الطغاة. إن محنتك عار على الأمم الأوربية، وعار عليك خصوصاً، أي ألبيون! أَوَيَخْلُقُ بملكة البحار أن تتخلى عن أبناء البحار؟ لعل سقوط فينيسيا أن يجعلك تفكري في سقوطك، بالرغم من أسوارك الحصينة من الأمواج.

-١٨-

(١) كانديا، مدينة في جزيرة كريت، دافع عنها أهل البندقية ضد الأتراك لمدة أربع وعشرين سنة (١٦٤٥-١٦٦٩)؛ ولذا أطلق عليها هنا لقب منافسة طروادة التي حوصرت عشر سنوات. أما معركة لبيانتو فمعركة بحرية مشهورة وقعت في مدينة لبيانتو بالقرب من مدخل خليج كورنثوس سنة ١٥٧١ بين الأسطول التركي والأسطول المشترك للدول المسيحية في البحر المتوسط، تحت قيادة دون جون النمساوي. وقد شاركت البندقية بنصيب كبير في هذه المعركة.

(٢) "راجع هذا التاريخ في حياة نقياس التي وضعها فلوطرخس" (بيرن).

لقد أحببتُ البندقية منذ نعومة أظافري، فكانت لقلبي مدينة ساحرة، تنبثق وسط الأمواج كقصر في البحر أو كعمود من الماء، وكانت مأوى للسعادة وملتقى لأنواع الثراء. وفن أوتويي ورادكلف وشلر وشكسبير [1] قد طبع صورتها في نفسي. وعلى الرغم من أني رأيتُها حين على هذه الحال البائسة، فإن حبي لها لم يتناقص؛ بل لعلها اليوم في أحزانها أن تكون أعز منها حينما كانت مفخرة وفتنة وعجيبة من العجائب.

-١٩-

في وسعي أن أُسْكِنَ الماضي في البندقية، وقد بقي لها من الحاضر ما يكفي لكي يلذ العين والفكر والتأمل الحزين؛ بل لعل فيها أكثر مما نشدت وأمّلت أن أجده في البحار. إيه يا فينيسيا الجميلة ! إن شطراً من أسعد لحظات حياتي، يدين لك بألوانه؛ و إذا لم تكن ثمة عواطف لا يخنقها الزمان، ولا يزعزعها الألم، إذن لكانت عواطفي كلها باردة خرساء.

-٢٠-

في جبال الألب تنمو أشجار الصنوبر البالغة العلو، خصوصاً فوق أكثر الصخور قحولاً وتجرداً، حيث لا يوجد ثمة في باطن الأرض ما يحميها ضد صدمات العواصف المهتاجة التي تهاجم هذه الجبال؛ لكن جذوعها الخضر تهزأ دائماً بالعاصفة العادية، وتعلو حتى تبلغ درجة تليق بالجبال التي أعطت صخورها القاحلة الغبراء الحياة لهذه الأشجار، حتى صارت دوحاً عملاقاً ـ وهكذا أيضاً يمكن أن تنمو الروح.

-٢١-

---

(١) توماس أوتويي (سنة ١٦٥١ أو سنة ١٦٥٢-١٦٨٥) ، مؤلف مسرحي انجليزي ، ولد بالقرب من هرست في سسكس ، ودرس في اكسفورد . وكانت حياته القصيرة عامرة بالبؤس والفقر ، حتى ليقال إنه مات جوعاً . وقد بدأ حياته كممثل ، فلما فشل أصبح مؤلفاً مسرحياً ، وله عدة روايات منها دون كارلوس ، وأمير اسبانيا ، والبندقية المصونة الخ . وكان يمتاز بوصف العواطف الحادة واستثارة أدقّ الأحزان والدموع . أما مس آن رادكليف (سنة ١٧٦٤-١٨٢٣) فمؤلفة روائية انجليزية ، كتبت "قصة فروسية في صقلية" ، "قصة فروسية في الغابة" "الإيطالي" الخ . وتمتاز بوصف المناظر المرعبة ، وقوة الخيال . أما شلر فمعروف ، والإشارة هنا إلى قصة "العراف" ؛ وكذلك شكسبير ، والإشارة هنا إلى "تاجر البندقية" و "عطيل" .

إن الحياة والألم يمدان جذوراً عميقة في القلوب البائسة القاحلة المتوحدة: وإن الجمل ليحمل أفدح الأثقال دون تململ ولا شكاة، والذئب يستطيع أن يموت في صمت. هذه أمثلة لم تُعْطَ عبثاً: فإذا كان الحيوان ذو الطبع الدنيء أو الوحشي يتألم بصبر وجلد، أفليس في وسعنا، نحن الذين بُرئنا من طين أنبل، أن نحتمل الحياة؟ إنها ليست غير يوم.

-٢٢-

كل ألم يحطم من يتألم أو هذا يحطمه؛ وفي كل حادثة ينتهي. فالبعض منا يحييهم أمل جديد، فيعودون من حيث أتوا وينيبون إلى أحلامهم الأولى، مثلهم مثل العنكبوت يجدد نسيجه بعد أن يمزق؛ و بعضٌ آخَرُ يحنى رأسه بذلة وخضوع، فريسةً لشيخوخة مبكرة، فتذبل زهرته قبل الأوان، ويفنى مع العود الذي اعتمد عليه؛ وفريق ثالث ينشد السلوى في التقوى أو العمل أو الحرب أو الفضيلة أو الرذيلة، وفقاً لطبيعة نفوسهم من حيث كونها جبلت على الانحدار أو على الصعود.

-٢٣-

لكن عبثاً يروض المرء ألامه؛ فإن لها دائماً آثاراً كآثار حمة العقرب، لا تكاد ترى ولكنها مليئة بمرارة جديدة. وقد تحمِّلُ الأشياءُ التافهةُ القلبَ بأوزارٍ كان يود أن يتخلص منها إلى الأبد: فقد يكون في وسع صوت أو نغمة موسيقى أو أمسية صيف أو ربيع أو زهرة، أو ريح، أو محيط، - قد يكون في وسع واحد من هذه الأشياء أن يفتح الجرح من جديد، وأن يهز السلسلة الكهربية التي تصفدنا بحلقاتها الخفية؟

-٢٤-

ما السر في هذا! لسنا ندري؛ ومن المستحيل علينا أن نكتشف أصل هذا البرق الذي يصيب النفس؛ إنما نحن نشعر بضرباته الجديدة، دون أن نقدر على محو الأثر الأسود المؤلم الذي يتركه من خلفه. إنها ضرات غادرة قتالة تصيب في اللحظات التي تكون أقل ما يكون حسباناً لوقوعها، ووسط أكثر الأشياء إلفة لنا وحدوثاً، فتثير

عندنا أشباحاً وأرواحاً لا تستطيع أية تعزية أن تقتنصها ـ القلوب الباردة، الأصدقاء الذين تغيروا، وربما الموتى أيضاً، ومن تبكيهم، ومن أحببناهم وفقدناهم ـ آه ما أكثرهم، ومع هذا فما أقلهم!

-٢٥-

لكن روحي قد ضلت؛ وهأنذا أدعوها من جديد كيما تتأمل هذه الأطلال، وتقوم طللاً وسط أطلال، حتى تستعيد ذكرى دول دالت، وعظمة انقبرت، في بلاد كانت في ذروة القوة أيام مجدها العتيق، ولا زالت تأسر النفوس بجمالها، وستظل هكذا أبداً؛ بلاد هي النموذج الأعلى الذي كان في يد الطبيعة السماوية، فصُنِعَ فيها الأبطال والأحرار، وذوو الجمال والشجعان وسادة الأرض والبحار.

-٢٦-

وجمهورية الملوك، ومواطنو روما. ومنذ ذلك العهد، أي إيطاليا الجميلة: كنتِ دائماً وما زلت أيضاً جنة الدنيا و فردوس الوجود، ومأوى الفن بكل ما يستطيع إبداعه، والطبيعة بكل ما في وسعها أن تهبه. بل من ذا يستطيع أن ينافسك حتى في وحشتك اليوم؟ إن أعشابك نفسها جميلة، وقحول أرضك أثمن من خصوبة بقية الأراضي؛ وإن أطلالك لأمجادٌ، وإنّ لخرائبك سحراً بكراً لا يستطيع أن يفضه أحد!

-٢٧-

أشرق القمر، ومع هذا فليس الليل بعد. وإن الغروب ليتقاسم معه السماء؛ وإن بحراً من البهاء ليفيض على طول الأعالي الزرقاء لجبالِ فريولي. والسماء خالية من السحاب، لكنها تبدو مصبوغة بعديد الألوان، حتى لتتراءى وكأنها قوس قزح عظيم يمتد نحو الغرب، فيه يتصل النهار بالأبدية الماضية، بينما من الجانب الآخر يحلق قرص ديانا الوديع في الهواء الأزرق، كأنه جزيرة الناعمين [1].

---

(١) كتب بيرن تعليقاً على هذه الفقرة ما يلي: "قد يبدو هذا الوصف خيالياً أو مبالغاً فيه في نظر هؤلاء الذين لم يروا مطلقاً سماء إيطاليا ولا سماء الشرق. غير أني لا أقدم هنا إلا التصوير الدقيق لأمسية من أماسي شهر أغسطس، كما شهدتها بنفسي في تجولاتي العديدة على شواطئ البرنتا".

-٢٨-

وبالقرب منه نجمة واحدة، تسيطر مع القمر على نصف قمة السماء؛ لكن فيوض النور التي ترسلها أشعة الشمس تظل فوق أعالي الألب الريتية [١]، وكأن النهار والليل قد رفضا أن يسلم أحدهما الآخر، حتى تأتي الطبيعة فتطالب بتنفيذ قانونها. وأمواج البرنتا تتلقى من ألوانها مجتمعة، صبغة من الأرجوان ذات لون وردي كلون الوردة الحديثة الميلاد، تشع فوق تياره، وتلمع فوقه.

-٢٩-

وامتلأت بوجه السماء، الذي يأتي من بعيد لينعكس على سطح الماء. وكل الأصباغ، من الغروب الغني بالألوان حتى النجمة الباهرة اللمعان، تنشر فروقها اللونية الساحرة. وها هي ذي الآن تتبدل؛ فينشر ظل شاحب معطفه فوق الجبال؛ والنهار الراحل يغني كالدُّخَس الذي تعطيه كل حشرجة من حشرجات موته لوناً جديداً يزداد زهواً، حتى تأتي الأخيرة فيموت ويصير كله أغبر.

-٣٠-

ما هذا القبر الذي يتبدى أمامي في أركوا، محلقاً في الهواء؟ إنه الناووس الذي ترقد فيه عظام عاشق لَوْرا [٢]. إلى هنا يحج كل من يعشق أغاني هذا الشاعر العبقري الذي أجاد التغني بآلامه. لقد ولد كيما يمنح وطنه لغة، وينقذ بلاده من نير أعدائها المتبربرين القاسي: لقد سقى الشجرةَ التي حملت اسم محبوبته بدموعه الموسيقية الرائعة، التي كفلت له الشهرة الخلود.

-٣١-

إن ترابه محفوظ في أركوا، حيث أوفاه الحِمام، وحيث قضى الأيام الأخيرة من حياته هنا في هذه القرية القائمة على سفح الجبال. وإن أهلها ليقدمون، بفخر وكبرياء

(١) الألب الرينية جبال عالية في شمال وغرب البندقية .

(٢) عاشق لورا هو الشاعر الإيطالي المشهور فرنشسكو بتركه (سنة ١٣٠٤-١٣٧٤) . ولورا هي محبوبته ، وكانت فرنسية الأصل من أفينيو ، وزوجة هوجودي ساد ؛ وحينما رآها بترركه ، كانت سنة الثانية والعشرين ، وسنها العشرين ؛ وقد كرس أكبر أشعاره للتغني بجمالها .

أمينة، أمام أعين الزائر الغريب، بيته وضريحه: وكلاهما بسيط، لكنها بساطة تثير كل إجلال وتقديس، حتى تبعث عاطفة أكثر انسجاماً مع أغانيه من تلك التي يثيرها هرم يقام فوق قبره.

-٣٢-

والقرية الصغيرة الهادئة الناعمة التي سكن فيها، ذات هيئة تتبدى وكأنها صنعت من أجل هؤلاء الذين شعروا بفنائهم، ونشدوا ملاذاً من آمالهم المحطمة في الظلال العميقة لخمائل مخضرة فوق الروابي؛ وهي تُري منظراً بعيداً عن المدن الآهلة المكتظة بالأشغال والأعمال، تلك المدن التي لا يستطيع بهرجها أن يغري بَعْدُ أحداً من أصحاب هذه القلوب اليائسة. إن شعاعاً من الشمس الجميلة يساوي عندهم عيدا.

-٣٣-

إنهم يهيمون بالجبال والخمائل والأزهار، والأشعة المتلألئة على سطح الجدول الهامس [١]، الذي يلذ لهم أن يتناسوا عنده مرور الزمان السريع، ويقضوا أياماً أصفى من البلور الناصع، وشعورا بالدعة والرخاوة ما وسعهم الشعور، هذه الدعة المتبطلة التي قد تبدو في نظر الناس تعطلاً وبطالة، ولكن لها مع هذا فلسفتها وقيمتها. ذلك أنه إذا كنا نتعلم من الجماعة كيف نعيش، فإن الوحدة يجب أن تعلمنا كيف نموت. هنا، في الوحدة، لا نشاهد متملقين، والغرور لا يجد فيها مكاناً لتقديم معونته الزائفة. إن المرء حين يكون وحيداً لا يناضل إلا مع إلهه.

-٣٤-

أو لعله أن يناضل مع الشياطين الذين يأتون كيما يشنّوا حرباً شعواء على أحسن أفكارنا، وينشدوا فريستهم في القلوب المحزونة التي برئت من طينة كئيبة منذ ميلادها، فلذّ لها أن تقطن الظلام والوحشة والكآبة، ظانين في أنفسهم أنهم قد فرض عليهم مصير من الأحزان السرمدية التي لا تنتهي أبد الدهر: فالشمس عندهم دماء، والأرض قبر، والقبر جحيم، الجحيم هو الآخر أشد هولاً مما يحسب الخيال.

(١) يسمى هذا الجدول باسم جدول بترركه .

-٣٥-

أي فرارا! في طرقاتك الواسعة التي تنمو بها الأعشاب، والتي يدل تنظيمها على أنها لم تصنع للوحدة، يبدو كأن ثمة لعنة على مجالس السادة السابقين؛ وخلال قرون رأت أسوارك أمراء بيت أست القديم، حينا طغاة وحينا حماة (وفقاً لأهواء الدول الصغيرة)، حماة يشجعون هؤلاء الذين توجوا بالغار الذي لم يحمله من قبلهم إلا جبين دانته.

-٣٦-

وإن تَسُّو[١] مجدهم وعارهم معاً ! فسلام على هذا الشاعر الإلهي ! اسمعْ لقيثارته! وتأمَّلْ ضيق الصومعة التي وضع فيها! وانظر كيف دفع توركواتو (تسَوُّ) ثمناً فادحاً من أجل شهرته، وكيف أمر ألفونسو شاعره بالسكنى: إن هذا الطاغية البائس لم يستطع أن يطفئَ نار هذه النفس المهانة التي أراد الطاغية أن يحشرها في زمرة المجانين في جحيم قذف بهم جميعاً فيه. إن مجده العظيم قد بدد السحب التي أحاطت به؛

-٣٧-

وإن الدموع والمدائح لتقدم كل يوم إلى الأبد إلى هذا الاسم الخالد، اسم تسُّو. أما اسمك أنت يا ألفونسو، فسيعفن في النسيان، ويظل أبداً في التراب الحقير، وهو الشيء الباقي الوحيد من أسرتِكَ المتكبرة؛ لكن الحَلْقَةَ التي وضعتها في كوارثه تحملنا على التفكير في مكرك الحقير، وذكر اسمك باحتقار. أي ألفونسو! أين الآن هذه الأبهة التي أحاطت بك فوق العرش؟

لو أنك قد ولدت في طبقة أخرى، لما كنت جديراً حتى بأن تكون خادماً وعبداً لهذا الذي اضطهدته وسُمْتَهُ سوء العذاب.

---

(١) توركواتوا تسو ، الشاعر الإيطالي المشهور (سنة ١٥٤٤-١٥٩٥) الذي ولد في سورنتو في ١١ مارس سنة ١٥٤٤ ، وقد درس في جامعتي بادوفاوبولونيا . ومن سنة ١٥٦٥ إلى سنة ١٥٧٠ التحق ببلاط الملك ألفونسو ، حاكم فرارا . لكن أشيع أنه أحب أخت الملك ، فاتهم بالجنون ووضع في مستشفى المجانين .

-٣٨-

أنت، أنت لم تخلق إلا لتأكل وتَحْتَقَرَ وتموت، كالدواب التي تنفق؛ ولا فارق بينك وبينها إلا أن علفك كان أثمن، واسطبلك كان أشد سعة. أما هو، هو، فقد أحاطت به هالة رائعة من المجد، وتكلل جبينه المغضّن بالأفكار بأكاليل الغار؛ ونوره قد أضاء ولا يزال يضيءُ في حضرة كل أعدائه: عصابة الكروسكا، وبوالو هذا الذي نظر إلى أغانيه بغضب حاسد، لأنها فاقت وأخجلت قيثارة وطنه الظاهرة النشاز، التي تؤذي أصواتها الصارخة كل الآذان، أو تبعث على النوم بما فيها من اطراد وإملال.

-٣٩-

سلام على روح توركواتو المهانة! لقد قدر له أن يكون هدفاً لسهام الحقد المسمومة إبان حياته وبعد مماته. لكن لم يصبه منها سهم واحد. أنت يا من لم يَفُقْكَ أحد من الشعراء المحدثين! إن كل سنة تمضي تجدد الملايين من أبناء الأرض. لكن كم من المسنين سيمر؛ وكم من الأجيال ستمضي موجاتها قبل أن تقدم لنا عبقرية مثلك؟ لو اجتمع الشعراء أجمعين وانضمت أشعتهم المتفرقة في ضياء واحد، لما استطاعوا أن يكونوا شمساً جديرة بأن تقارن بك.

-٤٠-

لكن، على الرغم من عظمتك، فقد وجدت من ينافسك في شخوص أسلافك من مواطنيك، هؤلاء الذين تغنوا بالجحيم وبالفروسية. أولهم التوسكاني الذي أبدع "الملهاةالإلهية"؛ والآخر، وهو لا يقل عن هذا الفيرنتسي (دانته)، هذا الذي يشبه وولتر اسكوت من بين أهل الجنوب، هو ذلك الشاعر الذي استطاع بنشيده الساحر أن يبدع خلقاً جديداً، كما استطاع، مثل أريوستو الشمال، أن يتغنى بالحب والغادات الحسان، والتروبادور ومغامرات الفرسان.

-٤١-

إن الصاعقة قد انتزعت من تمثال أريوستو إكليل الغار المزيف الذي توجه؛ ولم تكن نار السماء ظالمة في هذا، لأن إكليل الغار الحقيقي الذي يضفره المجد هو تلك

الشجرة التي لا يمكن الصاعقة أن تؤثر فيها. أجل، لقد كان هذا الإكليل الزائف عاراً على جبينه. لكن، إذا كانت الطِّيرَةَ تحزن أحد المعجبين، فليعلم إذن أن الصاعقة تقدس كل ما تمسه، وأن هذه الرأس مقدسة الآن أضعافاً.

-٤٢-

إيطاليا! أي إيطاليا! لقد أحرزت هبة الجمال القاتلة، التي صارت بالنسبة إليك مصدراً لآلامك ومصائبك: الحاضرة منها والماضية. فعلى جبينك العذب طبع الحزن الممزوج بالعار، ونقشت أخبارك بحروف من نار ولهيب. أواه، إلهي! لماذا لم تخلقها أقل جمالاً أو أكبر قوة، كيما تذود عن حقوقها وتدفع عنها اللصوص وقطاع الطرق الذين اندفعوا بعصاباتهم ليسفكوا دماءها، ويشربوا دموع مصائبها؟

-٤٣-

هنالك كنت سيُخشي بأسُكِ أكثر فأكثر. أو إن كنت أقل جمالاً وثراء، لقد كنت ستكونين هدفاً أبعد للمطامع؛ وحينئذ ستعرفين السعادة، ولا تبكين على مفاتنك القاتلة. ولن تريْ إذن بعد تتابع هذه السيول من الجنود التي لا تنفك تعبر جبال الألب باستمرار لتندفع في واديك، وهذه الأخلاط المتوحشة من المدمرين اللاغبين الذين يأتون ليرتووا من مياه البحر الدامية. ولن يكون سلاحك الذي يدافع عنك إذن سيف الأجنبي. وسواء عليك انتصرت أو قهرت، فلن يُقدَّرَ عليك حينئذ أن تكوني أمَةً لعدو أو صديق.

-٤٤-

إبَّانَ تجوالي في عهد الشباب، تابعت هذا الطريق الذي سافر فيه ذلك الروماني الذي كان صديقاً لأحد أبناء روما الخالدين، صديقاً لشيشرون[١] . فقد أتت ريح رقيقة أعانت مركبي على شق طريقها في الأمواج الزرقاء اللامعة، فصرت قبالة ميغارا، ومن

---

(١) هذا الصديق لشيشرون هو سرفيوس سليقيوس ، الذي كتب خطاباً مشهوراً إلى شيشرون بمناسبة موت ابنته "وهو يتضمن وصفا ، لا زال إلى اليوم صادقاً ، لطريق تبعته أنا في بلاد اليونان ، في الأرض وفي البحر ، في كثير من الرحلات ، وعند عودتي من آسيا ، متجهاً من مصر إلى ميغارا ، بدأت أتأمل منظر المنطقة المحيطة بي ؛ فكانت ايجينا من خلفي ، وميغارا أمامي ؛ وعن يميني بيريه ، وكورنثوس إلى يساري . وكل هذه المدن التي كانت مشهورة في العهد الغابر ، فقد انقلبت اليوم وكأنها مقبورة تحت أطلالها . فلما رأيت هذا المنظر ، لم أملك نفسي من التفكير على هذا النحو : ما أتعسنا معشر الناس ، لماذا نحزن كل الحزن حينما نفقد أحد الأصدقاء . نحن الذين حياتهم قصيرة ، بينما خرائب كثير من المدن تنهال على أنظارنا دفعة واحدة ؟" (بيرن) .

خلفي كانت إيجينا، وعن يميني بيريه، وإلى يساري كورنثوس. فأطرقت فوق جؤجؤ السفينة، وتأملت، كما فعل سيلفيوس، منظر كل هذه الأطلال الحزين.

-٤٥-

لأن الزمان لم يُعِدْ بناء هذه المدن المندثرة؛ إذ لم يفعل أكثر من أنه أقام على أنقاضها المشوهة أكواخاً ومساكن بربرية: مساكن تزيد في تعاسة منظرها، كما تزيد في قيمة البقية الباقية من الأشعة المتناثرة، والأنقاض المحطمة لقوتها التي زالت. لقد رأى الروماني هذه القبور في أيام وجوده، قبور المدن هاتيك التي تثير في النفس عجباً حزيناً؛ وإن وصفها كما وصل إلينا ليحمل في طياته ذلك الدرس النافع الذي يمكن أن يستخلص من هذه الرحلة.

-٤٦-

إن هذه الصفحة أمامي الآن. وإلى المدن التي رثى اضمحلالها والتي رأيتها قد اندثرت تماماً، في وسعي أن أضيف أيضاً خراب وطنه هو الآخر. أجل إن روما، روما الأمبراطورية، قد حنت رأسها تحت العاصفة، ومرغت خدها في تراب أطلالها السود. وها نحن أولاءِ نطأ بأقدامنا رفات هذا المارد العظيم، وبقايا أمبراطورية لا زال رمادها دافئاً.

-٤٧-

ومع هذا، أيْ إيطاليا، فإن أخطاءك ستترددّدُ من بلد إلى بلد، وستروى من جانب إلى آخر في هذا العالم. أي أمٌّ الفنون، كما كنت من قبل أمَّ السلاح؛ لقد كان ساعدك آنذاك حارساً لنا يحمينا، ولا يزال إلى اليوم يهدينا. أي أمٌّ ديننا؛ يا من ركعت لك أمم عدة من أجل الحصول على مفاتيح السماء! إن أوربا، النادمة على أمها، ستحطم يوماً أغلالك. وإخالني أرى الآن انسحاب الأمواج من المتبربرين الذين غمروا ريفك؛ وهأنذا أسمعهم يسألونك الغفران!

-٤٨-

ولكن الأرنو يدعونا إلى حيث تقوم أسوار المرمر البيضاء الجميلة، حيث تهيب أثينا أترووريا (روما) بنا أن نستشعر عاطفة رقيقة نحو قصورها الفاخرة. لقد طوقت بمسرح من الروابي، وغدت تحصد قمحها ونبيذها وزينتها؛ والثراء الوافر يتنزى ويتوثب من فرط ما به من حياة باسمة ضاحكة، حاملاً قرنه الملآن. وعلى طول الشطئان التي تجري من بينها نهر الأرنو الباسم ولد الترف الحديث من التجارة، وبعثت العلوم المقبورة، كيما تبصر، نهاراً جديداً.

-٤٩-

وهنا أيضاً عشقت الإلهة (فينوس) في الحجر، وملأت الجو حواليها بالجمال؛ وإنا هنا لنستروح عبير التسنيم الذي يهبنا قسماً من خلوده؛ وقناع السماء قد كشف نصفه؛ وإنا لنقف أمامها مشدوهين نتأمل هذا الوجه ونتوسم فيه ماذا تستطيع عبقرية الإنسان أن تفعله، أكمل ممّا تقدر الطبيعة على فعله. وإنا لنحسد عباد فينوس على هذه الجذوة الباطنة التي جعلت نفوسهم قادرة على أن تخلق إلهة كهذه وتشيع فيها الحياة.

-٥٠-

إنّا لننظر إليها مشدوهين ونشيح بوجوهنا، لأن هذا الجمال الرائع يذهلنا ويبعث فينا السكر والنشوة، حتى يضل القلب من فرط إعجابه. هنالك نصير دائماً مشدودين إلى عربة الفن الظافر، كأننا أساري لا نود الابتعاد والرحيل. ألا بعداً للكلمات والألفاظ المحددة، هذه الرطانة التي يتحدث بها تجار المرمر، والتي تحمل الحذلقةُ الحمقَ على الإعجاب بها. إن لنا عيوناً: والدم والنبض والصدر يؤيد مديح الراعي الداردي[١].

(١) الراعي الداردي أي الطروادي، وهو باريس، ابن بريام ملك طروادة، الذي قدر له أن يكون محنة لوطنه. وقد تربى بين الرعاة حتى صار واحداً منهم، ولكنه كان شجاعاً مقداماً، فاستطاعَ أن يظفر باحترام كل الرعاة وتقدير الآلهة، حتى انه لما حدث في زواج بيليوس وثيتيس أن رمت إلهة الكراهية بتفاحة ذهبية كتب عليها: إلى الأجمل، في وسط جمع الآلهة، تنافس اللاهات في الظفربها. ثم لما انحصر التنافس بني جونون وفينوس ومينرفا، لم يشأ الآلهة التدخل للحكم بين جمالهن، بل فوض الحكم لباريس لما عرف عنه من الحكمة والفطنة وأصالة الراي. وهنا حاولت كل من هؤلاء الإلاهات الثلاث أن تغري باريس؛ غير أنه حكم لفينوس بأنها أجمل الكل، مما أثار ثائرة جونون وانتقمت لنفسها من بعد في حرب طروادة.

-٥١-

أعلى هذا النحو تبديت أمام باريس، أي فينوس، كما تبديت أمام أنشير السعيد؟ أم تبديت في أبهى جمال ألوهيتك، مثلما تفعلين حين بحثو تحت أقدامك إله الحرب؟ إن هذا يتأمل وجهك وكأنه يتأمل نجماً، وهو جالس على ركبتيك، وعيونه كلها عليك، تتغذى من جمال خدودك، بينما تنطلق من شفتيك قبلات من النهر تنصهر وهي تحرق، وتنهال فوق جفونه وأهدابه وثغره، وكأنها تسّاقط من قارورة.

-٥٢-

إن الآلهة وقد اضطربوا وسكنوا من نشوة الغرام الصامت، لم يجدوا في جلالِ ألوهيتهم من القدرة ما يجعلهم يقوون على التعبير عما به يشعرون، حتى صاروا مثل الفانين، وإن في حياة الإنسان للحظات إلهية تعدل أجمل لحظاتهم. غيرأن عبء الأرض يبهظ كاهلنا. لكن لا ضير! ففي وسعنا أن نستعيد هذه التصاوير وأن نخلق مما كان، أو مما يمكن أن يكون، أشياء جديرة بأن تصير مثل تمثالك، فتتبدى كالآلهة.

-٥٣-

وهأنذا أدع لأقلامِ العارفين الحكماء: الفنان ومحاكيه، مهمة وصف الملامح الجميلة والخطوط الرقيقة والانتفاخات الشهوانية لهذا التمثال الرائع. أجل، دع هؤلاء يصفون ما لا يمكن وصفه، لكن لا يأتِ نفسُهم الفاسدُ ليعكرَ صفاء البلور الناصع الذي تنعكس عليه هذه الصورة أبداً. إنها مرآة صادقة صافية لأجمل حلم هبط من السماء لسحر أعماق الروح.

-٥٤-

إن حرم سنتا كروتشه [١] المقدس يحتوي تراباً يزيد في قداسته أضعافاً، يكفي وحده ليكون ضامناً للخلود، إذ لم تبق غير ذكرى الماضي وشطر من بقايا هذه العبقريات السامية التي اتحدت بالعناصر والخليط. هنا ترقد عظام انجلو [٢] وألفييري وجلليو الفلكي صاحب الكوارث والأحزان. وهنا عاد طين (مكيا فلي) من حيث أتى.

---

(١) كنيسة مشهورة في فيرنتسه .

(٢) هو ميكللر بوزوتي النحات والمصور والمعماري المعروف .

-٥٥-

تلك عقول أربعة تستطيع كالعناصر الأربعة أن تخلق عالماً جديداً. أي ايطاليا! إن الزمان الذي مزق ثوبك الأمبراطوري إلى آلاف القطع، قد حرم كل دولة أخرى من أن ترى عظماء الرجال يخرجون من تحت أنقاضها. إن انحلالك لا يزال غنياً بقوة إلهية تتوجك بشعاعها الواهب للحياة، وإن كانوفا [١] اليوم ليضارع عظماءك الغابرين.

-٥٦-

لكن، أين يرقد أبناء أتروريا العظام الثلاثة: دانته، وبترركه، وشاعر [٢] النثر الذي لا يقل عنهما، هذه الروح الخالقة التي أبدعت قصص الغرام المائة؟ أين سُجِّيَتْ عظامُ هؤلاء الذين امتاز طينهم من طيننا، إنْ في حياتهم أو في موتهم؟ هل انحلوا إلى تراب؟ وهل مرمر بلادهم لا يستطيع أن يقول لنا في هذا الصدد شيئاً؟ وهل لم يكن في محاجرها من المرمر ما يكفي لصنع تماثيلهم؟ أو لم يودعوا بقاياهم عند الأرض التي ولدوا عليها؟

-٥٧-

أي فيرنتسه الجاحدة الناكرة للجميل! إن دانته يرقد بعيداً عنك، مثله مثل شبيون[٣] قد دفن في أرض تلومك على ظلمك! إن منازعاتك التي كانت أسوأ من الحروب الأهلية، قد طَرَدَ أصحابها ذلك الشاعر الذي يتعبد اسمه أحفادك، وفي نفوسهم ندم الأيام والدهور. والتاج الذي وضع على جبين بترركه قد نبت غاره في أرض أجنبية بعيدة: وإنَّ حياته وشهرته وقبره ليست ملكاً لك، على الرغم من أنها أخذت منك.

-٥٨-

لقد أوصى بوكاتشيو برفاته لوطنه. أفلا يرقد جثمانه وسط عظماء وطنه، وعليه تتردد أنفاس الأناشيد الحزينة، نوحاً على روح هذا الذي كون لغة توسكانيا الرخيمة؟

---

(١) فنان إيطالي معاصر لبيرن .

(٢) هو بوكاتشيو ، مؤلف "الدبكامرون" .

(٣) شيبون الأفريقي الذي انتصر في موقعه زاما ؛ ولما ييئسَ من معاملته في روما ، رحل عن وطنه إلى ليتريوم . وعلى قبره كتب : "أيها الوطن الجحود ، إنك لن تملك ترابي !" .

هذه اللغة التي ليس أصواتها إلا أغاني وموسيقى، والتي هي شعر اللغات؟ كلا؛ إن قبره الممزق لا بد أن يتحمل إهانات ضبع التعصب الأعمى؛ بل إنه لم يجد مكاناً له وسط موتى مغمورين حقراء، كان يجد عنده من المارِّ العابر زفرة يرسلها حينما يسأل: لمن هذا القبر!

-٥٩-

وسنتا كورتشه قد حرمت من ترابهم الفاخر، غير أن هذا لم يزدهم إلا شهرة، كما أن غياب صورة بروتس عن جنازة قيصر لم يفعل إلا أن زاد في تذكير روما بأعظم أبنائها. أنت أعظم سعادةً يا رافنًا، أيها المعقل الأخير لأمبراطورية مترنحة! فعلى شاطئك العميق يرقد جثمان هذا المنفي الخالد. وأركوا هي الأخرى تأبى أن تسلم بقايا الشعار الذي تفخر بالاحتفاظ برفاته، بينما تطالب فيرنتسه عبثاً بفقيدها المنفيّ وتذرف عليه الدموع.

-٦٠-

ما قيمة هرمها المرصع بأثمن الجواهر؟ من رخام سماقي ويَصْبٍ وعقيق يمان وجواهر ومرمر عديد الألوان يغطي عظام أمرائها التجار؟ إن هذا المرمر الفاخر الذي يقي رؤوس الملوك لا ينظر إليه بنفس القدر من الاحترام الإجلال الذي ينظر به إلى العشب الأخضر الذي يقوم على نمائه ونضرته ندى رفاف تلمع فيه أضواء النجوم، هو هذا القبر المتواضع لهؤلاء الموتى الذين تكفي أسماؤهم وحدها لكي تكون ضريحاً للموسا.

-٦١-

وعلى ضفاف الأرنو، في هذا القصر العظيم للفن، يستطيع القلب والعين أن يعجبا بكل العجائب الرائعة التي تنافس النحت هو وأخاه (التصوير) الذي يستخدم ألوان قوس قزح. ولعل ثمة عجائب وروائع أخرى غيرها؛ لكنني لا أبحث عنها ولا أنشدها. لأنني تعودت أن أمزج أفكاري بالطبيعة الحية في الحقول، مفضلاً إياها على الفن في المتاحف. فعلى الرغم من أن مثل هذه الروائع تظفر من نفسي بدلائل إعجابها بها؛ فإنها لا تشعر نحوها بكل ما في وسعها الشعور به من حماسة.

-٦٢-

لأن مزاجها من نوع آخر. وأفضل أن أتجول على ضفاف بحيرة ترازيمين [١]، وفي هذه الشعاب التي كانت نكبة على تهور الرومان: فهنا تتراءى أمامي الحيل العسكرية التي نصبها القائد القرطاجي وبراعته في حصر أعدائه بين الجبال والساحل. ويخيل إلي أني أرى الموت يطوف بصفوفهم واليأس يستولي على شجعانهم؛ وإن أمواج دمائهم لتزيد في السيول التي تفيض إلى بعيد فوق السهل الذي جندلت عليه جحافل بأسرها،

-٦٣-

أشبه ما يكون بغابة اجتثتها عواصف الجبال. تلك كانت عزيمة الجنود في ذلك اليوم الخالد، وتلك كانت قسوة الحرب التي تُعمي الإنسان عن كل إحساس، اللهم إلا حبٌّ الذبح والقتل، إلى حد أن المحاربين لم يشعروا مطلقاً بزلزال [٢] حدث آنذاك. أجل، لم يشعر أحد منهم بأن الطبيعة قد اضطربت تحت أقدامهم، وأن السهل قد انشق من أجل ابتلاع هؤلاء الذين مُدُّوا فوق دروعهم منتظرين تخليد اسمهم بتماثيل جنازية. وتلك كانت الحمية التي استولت على كل أفكار الشعوب الذين تسلح بعضهم ضد بعض!

-٦٤-

لقد كانت الأرض حينئذ في نظر هؤلاء الشجعان سفينة سريعة تبحر بهم إلى شاطئ السرمدية. لقد كانوا يرون جيداً المحيط حواليهم، لكنهم لم يكن لديهم وقت لملاحظة حركات سفينتهم؛ فإن قوانين الطبيعة قد توقفت فيهم، فجهلوا هذا الفزع والرعب الذي استولى على جميع النفوس حينما تزلزل الجبال، وتأوي الطيور إلى السُحُب كي تجد فيها ملاذاً، تاركة أوكارها؛ وتترنح القطعان الثاغية فوق الوديان المضطربة، ويمسك الفزع الإنساني عن كل كلام.

---

(١) هي المعروفة اليوم باسم بيروجيا ؛ وعندها هزم نيبال الرومانيين في المعركة المعروفة بمعركة بحيرة ترازيمين ، في الحرب البونية الثانية .

(٢) روى قصة هذا الزلزال ليفيوس في تاريخه (٢٢ ،٥) ولكنها مشكوك فيها .

-٦٥-

أما اليوم (فترازيين) تتبدى على نحو آخر: فبحيرتها تتراءى كأنها سماط من الفضة، وسهلها لا يغضّن سطحه خراب ولا شيء غير المحراث الرقيق. وأشجارها العتيقة تنمو وفيرة وفرة هؤلاء الموتى الذين غطوا هذه الأرض التي تمتد جذورها فيها. ولكن جدولاً، جدولاً صغيراً، تسيل مياهه الناصعة في مجرى ضيق، قد اتخذ اسمه من الدم الذي هطل مدراراً في ذلك اليوم الدامي:

أجل، إن "سنجو نتو[١]" ينبئك بالمكان الذي غمر فيه الدم الأرض، وجعل المياه البائسة حمراء.

-٦٦-

أما أنت يا كلوتنو [٢]، فإن موجك العذب الذي يشبه البلور الحي قد دعا حورية النهر للتملّي بالنظر إليه وغسل أطرافها الرخصة فيه؛ إنك تتغذى العشب الأخضر الذي فيه يرعى الثور الأبيض بياض اللبن؛ أنت أطهر إله للمياه الرقيقة؛ ما أسكن طلعتك، وما أنصع رونقك! أجل، إن المذابح لم تدنس نهراً كهذا هو مرآة وحمام لفتيات الجمال والعذراوات.

-٦٧-

وعلى شاطئك السعيد يقوم معبد [٣] صغير الحجم رقيق البناء، على منحدر وديع لرابية فتانة؛ معبد يقدس ذاكراك، يجري من تحته التيار الهادئ، الذي تتراقص فيه أسماك ذوات قشور براقة، تسكن أعماقك البلورية وتمرح؛ وأحياناً ترى جماعات النيلوفر المتفرقة تبحر إلى حيث لا يزال الموج الضحل يروي أقاصيصه الثرثارة.

---

(١) تصغير : سنجوه ، أي دم بالإيطالية .

(٢) كلوتنو نهر صغير ، يجري في مقاطعة الأومبريا ، وهو فرع من التفره ؛ وله ينبوع رائع الجمال ، أبدع وصفه كردوتشه في قصيدته بهذا العنوان : "ينبوع الكلوتنو" .

(٣) "لم يغفل أي كتاب من كتب الرحلات أن يتحدث عن معبد كلوتنو القائم بين فولنيو واسبوليتو ؛ ولا يوجد في أي مكان ، حتى في إيطاليا نفسها ، منظر أخلق بالوصف منه" (بيرن) .

-٦٨-

لكن لا نمض دون أن نحيي جَنْيَ هذا المكان! فإنه إذاً مس الجبين نسيم رقيق، فإن هذا الجني هو الذي أرسله. وإذا كان قلبك يتأثر حينما يتأمل الخضرة التي تحف بساحله؛ وإذا كانت نضرة هذا المنظر تثلج القلب، وتنقيه من غبار متاعب الحياة الجاف، كيما يتطهر لحظةً بفضل وضوء الطبيعة هذا ـ فإنك إنما تدين بالشكر والدعوات لهذا الجني، على أنه قد أوقف متاعبك وملالك.

-٦٩-

لكن ما هذا الهدير الذي ينبعث من المياه؟ من الأعالي الوعرة يندفع نهر فيلنو [١] في الهاوية التي شقتها أمواجه. يا له من شلال رائع! إنه سريع سرعة الضوء؛ وهذه الكتلة المتوثبة المزبدة تزلزل صخور الهاوية. إنه جحيم حقاً، فيه تزأر الأمواج الهدارة وتغلي في دُوامة عذابها الخالد، بينما العرق المتصبب من آلامها ينبثق من أعماق هذا الجحيم ويتعلق، على هيئة غدائر، بهذه الصخور التي تحرس الخليج المحيط، وكلها في فزع مريع،

-٧٠-

تصاعد مزبدة وإلى أعلى السماء، ثم تعود من جديد هاطلة بغير انقطاع، مكونة سحابة غدقة تصب على الخضرة وسمياً كوسميٍّ الربيع، حتى تستحيل كلها إلى بساط من الزمرد. آه! ما أعمق الخليج! وما أشد هول العنصر المارد وهو يتواثب من صخرة إلى صخرة تواثباً جنونياً مريعاً، محطماً الصخور التي تتشقق وتنجرف تحت أقدامه الوحشية تاركة له طريقاً مخيفاً لاحبا !

-٧١-

ويخيل إلى المرء أنه لا بد أن يرى في هذا العمود الهائل المتدفق الأمواجَ الأولى لأبى نهرٍ يجري بشدة وغزارة في التواءات عدة خلال الوادي، لا بدّ أن يرى فيه

(١) نهير يصب في نهر النار ، الذي يصب بدوره في النقره .

ينبوعا...إلخ لبحر في دور الطفولة قد انبثق من رحم الجبال وهي تتمحض من عالم جديد. أدر ظهرك وانظر إليه وهو يتقدم كالسرمدية وكأنه يريد أن يكتسح كل شيء في طريقه، ساحراً العيون بالروع. يا له من شلال منقطع النظير [١]!

-٧٢-

إنه جميل حتى الارتياع! لكن قوس قزح [٢] يجلس على الحافة من ناحية إلى ناحية تحت أشعة الصباح الرفافة، وسط الهاوية الجهنمية، كأنه الأمل فوق فراش الموت، محتفظاً بباهر ألوانه. وبينما كان ما حواليه تمزقه الأمواه الغاضبة، تظل ألوانه هادئة لامعة لا ينقطع لها ضياء. ويخيل إلى المرء حينئذ أنه يرى في هذا المنظر المريع، الحب ذا الجبين الساجي وهو يبسم لشطحات الجنون.

-٧٣-

وهأنذا أجد نفس مرة أخرى في غابات جبال الأبنين، هذه الأطفال [٣] المولودة من جبال الألب. ولقد كانت جديرة بأن أزجي إليها المديح، لو لم أكن قد رأيتها من قبل وأعجبتُ بهذه الجبال التي يبسط فيها الصنوبر أغصانه فوق الأعالي الوعرة، حيث يزأر الرعد الحادث عن الثلاجات. ولكني رأيت جبل يونجفراو [٤] وهو يحلق في الأعالي بقمته المجللة بالثلج الذي لم تطأه قدم إنسانية؛ ورأيتها حقول الثلج الشاسعة فوق مونبلان؛ وسمعت صوت الرعد المريع يتردد على جبال كيماري.

-٧٤-

المعروفة باسمها القديم: جبال أكروكراون. ورأيت على جبل البرناس طيران النسور السريع وهي تتبدى كأنها جنِّياتُ هذا الحمى الأقدس، ورسل المجد، فقد كان تحليقها

(١) "رأيت كسكاتا دل مرموره (شلال المرمر) في ترني مرتين، وفي عهدين مختلفين: المرة الأولى رأيته فيها من قمة هاوية، والثانية رأيته فيها من أسفل الوادي. وإني أفضل رؤيته على النحو الثاني، وأنصح بها لمن لا يستطيعون أن يروه على هذين النحوين؛ ومن أية ناحية نظر إليه تبدى هذا الشلال أجمل من كل شلالات سويسرة وسيولها" (بيرن)

(٢) "يجد القارئ في تعليقته على روايتي: منفرد، بعض الكلمات المتصلة بوقت حدوث هذا النوع من قوس قزح ومكانه وظهوره" (بيرن).

(٣) جبال أبنين تمتد على طول شبه الجزيرة الإيطالية وهي فرع من جبال الألب.

(٤) اليونجفراو (ومعناه الحرفي: العذراء) أحد الجبال العالية في جبال الألب حول مدينة بيرن؛ وسمي بهذا الإسم لأنه لم تطأه قدم، فكأنه بكر لم يفتضه أحد. والكلام هنا طبعاً عن الماضي.

جليلا رائعاً. وتأملت الإيدا بعيون طروادية [1]؛ وآتوس وألومب وأيتنا وأطلس كلها قد جعلت هذه التلال تبدو أقل مرتبة وأدنى مكانة. إنها لم تعد اليوم مجللة بالثلوج، ما عدا قمة سوراقته [2]، التي تنشد الآن قيثارة هوارس،

-٧٥-

كيما تستحق أن تذكر. إن سوارقته ترتفع وسط السهل المنبسط كأنها موجة مزبدة على وشك الارتطام بالساحل، فتظل مدة من الزمان معلقة في الهواء قبل أن تنداح على الشاطئ. ولن يضيع عبثاً عمل هذا الذي يحشد خاطره وذكرياته، ويحلق في الأجواء الكلاسيكية، موقظاً الروابي بأصداء لاتيوم. آه! لقد كنت أبغض في طفولتي حفظ أشعار الشاعر كلمة فكلمة، إلى درجة لا تسمح لي بأن أردد اليوم بسرور،

-٧٦-

شيئاً مما يذكرني بتلك الدروس البغيضة التي كانت تبهظ ذاكرتي المريضة. وعلى الرغم من أن الزمان قد عَلَّمَ عقلي أن يفكر فيما كان يتعلمه، فإن قلق فكري الشاب قد غرز في نفسي من الضيق والملال ما جعلني لا أحس بما فيها من سحر الجدة قبل أن أستطيع تذوقها وقراءتها باختياري، فصارت نفسي عاجزة عن استعادة صحتها وسلامتها: فما كانت تعاني آنذاك، لا تزال اليوم تنبو عن مذاقه.

-٧٧-

وداعاً إذن يا هوارس ! يا من أبغضتُهُ لا لعلة فيه، لكن لعلة في نفسي. إنه من اللعنة أن يفهم المرء أشعارك الغنائية دون أن يحسها، وأن يدركها دون أن يحبها. لم يوجد واعظ مثلك قد كشف عن حياتنا بعمق أكبر وقدرة على النفوذ أعظم؛ ولم يوجد شاعر قد فاقك في تعليم قواعد فنّه؛ وليس ثمة هجاء قد استطاع أن يهز شعورنا

(١) أي بعيون العطف .

(٢) سوراقته ، تل في شمال روما ، ذكره هوراس في إحدى أغانيه (ك ٢١ ، قصيدة رقم ٩) .

بخبث أبرع من خبثك [١]؛ ولم يتذرَّكِ إنسان في إيقاظ ندمنا دون أن يجرح شعورنا. ومع هذا فوداعاً مرة أخرى؛ أودِّعُك على قمة سوراقته.

-٧٨-

أي روما! أيها الوطن الذي اخترته لنفسي ! أي مدينة الروح! إن يتامى القلوب يجب أن يتجهوا بقلوبهم إليك، أيتها الأم المتوحدة لأمبراطوريات راحلة! إنهم قد أودعوا أحزانهم الرقيقة في صدورهم. ما هي مصائبنا وآلامنا ؟ تعالى وانظري إلى هذا السَّرْو، واستمعي إلى هذا البوم؛ تعالي دوسي بأقدامك هذه العروش المحطمة وهذه الأنقاض لمعابد دارسة؛ إن كرويك آلام يوم. وإن العالم تحت أقدامنا لهش هشوش الطين الذي منه برئنا.

-٧٩-

ها هي ذي نيوبيه [٢] الأمم مائلة أمامك، وليس لها ولد، ولا يعلو جبينها تاج، وما لها صوت يحدثك عن مصائبها: إن يدها الجافة المتجعدة لتحمل إجانة خاوية تشذر ترابها المقدس منذ زمان طويل ! فمقبرة الشيونيين لم تعد تضم رفاتهم؛ والأضرحة نفهسا قد فقدت ضيوفها الأبطال. فهل تستطيع، أيها التفره العتيق، أن تجري في هذه الصحراء من المرمر ! ألا فلتنهض بأمواجك الصفراء، ولتدثرمحنتها بمعطفك البلوري

-٨٠-

إن القوط والمسيحيين والزمان والحرب والموج والنار قد حطمت كبرياء هذه المدينة الخالدة ذات التلال السبعة. فلقد رأت نجوم مجدها تغور الواحدة بعد الأخرى، ورأت جياد الملوك البرابرة تصعد الجبل الذي كانت منه تنساق عربة الظافر إلى الكابتول. إن هذه المعابد والمباني الشامخة قد انهارت ولم تدع بعدها شيئاً: فصارت خليطاً من

---

(١) هوراس واعظاً قد ظهر في "رسائله" ؛ وواضعاً قواعد الشعر في "فن الشعر" ؛ وهجاء في "أهجياته" .

(٢) نيوبيه : كانت ابنة تنتالوس ملك ليديا . وقد ذكر هوميروس وبروبرتيتوس أنه كان لها ستة أولاد وست بنات ؛ وفي رواية أخرى أنهم كانوا سبعة أولاد وسبع بنات . فكانوا موضع فخرها وتباهيها حتى أهانت لاتونا ، لأنها لم يكن لها غير ولدين ، مما أثار ثائرة لاتونا وابنيها أبولون وديانا ، فقتل أبولون الأولاد الستة وقتلت ديانا البنات الست . فظلت نيوبيه تنوح على أولادها وتبكيهم .

الأنقاض والأطلال! من ذا الذي يستطيع أن يتعرف هذه الأماكن الخاوية، وأن يضفي نوراً شاحباً على هذه الشذرات الكابية، ويقول: "هنا كان، أو هنا يوجد"، ما دام الظلام يسود هذا المكان؟

-٨١-

ظلام القرون وظلامها هي، ابنة الليل، وظلال الجهل، كل هذا قد اشتمل عليها وأحاط بكل ما حوالينا. ولا نكاد نتلمس طريقنا إلاّ لنضل. إن للمحيط خريطته، وللنجوم مصورها، والعلم قد بسطها جميعاً فوق ردائه الواسع الفضفاض. لكن روما صارت كالصحراء، نسير فيها متخبطين فوق ذكرياتنا. وفجأة نصفق بأيدينا صائحين: "وجدتها " لقد اتضحت لعيني ـ ثم لا يلبث هذا أن يتبدى سراباً من الأطلال رقراقاً.

-٨٢-

واآسفاه! أين المدينة الرائعة ؛ ووا أسفاه مرة أخرى ؛ إلى أين ذهبت انتصاراتها الثلاثمائة، وهذا اليوم الذي جعل فيه بروتس خنجر الحرية أسمى من سيف الفاتحين الغزاة؟ إلى أي حال انتهت فصاحة شيشرون، وأناشيد فرجيل، وكتابات ليفيوس التي تبدو كأنها لوحات مصورة؟ لكنَّ هذه الروائع ستكون سبب بعثها؛ وما عداها فمآله إلى الزوال والفناء. واحسرتاه على العالم، لأننا لن نرى بعد ذلك البريق الذي كان يرف في عينيه حينما كانت روما حرّة !

-٨٣-

وأنت، أي سلاً [1] الظافر، يا من جرت عربته على عجلة الحظ؛ أنت يا من استطعت أن تخضع أعداء بلادك قبل أن تعرض نفسك لذحولها العادلة؛ أنت يا من

(١) سلا : قائد روماني مشهور ؛ بدأ بالعمل في الجيش تحت قيادة ماريوس وبرز في الأعمال الحربية في نوميديا ؛ فبدأت شهرته في الظهور ، مما أثار حسد ماريوس ، فأبعده . ثم عينه مجلس الشيوخ لتنصيب أريو برزانس على عرش كبادوكيا ، ضد نوايا متردانس ملك بنطش . وقد نجح في هذه المهمة . ثم عاد إلى روما وقضى على أعدائه . وكان متردانس سيد جزء كبير من بلاد اليونان . فارتحل سلا لملاقاته وافلح في الاستيلاء على بلاد اليونان بعد موقعتي كيرونيه وأوركومينهوس . ثم عاد إلى روما وأصبح دكتاتوراً ؛ وبعد أن نفذ كل ما أراد ، استقال من الحكم ، وأوى إلى مكان منعزل بالقرب من بتيولي ، حيث أمضى بقية حياته . وقد نصب له تمثال في ميدان المريخ .

انتظر، من أجل تقديم رأسك للانتقامات التي حشُدت ضدك، أن تحلق نسورك فوق آسيا المحطمة؛ أنت يا من كانت النظرة منك تقضي على مجلس الشيوخ، لقد كنت رومانياً بالرغم من كل عيوبك ورذائلك، لأنك تجاسرت على أن تلقي بتاجك العظيم وتتنازلَ عن السلطان وعلى فمك ابتسامة مُكَفِّرَةٌ عن خطاياك، خالعاً إكليلك الدكتاتوري.

-٨٤-

فهل كان في وسعك أن تتنبأ بالجبين الذي سيدنس فوقه هذا التاج الذي سما فوق كل تيجان بني الإنسان؟ وهل دار بخلدك أن ثمة رجلاً غير روماني سيضع نيراً مهيناً فوق كاهل روما الخالدة التي لم تسلح جنودها إلا للنصر؛ روما التي مدت ظلها الهائل فوق الأرض كلها، ونشرت أجنحتها الطامحة حتى بلغت حدود الأفق؛ روما التي ناداها الكل باسم ملكة العالم؟

-٨٥-

لقد كان سِلاً أول الظافرين؛ ولكن سلانا، كرومويل، كان أحكم المغتصبين: فهو قد طرد الشيوخ مجَللين بالعار، بعد أن أحال العرش إلى مقصلة. أيها الثائر الخالد، انظر أي جرائم يستدعيها أن يكون المرء حراً لحظة واحدة، ومشهوراً في القرون التالية! لكن كم من درس نافع خلفه لنا مصيره! إن اليوم الذي شهد أروع انتصاراته كان هو بعينه اليوم الذي شهد موته؛ لقد كان أكثر سعادة حينما لفظ النفس الأخيرة، مما كان حين ظفر بيملكتيّنِ.

-٨٦-

في اليوم الثالث من ذلك الشهر الذي رفعه فيه انتصاران إلى قمة المجد، أنزلته الطبيعة من عرشه المغتصب، كيما يرقد في التراب الذي خلق منه. لقد أراد القدر بهذا أن يبين لنا كيف أن كل ما نعتقد أنه جدير بأمانينا، وكل ما يجرُّ بنا في طرق وعرة شاقة يذيب نفوسنا فيها، هو في نظره قد صنع من أجل القبر، أولى من أن يكون من أجل السعادة. آه، لو استطاع الإنسان أن يقنع نفسه بهذه الحقيقة، لكان مصيره أسعد.

-٨٧-

سلام لك أيها التمثال [١] الرهيب الماثل في صورة قاسية من الجلالِ المجرد! لقد رأيت قيصر يخر صريعاً إلى جوار قاعدته المضرجة بالدم، وسط صيحات قاتليه. لقد رأيته متدثراً بردائه الأمبراطوري كيما يموت بروعة ومهابة؛ لقد قدم على مذبحك فريسة لملكة الآلهة والناس، لنمسيس المريعة (إلهة الانتقام). أمات قيصر، ومُتَّ أنت، أي يُمبى؟ وهل كنتما فاتحين لعدة ممالك، أو كنتما لعبا على المسرح؟

-٨٨-

وأنت يا ظئر [٢] روما، أيتها الذئبة التي أصابتها الصاعقة! أنت يامن لا يزال ثدياك من البرنز يتبديان كأنها يحتويان على لبن الغزاة، في القصر الذي أُعْجبْنا فيه بك باعتبارك أثراً فنياً عتيقاً! أيْ أم هذا المؤسس العظيم الذي امتتح من جانبيك شجاعته الهائلة! على الرغم مما أصابك من سهم جوبتر الروماني، ومن السواد الذي جلل أطرافك تحت تأثير البرق - هل لا تزالين ترعين توأميْكِ الخالدين، ولا تغفلين عن واجباتك كأم؟

-٨٩-

بلى؟ ولكنهم ذهبوا، هؤلاء الأبناء؛ ومضي هذا الجنس من الناس الأشداء؛ والعالم قد بنى مدناً بأنقاض قبورهم. إن الناس قد سكبوا دماءهم محاكاة للأشياء التي تثير مخاوفهم؛ وقد حاربوا وانتصروا، وساروا في آثار الرومان. لكن لم يعطِ واحدٌ منهم وطنه ما أعطاه الرومان لبلادهم من قوة هائلة وسلطان شامخ. لقد حاول رجل واحد [٣] متكبر أن يحاكيهم وكاد أن يقاربهم. لكن هل رقد في القبر؟ كلا؟ إنه لا يزال يحيا، مهزوماً بنفسه، عبداً لعبيده.

---

(١) تمثالُ بمبي في روما .

(٢) في متحف الكابتول بروما تمثلا برنزي لذئبة معها روملس ورعس كبانيها . وروملس هو مؤسس روما . وعلى التمثال آثار صاعقة .

(٣) نابيلون ، وكان حينئذ منفياً في سانت هيلانة ، لأن هذه الفقرة كتبت سنة ١٨١٧ .

-٩٠-

لقد كان مخدوعاً في عظمته الخداعة، ولم يكن إلا قيصراً نغلاً، هجيناً، أدنى مرتبة بكثير من قيصرَ القديم، لأن روح قيصر روما كانت من طابع أقل أرضية؛ لقد كانت عواطفه أشد حرارة، لكنه قد وهب حكماً بارداً وعريزة خالدة عوضت عن نقائص قلب حازم لين معاً. لقد كان حينا ألسْيدس يغزل بمغزله تحت أقدام كليو بتره، ولكنه سرعان ما كان يستعيد نفسه، ولسان حاله يقول:

-٩١-

أتيتُ ورأيتُ وانتــصــرتُ [١]. ولكن الرجل الذي أراد أن تكون نســوره ـ التي انتصرت كثيراً، لا شك في هذا ـ في مقدمة جنود فرنسا، مثل الصقور التي يبعثها القناصون، هذا الرجل الغريب الأطوار قد كان ذا قلب أصم يبدو أنه لم يستمع يوماً لنفسه. لم يكن فيه غير ضعف واحد، هو أقل الضعف، ألا وهو الغرور؛ طموحه إلى ماذا ؟ هل في وسعه هو أن يبين أو أن يجيب عن هذا السؤال؟

-٩٢-

لقد أراد أن يكون كلَّ شيء، أو ألا يكون شيئاً؛ ولم يكن ليتوقع أن القبر سينزله من عرشه؛ وقليل من السنوات كان يكفي لكي يجعل منه نداً لقيصر الذي نطأ الآن قبره بأقدامنا. الموت، هذا هو ما من أجله ينصب الظافر أقواس النصر! من أجله سالت وتسيل دائماً عبرات الأرض ودماؤها كأنها طوفان آخر، دون أن تكون ثمة سفينة سلام يأوي إليه الإنسان الشقي! إلهي، جدد قوس قزحك.

-٩٣-

أي ثمار نجنيها من حقول الوجود المجدبة؟ حواس ضيقة، وعقل ضعيف، وبرهة حياة؛ والحقيقة جوهر ثمين مخبأ في الأعماق؛ وكل شيء قد وزن بميزان العادة الزائف؛

(١) هذه هي الكلمات التي قالها قيصر لمجلس الشيوخ معبراً بها عن سرعة انتصاره على فرناس ملك بنطش ، بالقرب من زيلا . وقد صارت تعبيراً عن سرعة انجاز عمل عظيم .

والرأي العام قوة هائلة تنشر على الأرض نقاباً من الظلام؛ والخير والشر يصيران أعراضاً؛ والناس يرتعدون مخافة أن تظهر أحكامهم علناً، إذ هم يخشون أن تنسب إليهم أفكارهم كجرائم أتوها، وأن ينتشر على الأرض ضياء باهر.

-٩٤-

وها هم أولاء يسحبون أذيال البؤس والشقاء، ويتوارثون الكوارث ولداً عن والد وجيلاً عن جيل، متباهين بفساد دخيلتهم؛ فيموتون تاركين جنونهم المتوارث للجيل الجديد من العبيد المفطورين على العبودية، الذين يتقاتلون من أجل تخليد عبوديتهم؛ وبدلاً من أن يكونوا أحراراً، تراهم يفضلون أن يناضلوا كالمسايفين في ساحة القتال عينها التي يرون فيها إخوانهم يجندلون ويسّاقطون كأوراق شجرة واحدة.

-٩٥-

إنني لا أتحدث عن معتقدات الناس، فإنها بين العبد وبين خالقه؛ إنما أتحدث عما هو متفق عليه ومُسَلَّمٌ به ومعروف لدى الجميع مما يراه الناس كل يوم وكل ساعة. أتحدث عن النير الذي يبهظ كاهلنا، وعن النوايا الصريحة للطغيان والاستبعاد؛ أتحدث عن قرار سادة الأرض، الذين يحاكون مَنْ أَذَلَّ المستكبرين وأيقظ الملوك النائمين على عروشهم. كم كان مجده سيكون عظيماً، لو أن يده القوية لم تفعل غير هذا!

-٩٦-

أولا يهزم الطغاة إلا بالغطاة؟ أو لن تجد الحرية نصيراً لها وابنا جديراً بها، من أمثال هؤلاء الذين رأتهم أمريكا، حينما انبثقت فجأة كأنها بلاس [١]، عذراء مدججة بالسلاح؟ أو هل يجب أن تربى أمثال هذه العقول في القفار الموحشة، وفي أعماق الغابات العتيقة، وسط هدير الشلالات، في هذه الأرض التي بسمت فيها الطبيعة لطفولة واشنجتون؟ وهل لا ينطوي هذا العالم على مثل هذه البذور في أحضانه؟ وهل ليس لأوربا مثل هذا الشاطئ؟

(١) يذكر عن بلاس أتينيه أنها انبعثت من رأس زيوس كاملة السلاح ؛ وبيترر يشبه بها أمريكا وقد تحررت من انجلترا . والابن المشار إليه هنا هو جورج واشنجتون أول رؤساء الجمهوريات المتحدة ، وبطل حرب التحرير الأمريكية .

-٩٧-

ولكنَّ فرنسا قد أصابها خُمار من الدم إلى حد تقيّأتْ معه الجريمة. وإن أعيادها الزحلية [(١)] قد كانت محنة على قضية الحرية في كل مكان وزمان. فالأيام [(٢)] المريعة التي شهدناها، والطمع الدنيء الذي أقام حاجزاً من الماس بين الإنسان وبين آماله، والمشهد الأخير الذي رآه الناس - كلها معاذير للعبودية الأبدية التي تَجْتَثُ شجرة الحياة، وتجعل سقوط الإنسان الثاني هذا أشنع من سقوطه الأول.

-٩٨-

وأنت، أيتها الحرية! إن لواءك الذي - وإن يكن قد تمزق - فإنه لا يزال يرفرف، لا ينفك يتابع تقدمه، كالصاعقة التي تكافح الرياح؛ إن صوتك المقدس كصوت البوق، على الرغم من أنه اليوم ضعيف خافت، سيتردد قوياً بعد العاصفة. إن شجرتك المقدسة قد فقدت أزهارها، وغصونها التي حطمتها المناجل لم تعد تبدي غير لحاء خشن غليظ؛ لكن العصارة لا زالت تجري فيها، وبذورها قد أودعت في الأعماق حتى في جوف أراضي الشمال. وإن ربيعاً سعيداً سيأتيك بثمار أقل مرارة.

-٩٩-

وثمة برج رهيب من العهود الماضية، قويٌ قوة القلعة، تكفي استحكاماتها لإيقاف جيش زاحف ظاهر. إنه يقوم لا يزينه غير نصف شرفاته، ولا يغطيه إلا رداء من العليق واللبلاب، تزحف أغصانه منذ ألفيْ سنة على جدرانه، وهذه الخضرة تبدو كأنها إكليل السرمدية الذي تتماوج فيه الأوراق الخضر المنتشرةُ على طول الزمان. ماذا كانت هذه القلعة الحصينة؟ وأي كنز خُبّئَ في مغارتها؟ إنه قبر امرأة.

---

(١) أعياد كانت تقام في روما، احتفالاً بالإله ساتورن (زحل)، في يوم ١٦ أو ١٧ أو ١٨ ديسمبر، وتمتاز بالحرية المطلقة التي كانت تباح فيها: فكان يسمح للعبيد بالسخرية من سادتهم، وكانت العربدة تطلق لنفسها العنان.

(٢) أيام عهد الإرهاب في فرنسا إبان الثورة الفرنسية وقد استمر منذ سقوط الجيرونديين (في ٣١/ ٥/ ١٧٩٣) حتى سقوط روبسبير (٢٧/ ٧/ ١٧٩٤). والمشهد الأخير هو عودة آل بوربون إلى الحكم في ١٨١٤. والسقوط الثاني هو استبداد المحالفة المقدسة بعد ووترلو.

-١٠٠-

لكن من كانت هذه السيدة الراقدة في القبر، المدفونة في القصر؟ أكانت عفيفة وجميلة، خليقة بفراش الملوك، وأكثر من هذا، بفراش روماني! وأيٌّ جنس من الرؤساء والأبطال قد حملت؟ وأية ابنة ورثت جمالها؟ كيف عاشت، كيف هامت، كيف ماتت؟ وإذا كانت قد نصب لها هذا التمثال الفخم، الذي لم يجسر تراب مبتذل على الدخول فيه؛ وإذا كانت قد لقيت كل هذا الإجلال، أفلم يكن ذلك من أجل تخليد ذكرى مصير أسمى من مصير الفانين!

-١٠١-

أكانت من ذلك النوع من النسوة اللائي لا يحببن إلا زوجهن، أو كانت من هؤلاء اللائي يشتعلن بلهيب أزواج آخرين؟ إن تاريخ روما يحدثنا أن العصور المتقدمة كانت قد عرفت هي الأخرى هذا النوع وذاك الآخر. أفكانت لها من كورنليا [١] حكمتها؛ أو كانت شبيهة بملكة مصر الجميلة ذات اللهو والملذات؟ وهل استسلم قلبها لميل عذب، أو حاربته معتصمة بفضيلة راسخة وأبعدت الحب عنها بحكمة وفطنة باعتباره عدواً لها؟ لأن العواطف على هذا النحو.

-١٠٢-

لعلها قد ماتت في ريعان الشباب؛ فلقد رماها القدر العاثر بسهم مسموم، وعنت رأسها لعبء من الآلام أثقل من الضريح الذي يرقد فوق ترابها الرقيق. لقد تجمع السحاب فوق جمالها؛ وأظلمت عيونها السود، إرهاصاً بالمصير الذي تحتفظ به السماء لمحبوبيها، ألا وهو: الموت المبكر [٢]. لكن طلعتها كانت تشيع من حولها سحراً كسحر الأصيل، وتضفي على خدودها الملتهبة نوراً شاحباً يشبه لونه لون حمرة أوراق الخريف، كأنها نجمة مساء الموتى.

---

(١) كورنليا هي ابنة شيبون الأفريقي التي تزوجت سمير ونيوس جراكوس وكانت أم تيبريوس وكايوس جراكوس ؛ وكانت امرأة فاضلة استطاعت أن تبث مبادئ سليمة في نفس ابنيها . وملكة مصر هي كليوبتره .

(٢) إشارة إلى قول ميناندر : "يموت شاباً من تعزه الآلهة" .

-١٠٣-

أو لعلها ماتت في أرذل العمر، وعاشت بعد زوال جمالها وموتِ أسرتها وأبنائها. وشعرها الفينان الأبيض كان لا يزال يذكر بشيء من أيام نضرتها وفتنتها، بينما كانت غدائرها الرشيقة تبرز نصاعة بشرتها، حتى كانت فتنة روما وبهجتها. لكن، إلى أين يفضي بنا الحدس والافتراض؟ نحن لا نعرف غير شيء واحد: هو أن قرينة أغنى الرومان، ميتلّه، قد ماتت. فانظر إلى غرامه أو افتخاره!

-١٠٤-

لست أدري لماذا أراني حينما أقف صامتاً أمام هذا القبر، يخيل إلى أنني أعرف من ترقد فيه؛ وإن ذكرى زمان قد مضى لتستيقظ في نفسي على صوت انسجام مألوف لديّ؛ ولكن اللهجة قد استحالت، ولها من الروعة والجلال ما لصوت رعد يحتضر وهو يفر بعيداً عن أجنحة ريح عاصفة. أفليس في وسعي أن أتلبث عند هذا الحجر المغطى بالعليق، إلى أن أهب جسماً لهذه الأفكار الجديدة التي تلهمني إياها هذه الأطلال المتفرقة التي تبدو كأنها بقيا غرق عائمة؟

-١٠٥-

وهل في استطاعتي أن أبني بالألواح المحطمة التي تغطي الساحل زورق نجاة؟ سأناضل من جديد مع المحيط ومع تلاطم الموج الهدار المندفع على الشاطئ المهجور الذي شاهدت عليه فناء كل عزيز لديَّ. لكن، وا أسفاه! لو كان ما أبقى عليه الموج كافياً لتركيب زورق أياً كان، فأية ناحية أنتحي؟ لم تعد تجذبني بعد دار ولا أمل ولا حياة؛ ولم يعدُ يلذُّني إلا ما هو ههنا.

-١٠٦-

لكن دع الريح تعوي كما تشاء! سيكون رنينها منذ الآن موسيقاي، وسيضم البوم نعيبه إليه؛ وها أنذا أسمع لهذا النعيب الآن وقد شحب النور على وكنات هذه الطيور المصادقة لليل؛ لقد تداعي بعضها بعضاً فوق جبل البلاتين، وهي ترفرف بأجنحتها

وتفتح عيونها النجل التي يتلألأ فيها ضياء كئيب أغبر. كم هي آلامنا بالنسبة إلى مثل هذا القبر لأمبراطورية؟ لا تدعني أعد آلامي.

-١٠٧-

ما هذا المكان الذي تتعانق فيه أشجار السَّروِ والعليق والأشواك والخيري الأصفر، مكونة كتلة مختلطة؟ هنا أكوام من التراب قد قامت مكان مواضعَ لها كانت من قبل مخادع فاخرة؛ أما هذه الأقواس المحطمة، وهذه الأعمدة المهدمة، وهذه القباب المتهافتة والكهوف التي صارت سراديب رطبة معتمة، يجد فيها البومُ وكره الليلي الأبدي؛ أما هذا الخليط الهائل من الأطلال، فمن ذا الذي يعرف ماذا كان مكانه؟ كما نفعل نحن. فتأمل الجبل الأمبراطوري! هكذا تزول عظمة الأبطال [١].

-١٠٨-

ذلك هو الدرس الأخلاقي المستخلص من كل أخبار الناس. وليس الحاضر إلا تكراراً للماضي: في البدء تسود الحرية، ثم يتلوها المجد؛ فإن ضاع هذا تلاه الثراء والرذيلة والفساد؛ وأخيراً تسود البربرية. والتاريخ بكل أسفاره الضخمة ليست به غير صفحة واحدة، تقرأ خير ما تقرأ هنا، حيث جمعت كبرياء الطغاة كل الكنوز وكل الشهوات. لكن، دعنا من الكلمات! اقترب!

-١٠٩-

تعال اعجب وتحمس، تعال ابسم سخرية أو اذرف العبرات: فكل هذه العواطف تستطيع أن تتوالى في هذه الأماكن. وأنت، أيها الإنسان المترجح كالبندول بين الدمعة والابتسامة، إن العصور والممالك قد احتشدت في هذا المكان. وهذا الجبل الذي سويت قمته قد كان كهرم من العروش المكدسة، وكان يتلألأ بزينات المجد وبهائه، حتى إن الشمس قد بدت وكأنها تستعير منه بهاءه المزدوج. أين هي الآن هذه القصور؟ وأين الألى بنوها؟

(١) "إن جبل البلاتين كتلة من الأطلال، خصوصاً من ناحية الملعب. فالأرض مكونة من أنقاض أحجار؛ ولا شيء مما قيل ومما يمكن أن يقال بقادر على أن يرضي معتقدات عالم الآثار الروماني" (بيرن).

-١١٠-

لقد كان شيشرون أقل منك فصاحة، أيها العمود بلا اسم ولا قاعدة [١]! ماذا يعنيني من أمر أكاليل الغار التي زينت جبين قيصر؟ إنني أريد أن أتوج رأسي بالعليق الذي يغطي أطلال قصره. وهذا القوس للنصر، ما هو؟ وما هذا العمود الذي يتراءى أمام عيني؟ أهو عمود تيتوس [٢]، أم عمود ترايان؟ كلا، إنه عمود الزمان. فتوح وغنائم وأعمدة، إن الزمان يغير أسماءك باسماً، وتمثال وارث الرسل قد اكتسح ميدان الإجانة الأمبراطورية [٣].

-١١١-

إن ما بها من تراب يرقد جليلاً، مدفوناً في الهواء، هواء سماء روما القاتمة الزرقة، متجهاً بنظره إلى النجوم. لقد كانت تحوي روحاً جديرة بالمقام في هذه المناطق السامية العليا، روح آخر هؤلاء الذين بسطوا سلطانهم على المعمورة كلها، حتى صارت أرضاً رومانية؛ وبعده لم يقم أحد ليتابع فتوحه أو يحافظ عليها، إنما خلفه من بدد انتصاراته وغزواته. لقد كان أكثر من اسكندر؛ وكانت فضائله السلطانية نقية طاهرة لم تشبها شائبة من دم أو فجور أو فسوق - إننا لا نزال نعبد اسم ترايان.

-١١٢-

وأين صخرة النصر [٤]، هذا المعبد الماجدُ الذي عانقت فيه روما أبطالها؟ وأين صخرة تربيا [٥]، هذا الهدف الجيد لأبناء الخيانة، هذه الصخرة التي كان يدأوى عليها كل خائن من داء الطموح؟ أهنا ألقى الظافرون برفاتهم؟ أجل هنا؛ في هذا السهل

---

(١) هو عمود فوكاس، أحد أباطرة الرومان، ويقوم الآن في الفورم.

(٢) قوس تيتوس الذي عمل تخليداً لسقوط بيت المقدس.

(٣) "وضع فوق عمود تاريان تمثال للقديس بطرس، والقديس بولس قد وضع تمثاله فوق عمود أوليوس" (بيرن).

(٤) كانت مواكب الاحتفال بالنصر تسير حتى الكابتولا، وهو معبد مشهور وقلعة في روما، وكان القناصل وكبار القضاة يقدمون الضحايا فيه حينما يتولون مناصبهم لأول مرة.

(٥) صخرة تربيا هي التي يقوم عليها الكابتول، وكان يُلقى الخونة من فوقها؛ وسميت بهذا الاسم نسبة إلى تربيا، ابنة تربيوس، حاكم قلعة روما، التي وعدت بفتح أبواب القلعة للسابين المغيرين بشرط أن يعطوها أسوارهم الذهبية، فوافق تاتيوس ملك السابين، ولما دخل القلعة ألقى على تربيا أساوره ثم درعه الثقيل وتابعه أتباعه فماتت تحت دروع السابين.

الممتد تحتها، ترقد عشرة قرون من النزاع والحروب. وهنالك السوق (الفورم) الذي كانت تلقى به خطب رنانة خالدة؛ ولا يزال جوه يعبق بفصاحة شيشرون الملتهبة.

-١١٣-

ذلك مسرح الحرية والدسائس والأمجاد والمذابح. وهنا تنفست عواطف شعب متكبر، منذ ميلاد الأمبراطورية حتى اللحظة التي لم يبق لدى روما فيها ما تغزوه. ومنذ عهد بعيد والحرية قد نقبت جبينها حينما رأت الفوضى تغتصب صفاتها، وحينما استطاع كل جندي، تجاسر على أن يضع نفسه فوق القانون، أن يدوس بأقدامه أصوات مجلس الشيوخ الخرساء، أو أن يشتري الأصوات المرتشية للمواطنين الداعرين.

-١١٤-

دعونا الآن نتأمل اسم آخر رجال روما. لقد فديت قروناً بأسرها من العار والظلام، أنت يا صديق بتركه، وأمل إيطاليا، أي رينتسى [١]، يا آخر الرومان! طالما أنبتت شجرة الحرية ذات الجذع المحطم أوراقاً جديدة، فلتكن هذه الأوراق إكليلاً يوضع على قبرك، أنت يا من كنت بطل الفورم، وزعيم الشعب ونوماه [٢] الجديد؛ يا من كان ملكك، ويا للأسف، قصيراً كل القصر!

-١١٥-

إيجريا [٣]؛ أيها المخلوق العذب لقلبٍ فضل صدرك المثالي على كل صدر فان كيما يُرْقدَ رأسه! أيها الفجر الهوائي الشاب، أيتها الحورية الخيالية لعاشق أوفى على اليأس؛ أو لعلك جمال الأرض الذي تلقى أطيب الإطراء والثناء! مهما يكن من أمرٍ

(١) رينتسي: هو كولا دي رينتسي، صديق بتركه الذي أقام الجمهورية في روما ولكنها استمرت عهداً قصيراً، من مايو إلى ديسمبر سنة ١٣٤٧. وقد سقط في فتنة شعبية قامت بعد ذلك بسنوات. وكان محباً للدراسات القديمة والمثل العليا اليونانية الرومانية.

(٢) نوما: هو نوما بومبليوس، فيلسوف معروف تزوج تاتيا ابنة تاتيوس ملك السابين. وقد حكم روما بعد موت رومولوس، ولم يكن ميالاً للحروب، إنما انصرف إلى تهذيب الشعب، وتمكين الاعتقاد بالآلهة فيهم، وتنظيمهم إلى طبقات. وقد شاع عنه أنه يتردد بانتظام على حورية اسمها إيجريا؛ وشجع هو على رواج هذه الإشاعة لأنها يسرت له فرض القوانين التي أدخلها. وقد توفي بعد حكم دام ٤٢ سنة في ٦٧٢ ق.م.

(٣) إيجريا: حورية من أركوا في إيطاليا، ويذكر أوفيد أنا صارت زوجة نوما المذكور في التعليق السالف، كما يذكر أيضاً أنها حزنت على وفاة نوما إلى حد أنها ذابت فملأً من العبرات التي سكبتها عليه، حتى تحولت إلى ينبوع بواسطة ديانا، التي كانت تعبد في تلك المنطقة.

أصلك، فقد كنتِ فكرة جميلة لها جسم فتان.

-١١٦-

إن طحلب ينبوعك لا تزال ترويه أمواجك البلورية الجديرة بأن تجري في جنات النعيم. وإن المياه الصافية التي يحميها كهفك قد أبقت عليها السنون؛ وإنها لتعكس على سطحك المصقول جني المكان الرقيق، الذي لم تدنس مأواه الأخضر أعمال الصناعة. وإن أمواجك الرقيقة لم يفرض عليها أن ترقد سجينة في المرمر؛ إنما هي تنبثق بصوت عذب من قاعدة تمثالك، وتنساب هنا وهناك برقة ورشاقة في المروج بين الأزهار والعليق الزاحف.

-١١٧-

في اختلاط عجيب: والروابي الخضراء قد تدثرت ببراعم مبكرة؛ وخلال العشب يسمع للعَظاءة حفيف؛ وطيور الربيع تحييك بأغاريدها الحلوة؛ وآلاف من النبت العديد الأنواع يبدو كأنه يتوسل إليكَ أن تدع أزهاره الجديدة ذات عيون قاتمة الزرقة لها حلاوة وعذوبة، ونسيم الصبا السماوي يقبلها فتبدو ملونة بألوان السماء.

-١١٨-

هنا أقمت في هذه الخميلة الساحرة، أي ايجارياً! وهنا خفق قلبك وقد استشعر صوت وقع أقدام عاشقك الفاني؛ والليل قد أرخى منصفه الأرجواني نقاباً على هذه المقابلة السرية، نقاباً وشِّيَ بالنجوم؛ فجلست إلى جوار عشيقك. أواه! ما كان أعذبك! إن هذا الغار لم يخلق إلا من أجل استقبال إلهة عاشقة؛ وههنا حقاً صومعة الحب المقدسة، أول الوحي!

-١١٩-

وحينما كنت تجيبين عواطفه وتبادلينه غراماً بغرام، ألم تضمي قلباً سماوياً إلى قلب فان؟ والحب، الذي يموت زافراً كما يولَدُ زافراً، أفلا يدين لك بلمحات خالدة؟ أفلم يكن في وسعك أن تجعليها خالدة وتشيعي صفاء السماء في شهوات الأرض، وتنتزعي

السم من السـهم دون أن تَفْلِيَّــهِ، وأن تبـعـدي الملاك الذي يقـضي على كل شيء، وتستأصلي الأشواك التي تجرح نفوسنا ؟

-١٢٠-

أواه! إن عواطفنا الشابة سينضب معينها، أو لن تروى مياهها إلا القفار التي لا تنبت فيها إلا الأعشاب المظلمة المؤتشبة. هذه الأعشاب السريعة النمو كالدحريج؛ وإلاّ الأزهار النحيلة السيقان، بالرغم من بهائها، والتي لا يولد عبيرها الوحشي غير الآلام؛ وإلا هذه الشـجيرات التي لا تقطر إلا السم الزعاف: تلك هي النباتات التي يولدها الوجدان تحت أقدامه، الوجدان الذي يجتاز رمال العالم القفراء، ويتحرق في غير طائل إلى الثمار السماوية المحرمة علينا.

-١٢١-

أيهـا الحب ! لست من سكان هذه الأرض؛ أنت ملك خـفي نؤمن به؛ وأنت دين شهداؤه القلوب المحطمة؛ لكن العين المجردة لم ترك ولن تراك كما يجب أن تكون. إن روح الإنسان هي التي أبدعتك، كما أبدعت عليين، بواسطة أحلام تخيلاتها وأهوائها. وهذه الصورة التي وهبتـها فكرةً لا تزال تطارد الروح يعذبها لُواح فتاك ويضنيها اللغوب ويعنّيها العذاب.

-١٢٢-

إن النفس إذا عافت الجمال الطبيعي تخلق لنفسها في هذيانها عالماً من الخيال. فأين هي القسمات التي تدركها عبقرية المثال؟ إنها في أحلامه وحدها. إذ هل في وسع الطبيعة أن تقدم لنا شيئاً له كل هذا الجمال؟ وأين هو السحر والفضائل التي نستطيع أن نتصورها في الشباب ونتابعها في عهد النضوج؟ أيها الفردوس الخيالي الذي نسعى إليه بائسين، أنت تغرر بالقلم والريشة اللذين يريدان أن يصوراك في كل جمالك وبهائك.

-١٢٣-

من يُحْبِبْ يهذِ، فإن الحب هذيان الشباب، وعلاجه أشق وأكثر مرارة. فكل يوم يمضي يسلب فتنة من معبوداتنا، حتى نكتشف أخيراً أنها ليس لها الميزة ولا الجمال اللذان زينا بهما صورها المثالية. ولكن السحر القاتل يظل مع هذا، ويا للأسف، يسيطر علينا، ويظل يجرنا إليه، حاصداً الزوبعة من الرياح التي بذرناها مراراً؛ والقلب العنيد الذي بدأ يجرب كيمياءه كصاحب الصنعة، يعتقد في نفسه أنه قد قارب الظفر بمطلوبه وأنه قد صار غنياً في اللحظة التي يكون فيها أشد ما يكون إملاقاً وفقراً.

-١٢٤-

إننا نذبل منذ عهد شبابنا، ويتخوننا السقم ويتخدد لحمنا؛ ويظل الدواء مجهولاً لدينا، ولا نستطيع أن نُرويَ شفاهنا المحترقة عطشاً، على الرغم من أننا أحياناً، ونحن في خريف حياتنا، نرى خيالاً يغرينا، شبيهاً بذلك الذي نشدناه في مستهل عمرنا. ولكنه يأتي متأخراً جداً، فنصير بائسين بؤساً مزدوجاً. الحب والشهرة والطموح والجشع - كلها سيان، فكل منها لا نفع فيها ولا غناء، وكل منها شر وبلاء؛ لأنها جميعاً شهب خداعة ذاوتُ أسماء مختلفة، والموت هو الدخان الأسود الذي يفنى فيه اللهيب.

-١٢٥-

قليل من الناس، بل لا أحد يجد ما يحبه أو ما كان يمكن أن يحبه؛ فعبثاً تطرد الصدفة والتقارب الأعمى وضرورة الحب الصارمة، عبثاً تطرد كل هذه الأشياء كل أنواع الكراهية لدينا؛ إذ سرعان ما تعود وقد سممتها إهانات لا تغتفر؛ والظروف، هذا الإله غير الروحيّ، هذا المشوِّهُ للخلق، يصنع ويعين كوارثنا المقبلة بعصا يحيل لمسُها الأمل إلى تراب - تراب قد وطئناه أجمعين.

-١٢٦- [1]

حياتنا جوهر زائف: إنها ليست تقوم في انسجام الكل. فلماذا هذا القضاء الرهيب الذي قضي به علينا؟ ولماذا هذه الوصمة التي لا تُمحى، وصمة الخطيئة؟ إننا نستظِلُّ بدوحة هدامة، دوحة أو (باس) ذات غصون هائلة: أما جذرها فهو الأرض

(١) في هذه الفقرة كل فلسفة بيرن، وفيها أصدق تعبير عن تشاؤمه.

كلها؛ وغصونها وأوراقها هي السموات التي تقطر وتصب على الإنسان مصائبها التي لا تنفد، كأنها الندى المتساقط: فالمرض والموت والعبودية، وكل الشرور التي نراها، وأدهى منها، كل الشرور التي لا نراها، كلها تطارد النفس حياشة لها إلى ألوان من العذب متجددة لا تنقطع أبداً.

-١٢٧-

لكن دعنا نتأمل أنفسنا ومصيرنا بجرأة وجسارة؛ إنه تَخَلٍّ شائنٌ عن العقل أن نتنازل عن حقنا في التفكير، وهو ملاذنا الوحيد الأخير؛ وهو على كل حال ملاذي أنا وسيظل كذلك أبداً. فعلى الرغم من أن هذه الملكة الإلهية مغلولة معذبة، قد ضيق عليها الخناق واعتقلت في الظلام، خوفاً من أن يشرق الحق بجلاء كبير على العقل غير المتأهب، فإن الشعاع ينفذ مع ذلك، لأن الزمان والذكاء يشفيان عَمانا.

-١٢٨-

أقواس فوق أقواس! ليخيل إلى المرء أن روما قد حشدت كل غنائم محاربيها وجنودها وأرادت أن تصنع تمثالاً واحداً من كل أقواس نصرها ! إنه الكوليسيوم (١). وهاهي ذي أشعة القمر الفضية تتلألأ كأضوائه الطبيعية؛ ويخيل إلى المرء أنه لا يمكن أن يكون غير النور الإلهي هو الذي يستطيع وحده أن يضيء هذا الكنز من التأملات الذي لا ينفد. وإن الظلال الزرقاء لليلة من ليالي إيطاليا، الظلال التي تحلق فوق هذا البناء الفخم الرائع، لتبدو كنقاب ألقي على عظمتها.

-١٢٩-

هنا تبدو قبة السماء قد وهبت القدرة على الكلام: فإنها تعلن الخلود. وأشياء هذه الدنيا، التي طبعها الزمان بآثار أقدامه، يحيا فيها نوع من العاطفة والشعور؛ وحيث أهوى بيده، وتحطم معوله الهدام، توجد قوةٌ وسحر في الشرفاتِ الدارسة، تفوق فخامة هذه القصور الفاخرة التي لا تزال تنتظر بائنة العصور والأزمان.

---

(١) بناء ضخم في روما ، على هيئة مسرح هائل هو أكبر مسرح في العالم ، كان يجري في ساحته الصراع بين الاسود وبين المصارعين والعبيد .

-١٣٠-

أيها الزمان! يا من تزين ما مضى، وتعبد الأطلال، ولا تواسي القلب أوتأسو جراحه إلى بعد أن تنزف منه الدماء. أيها الزمان! يا من تصلح أحكامنا حين تخطئ، يا محَكَّ الحق والحب، أنت وحدك الفيلسوف، ومن عداك كلهم سوفسطائيون. أيها الزمان! أيها المنتقم الذي لا يفقد شيئاً وإن تأخر ميعاده - إنني أرفع إليك يدي وعيني وقلبي وألتمس منك منحة:

-١٣١-

وسط هذه الأنقاض التي بنيت لنفسك فيها معبداً ومذبحاً تزيد الوحدة الهائلة من قداسته، أود أن أقدم، بين القرابين التي هي أخلق بك، قرباناً هو الثمار المرة لسنوات، إن تكن قليلة، فإنها مليئة بالكوارث. فإذا كنت رأيتني منتفخ الأوداج من فرط الكبرياء، فارفض أن تستمع إليَّ؛ لكن إذا كنتُ متواضعاً في عهد النعمة، وإذا كنت قد احتفظت بأنفتي ضد الكراهية التي طاردتني دون أن ترهقني؛ فاجعلني لا أحمل هذا السهم عبثاً في نفسي - فهل لن ينوح أعدائي؟

-١٣٢-

وأنت يا إله الانتقام العظيم الذي لم تترك يدك ميزان مظالم بني الإنسان؛ أنت يا من دعا الفوريات من أعماق الهاوية وأمرتها بأن تطارد بحياتها أورست [١]، كيما تلومه على انتقام كان سيكون عادلاً لو أن يداً أخرى هي التي أنجزته ! هنا في هذا المكان الذي بَجَّلك فيه الأقدمون، وخصصوه لعبادتك، هنا أدعوك اليوم. أولا تسمع صوت قلبي؟ إنني أدعوك من التراب، فاستيقظ ! ستسمع لي وعليك أن تفعل!

-١٣٣-

ليس هذا لأنني قد لا أستحق الجرح الذي أصاب قلبي، بأخطائي أو أخطاء آبائي. ولو كانت اليد التي أصابتني يداً عادلة، إذن لما كانت قد سعيت إلى وقف دمي عن

---

(١) أورست ، هو ابن أجممنون وكليتمنسترا . ولما قتلت كليتمنسترا أباه ، أنقذته أخته إلكترا من خنجر أمه ، وحمل سريا إلى قصر استروفيوس ، ملك فوكيس الذي كان زوج أخت أجممنون . فرباه هذا مع ابنه بيلادس ، مما وَلَّدَ بينه وبين هذا صداقة نادرة المثال . ولما بلغ أورست أشده ، انتقم لأبيه بأن قتل أمه كليتمنسترا وخليلها الزاني ايجشوس .

سيلانه. ولكني لا أريد أن تبتلعه الأرض. إنما أهبه إياك؛ وأنت الذي ستتكفل بالانتقام؛ ولا يزال الوقت وقت إيجاده. وإذا لم أكن أنا قد سعيت إليه، احتراماً لـ ... دعنا من هذا ! إنني أنام، ولكنك ستظل ساهراً.

-١٣٤-

وإذا كان صوتي قد انطلق، فليس ذلك لأنني أرتعد من ذكرى ما تحملته من آلام: فليتكلم هذا الذي رأى جبيني شاحباً، أو شاهد قلبي قد خارت قواه في حشرجاته القاتلة. ولكنني أريد أن تكون هذه الصفحة أثراً خالداً لذكراي؛ وكلماتي لن تذهب أدراج الرياح، حتى لو صرت تراباً؛ وسيأتي اليوم الذي ستحقق فيه كل التنبؤات العتيقة التي أودعتها في هذه الأشعار، وستنصَبُّ أكداس لعناتي على رءوس أعدائي.

-١٣٥-

هذه اللعنات ستكون غفرانا. اشهدي يا أرض، يا أمي، واشهدي يا سماء! أفلم يقدّر عَلَيَّ أن أناضل مع مصيرى؟ أفلم أقاسِ آلاماً لا تستحق إلا الغفران؟ أفلم يتحطم عقلى ويتمزق قلبى وتتبدد آمالى وتثلم سمعتى، وأخان في أعز ما أملك في حياتى؟[1]

وإذا كنت لم استسلم لليأس القاتل، فذلك إنما كان لأنى لم أخلق تماماً من نفس الطين الذي جُبِلت منه نفوس أعدائى.

-١٣٦-

من أشنع الاضطهادات وأشدها قسوة وصرامة، حتى أتفه الدناءات الخائنة، أفلم أبصر كُلَّ ما يستطيع حقد الناس أن يفعله؟ فتارة كانت النميمة المزبدة غضباً تتهمني بأعلى صوتها؛ وتارة أخرى كان الحساد الجبناء يتهامسون باسمي ويقطرون سما ناقعاً خفياً؛ وكانت وجوههم المنافقة، التي تبصر بعيون تفهم الصمت، تبدو مخلصة، ولكنها كانت بدون همسٍ ولا حركة غير الإشارة أو الزفرة الزائفة تبلغ وشايتها الخرساء إلى جماعة الحمقى السذج.

---

(١) هنا إشارة إلى ما فعلته به زوجته .

-١٣٧-

ولكن حييت، ولم أحيَ عبثاً. فقد يفقد عقلي قواه، ودمي حرارته؛ وقد يفنى بدني وأنا أصارع آلامي؛ ولكن ثمة في نفسي شيئاً يتحدى العذاب والزمان، ويظل حياً حينما أموت؛ شيئاً إلهياً غير أرضي، أشبه ما يكون بالذكرى التي تتركها الأصوات الأخيرة لقيثارة خرساء، سينزل على قلوبهم بعد هدوئها، هذه القلوب المتحجرة اليوم، فتشعر حينئذ بندمٍ للحب متأخر.

-١٣٨-

وهأنذا قد ختمت على آلامي وشكاتي. فسلاماً إليك الآن، أيتها القوة [1] الرهيبة، التي نجهل اسمها، ولكنها تكشف لنا عن نفسها بواسطة سحر لا يمكن مقاومته، حينما أجتاب في ظلام الليل هذه الأماكن فتلهمينني هدوءاً عميقاً لا يشبه مطلقاً هدوء الخوف؛ إن مقامك حيث تبدو الأسوار الدارسة مغطاة برداء من العليق؛ وهذا المنظر الرائع يأخذ عنك معنى عميقاً قد بلغ من الوضوح حداً يجعلنا نصير بضعة مما قد كان، ونستشرف إلى الماضي شهوداً عليه غير منظورين.

-١٣٩-

ههنا ترددت جلبة الأمم الطامعة التي كانت تعبر عن عطفها بهمس خافت، أو تصفق تصفيقاً حاداً حينما يذبح الإنسان بواسطة أخيه الإنسان. ولماذا يذبح؟ لماذا، لأن هذا كان قانون السرك الدامي، ولأن هذا كان يجلب السرور إلى قلب الأمبراطور! ولم لا ؟ فسيان صرنا قوتا للدودة، أو سقطنا في ميدان القتالِ أو جندلنا في ساحة السرك! فكلاهما ليس إلاّ مسرحاً يتعفن فيه أهم الممثلين.

-١٤٠-

وها هو ذا المسايف [2] يتراءى أمام ناظريّ، وقد أسند رأسه إلى يده؛ وجبينه الفتي يدل على أنه قد قبل أن يموت، ولكنه يغالب الألم والحشرجة؛ ورأسه تسقط إلى

(١) يمكن أن تكون الزمان أو الانتقام أو روح القِدَم .

(٢) تمثال مشهور موجود في متحف الكابتول ، يسمى عادة باسم : "المسايف المحتضر" وبيرن لا يصف التمثال ، إنما يصف هذا المسايف وهو يصارع في ساحة الكوليسيوم .

أسفل تدريجياً؛ والنقط الباقية من دمه تفر من صدره المشقوق ببطء واتئاد، وتسّاقط كما تساقط القطرات الأولى من المطر. وها هي ذي الساحة تدور من حواليه وتسبح؛ وها هو ذا قد فارق الحياة قبل انتهاء التصفيق القاسي الذي حيا ذلك البائس الذي انتصر.

-١٤١-

لقد سمع له، ولكنه لم يحفل به؛ فقد كانت عيونه في قلبه بعيدة عن هذا المكان. أما النصر؛ وأما الحياة التي فقدها، فلم يساويا شيئاً عنده؛ لكن خيل إليه أنه يرى كوخه الوحشي على ضفاف الدانوب، وأطفاله الصغار كلهم يلعبون، وأمهم الداكية [١] جالسة إلى جوارهم، بينما هو، أبوهم، قد ذبح من أجل عيد في روما ـ كل هذا امتزج بدمه. فهل يقضي نحبه دون انتقام؟ ألا أيها القوط، هبّوا، وأطفئوا نار حميتكم!

-١٤٢-

ولكن هنا حيث تنفس القتل ريح الدماء؛ وهنا حيث سدت الأمم كل الشعاب وزأرت وزمجرت أو همست كأنها سيل جبلي يندفع ويتواثب ويتلوى في مجراه؛ هنا حيث كانت الحياة والموت لعبة ومسلاة للشعب الروماني، يتوقفان على أهواء الجمهور ـ هنا تردد صوتي وحده في هذه اللحظة، وأضاءت أشعة القمر الشاحبة الساحة المهجورة، والدرجات المنهارة والجدران التي عفى عليها الزمان، والأروقة الأرضية التي أيقظ فيها وقع أقدامي الأصداءَ.

-١٤٣-

إنه طلل، ولكن أيُّ طلل! منه بنيت جدران وقصور وأنصاف مدن وأسوار؛ غير أنك تتجول طويلاً في هذا الهيكل العظمي الهائل، وتدهش مما عسى أن يكون ما أخذ منه ووضع فيه من مكان. فهل سُطِيَ عليه ونهب حقاً، أم أزيلت منه هذه الأشياء

---

(١) نسبة إلى مقاطعة داكيا، التي يسكنها محاربون أشداء، وتقع على الشاطئ الشمالي من الدانوب الأسفل، وقد فتحها الرومان في عهد ترايان سنة ١٠٣. وهي تشمل الآن مقاطعات فالافيا وترلنسلفانيا ومولدافيا. وإليها ينسب بيرن هذا المسايف.

لتكدُّسها فيه؟ وا أسفاه! حينما تفحص جيداً هذا الأثر الضخم، يظهر لك الثلم واضحاً أمامك، فلا يحتمل ضوء النهار لأن أشعة الشمس تضيء بكل وضوح الأشياء التي أعمل فيها الزمان والإنسان معولها.

-١٤٤-

لكن حينما يبدأ القمر في الصعود إلى ذروةِ علاه، ويتلبث فوقه برقة وسكينة؛ وحينما تلمع النجوم من خلال ثغرات الزمان ويتماوج نسيم الليل العليل في الجو الرقيق مع الغابة التي تغطي هذه الأسوار الغبراء، كأنها الغار على رأس قيصر الأول الصلعاء[١]؛ وحينما يتلألأ الضوء ساجياً غير خاطف للأبصار حينئذ يستيقظ الموتى في هذه الدائرة السحرية: لقد وطئ الأبطال هذا المكان؛ وأنت تدوس الآن على ترابهم.

-١٤٥-

"حيث يقوم الكوليسيوم، تقوم روما؛ وحينما يسقط الكوليسيوم، تسقط روما؛ وإذا سقطت روما، سقط العالم [٢]": بهذا المكان كان يتحدث الحجاج من بلادنا وهم عند هذا البناء الشامخ في أيام السكسون، التي ندعوها باسم الأيام القديمة؛ ولا زالت هذه الأشياء الثلاثة الفانية قائمة على أسسها، لم يلحقها دثور؛ روما، وأطلال الكوليسيوم التي لا يستطيع شيء أن يعيد بناءها، والعالم، هذا الكهف الواسع الذي يقطنه ـ لصوص، أو من شئت.

-١٤٦-

أيها البسيط، الرائع [٣]، القاسي السامي معاً في عمارتك، المكرس لكل القديسين، أيها المعبد لكل الآلهة، من جوبتر حتى المسيح ـ لقد أبقى عليك الزمان

(١) "يذكر سويتون أن مجلس الشيوخ قد سمح ، بصفة شخصية جداً ، لقيصر بأن يحمل على رأسه دائماً تاجاً من الغار . ولم يشأ قيصر بهذا أن يدل على انه فاتح العالم ، إنما أراد به أن يخفي صلع رأسه . وكان من العسير جداً على الأجنبي أن يفهم الداعي إليهذا ، لو أنه رآه في روما ؛ ونحن أيضاً ما كان في وسعنا أن نفهم علة هذا ، لو لم يرشدنا إليها ذلك المؤرخ" (بيرن) .

(٢) كلمة قالها بيد المحترم ، وهو مؤرخ وراهب (٦٧٥-٧٣٥) .

(٣) هنا يصف بيرن البنثيون ، وهو معبد مشهور في روما ، بناه أجريا ، في أيام حكم أوغسطس ، وكما يدل عليه اسمه ، كان مكرساً لكل الآلهة . وقد أصابته صاعقة ، فتهدم منه جزء . فقام أدارن بإصلاحه .

وبارك حولك. أنت تبدو هادئاً، بينما كل ما حولك يترنح أو يسقط وينهار من أقواس وأمبراطوريات، والإنسان يجري دائماً إلى تراب قبره في طريق معبد بالأشواك. أيها البناء الماجد، هل ستبقى أبداً؟ إن منجل الزمان وصولجان الطغاة قد تحطما على أحجارك، أنت معبد وملاذ للفنون وللدين، أيها البنثيون، أنت فخر روما!

-١٤٧-

أيها الأثر المتخلف عن زمان مليء بالأمجاد وفنون بلغت ذروة النبل؛ أصابك التهديم، ولكنك لا زلت كاملاً، يستروح المرء في حرمك قداسة تهيب بكل القلوب. أنت نموذج للفن. ومن يسع إلى روما نشداناً لذكرى الأجيال يخيل إليه أن المجد لا يُلقي شعاعه إلا من خلال نافذتك وحدها؛ ومن ينشد التقوى، يجد هنا مذابح يقدمون عليها صلواتهم؛ ومن يأت للإعجاب بما أنتجته العبقرية، يستطع أن يريح عيونه على صور عظماء تزين تماثيلهم النصفية هذا البناء.

-١٤٨- (١)

ولكن ههنا سجن. فماذا أبصر في ظلام محانيه؟ لا شيء. تأمل ثانية: فها هما صورتان تتقدمان ببطء أمامي؛ إنهما شبحان من نسج خيالي. كلا، بل إني أراهما حقاً أمامي كاملين: شيخ عجوز وامرأة جميلة شابة نضرة كأنها أم حانية على وليدها، قد استحال دمها إلى تسنيم. ماذا تفعل هنا، بجيدها البلوري العاري ونهودها البيض البارزة؟

-١٤٩-

إن هذا الينبوع الصافي العميق للحياة الشابة ينمو ويفيض؛ إننا نأخذ أول قوتنا وأعذبه من قلب أمنا وعلى قلبها نقتات؛ ما أسعد الزوجة الشابة حينما ترى نظرة ابنها البريئة وتمتمة شفتيه الخفيفة اللتين تعبران عن طمأنينة وخلو من كل ألم! إنها تفهم

---

(١) " في هذه الفقرة والثلاث التالية إشارة إلى قصة الفتاة الرومانية التي يذكرها الرحالة بها مكان هذه الحادثة (أو المكان المزعوم لها) في كنيسة سان نيقولا في السجن" (بيرن) .

السرور الذي يخالج قلب رضيعها ! أمَّا الرجل فلا يستطيع أن يتنبأ به؛ وهي تتحلى بمنظر ابنها الحبيب وهو راقد في مهده، كأنها برعم من الورد يتفتح قليلاً قليلاً. من سيكون هذا الطفل؟ لست أدري؛ فحواء قد ولدت قابيل.

-١٥٠-

لكن هنا تقدم امرأة فتية هذا القوت الثمين إلى الشيخوخة، لا إلى الطفولة؛ إنها تعطي أباها الدم الذي تلقته منه مع الحياة. كلا، إنه لن يموت طالما استمرت نار الصحة والإحساس البنوي المقدس في هذه الشرايين الحارة الجميلة تغذي نيل الطبيعة الكبرى، الذي يفيض مجراه العميق بأعلى مما يفيض به نهر مصر. من هذا الصدر اشربْ واحْيَ، أيها اليفن الكبير! فليس في الجنة ما يشبه هذا الكوثر.

-١٥١-

إن أسطورة المجرة في السماء ليس لها من الصفاء ما لهذه القصة التي تلمع بشعاع عدب، والطبيعة تنتصر في هذا القلب لأوامرها وقوانينها، أكثر من انتصارها في الفراغ العالي الذي وضعت به عوالم رفافة بالنور. أيها الظئر المبجلة! لن تضيع أية نقطة من اللبن الذي سيحي موات قلب أبيك، ويرد له الحياة التي تلقيتها منها ! إن هذا اللبن إنما يعود إلى ينبوعه الأصلي، كما تعود نفوسنا إلى حضن الكون حينما تفرّ من قيود البدن.

-١٥٢-

لكن، لنصوب الطرف إلى حجر هادريان [1] الذي يحاكي أهرام مصر العتيقة، يحاكي هذه الكتلة من التشويه. لقد شاء هوى أمبراطور أن يبحث عن هذا النموذج الهائل على ضفاف النيل البعيدة؛ وقُضِيَ على الفنان أن يعمل وكأنه يبني لمردة عمالقة، وأن يقيم هذا البناء كيما يضم يوماً ترابه التافه. وإن الناظر إليه ليبسم بسمة فلسفية عريضة وهو يبصر هذا التصميم الهائل الذي انبثق من فكر مثل هذا الكائن.

(١) حُول ضريح هادريان إلى قصر سنت أنجلو منذ سنة ٥٣٠ ميلادية ؛ وعلى قمته صورة ملاك ، ومن هنا جاء اسمه . وهناك ممر يربط بين هذا القصر وبين قصر البابا في الفاتيكان

-١٥٣-

لكن تأمل ! فها هوذا المعبد[1] الواسع الرائع الذي تبدو عجيبة ديانا صومعة لو قورنت به. إنه معبد المسيح المقدس قد أقيم على قبر شهيده. لقد رأيت عجيبة أفسوس وتأملت أعمدتها المتناثرة في الصحراء، والضبع وابن آوى يرقدان تحت ظلاله؛ ورأيت قبة أيا صوفيا ترتفع وتصَّاعَدُ كأنها كرة تتألف في شعاع الشمس؛ ودخلت هيكلها بينما كان المسلمون الذين استولوا عليها يؤدون فريضة الصلاة؛

-١٥٤-

لا يمكن أن يقارن بك معبد أو مذبح قديم أو جديد، أيها البناء الرائع الأقدس الأصدق، الجدير وحده بالله. منذ خراب صهيون، حينما تخلى العلي القدير عن مدينته القديمة، ما هو أجل بناء أقامه بنو الإنسان تقديساً له؟العظمة والجلال والقدرة والقوة والجمال - كلها قد جمعت في هذا المعبد الخالد.

-١٥٥-

ادخل: فإن عظمته لن ترهقك أبداً؛ ولماذا ؟ ليس هذا لأنه يتضاءل؛ ولكن عقلك يتسع بفضل روح هذا المكان وينمو نمواً هائلاً، ولا يجد بعد مأوى جديراً به في غير هذا المعبد الذي وضعت فيه كل آمال الخلود. وسيقدر لك يوماً، إن كنت جديراً بهذا، أن تعاين الله وجهاً لوجه، كما تعاين الآن قدس أقداسه؛ ستعاينه دون أن تقضي عليك نظراته.

-١٥٦-

أنت تتقدم، ولكن أناقة هذا المعبد الهائلة تخدعك، إذ يزداد نمواً واتساعاً كلما ولجت فيه، كأنه جبل عال تبدو قمته كأنها تتباعد من خطوات من يصعدونه. وكلما نما، ازداد ظهور الانسجام بين أجزائه الضخمة؛ وتتبدى أمام عينيك المشدوهتين أنواع

---

(١) هنا يبدأ وصف كنيسة القديس بطرس بروما ، التي تعد أعظم كنائس الدنيا . وعجيبة أفسوس هي معبد ديانا في مدينة أفسوس بآسيا الصغرى ، وكانتْ إحدى عجائب الدنيا السبع .

من المرمر الفاخر، ولوحات ثمينة، ومذابح تضيء في مشاعل من الذهب؛ كما تتراى القبة السامية التي تنافس في علوها أجمل الأبنية. فعلى الرغم من أن أسسها قد أقيمت على الأرض، فإن السحب تتنازعها.

-١٥٧-

إنك لا تستطيع أن ترى كل شيء دفعة واحدة، بل عليك أن تقسم هذا الكل العظيم من أجل أن تتأمل كل جزء بعد الآخر. وكما أن المحيط يكوِّنُ سواحل تستحق منك أن تنظر إليها، فاحشد انتباهك حول كل موضوع مفرد على حدة؛ وركز فيه كل خواطرك وأفكارك حتى تنقش في ذاكرتك نسبه الأنيق، وتنشر تدريجياً اللوحة الرائعة التي لم يكن من المستطاع أن تقدم كلها دفعة واحدة أمام عينيك اللتين لا تقويان على أن تستنفضها بنظرة شاملة.

-١٥٨-

وما الخطأ منها، بل منك أنت: فحواسنا قد بُرِئت على نحو من شأنه أن يجعلها لا تدرك شيئاً إلاّ على درجات، وما نشعر به من عواطف عميقة يتجاوز نطاق كل بيان. وهكذا، فإن هذا البناء فوق طاقة إعجابنا: فعظمته الخارقة البراقة تتحدى حقارة طبيعتنا وضآلتها، إلى أن نرتفع بنفوسنا وننميّها إلى مستوى ما نتأمله.

-١٥٩-

قف قليلاً واملأ روحك من فيض هذا النور. فههنا أكثر من إرضاء الدهشة، وههنا أكثر من تلك العاطفة الدينية التي نتوجه بها إلى إلهٍ معبد، أو مجرد الإعجاب بالفن وبكبار الفنانين الذين استطاعوا أن يقيموا تمثالاً أعظم من كل ما أبدعه الأقدمون. وإن ينبوع السمو ليجد هنا أعماقه، ومنه يقود عقل الإنسان رماله الذهبية، ويتعلم كل ما يمكن إبداعه من أفكار وروائع.

-١٦٠-

أو دعنا نذهب إلى الفاتيكان كيما نشاهد الألم وقد مجده عذاب لاؤكون [١]: حب والد وحشرجة فان يحتملها صبر إله.

عبثاً يناضل ! عبثاً يتوتر ذراع شيخ عجوز ضد الثنيات الملتوية التي يحوكها التنين من حوله: إن هذا السلسلة الحية تأسره في حلقاتها المسمومة؛ والوحش الهائل يزيد في تعذيبه ثم يقضي على زفراته المختنقة القضاء الأخير.

-١٦١-

أو تأمل الإله [٢] الذي يقذف قوسه سهاماً قاتلة محتومة، إله الحياة والشعر والنور: هذا الشمس في صورة الإنسان. لقد أضاء جبينه النصر الذي أحرزه: فالسهم قد انطلق يتلألأ فيه انتقام كائن خالد؛ وفي عينيه وفي حركة أوداجه تعبير عن احتقار جميل؛ وفي وجهه صولة وجلال يبرقان أجمل بريق؛ وفي نظرته وحدها ما ينبئ عن إله.

-١٦٢-

لكن في شكله الرقيق الأنيق يتبدى حلم الحب، الذي تصوره حورية متوحدة يشتاق قلبها إلى عاشق سماوي، ويصيبها الجنون من هذه الرؤيا الفاتنة. في شكله إذن تعبير عن كل ما بارك حوله الجمال المثالي في نفس شاعت فيها انبل العواطف التي تسمو على الإنسان، حينما تكون كل فكرة من أفكارها وحياً من السماء، ونوراً خالداً يرسل من بعيد بريقاً إلهياً فيه تحقيق لصورة الله.

---

(١) تمثال لاؤكون تمثال في الفاتيكان . أما لاؤكون فابن بريام ، وكان كاهناً لأبولون ، كلفه أهل طروادة بأن يقدم قربانا إلى نبتون ، إله البحر ، من أجل أن يعينهم . لكن حدث أثناء تقديمه القربان أن خرجت عليه من البحر حَيَّتان عظيمتان ، هاجمتا ابنيه اللذين وقفا إلى جوار المذبح . فحاول أبوهما أن يردهما عنهما ، غير أن الحيتين انقضتا عليه وعصرتا جسمه بين التواءاتهما المخيفة ، حتى مات وهو يعاني أشد أنواع الألم والحشرجة ، وكان هذا عقاباً له عن محاولته اقناع الطرواديين بعدم أخذ الحصان الخشبي الذي عمله اليونانيون حيلة وخدعة . وقد ساهم في نحت هذا التمثال ثلاثة نحاتين من رودس هم : بوليدورس واجيساندروس وأتينودورس ، وقد أثار من حوله كثيراً من الجدل ، في ألمانيا في نهاية القرن الثامن عشر وأوائل القرن الماضي ، بين كبار النقاد الفنيين . راجع كتابنا "شوبنهور" ص ١٨٦-١٨٨ ، القاهرة سنة ١٩٤٢ .

(٢) هو أبولون ، إله الشعر والنور ، وله تمثال مشهور ، حينما اكتشف وجدت يده اليسرى ناقصة ، فأكمله أحد الفنانين من أتباع مدرسة ميكلنجلو . وهذا التمثال ، المعروف بأبولون بلفدير ، يمثل أبولون بعد أن أصاب بيثون (وهي حية مشهورة قتلها أبولون بسهامه) ؛ ويمتاز بالبساطة والعظمة معاً ، وفي وجهة تعبير عن الانفعال والغضب والاحتقار غير أنه يعوزه شيء من الحياة .

-١٦٣-

وإذا كان حقاً أن برومثيوس قد اغتصب من السماء النار التي نستدفئ بها، فقد كوفئ من أجل هذا بفضل هذا الفنان الذي استطاع أن يضفي على هذا المرمر الشعري كمالاً خالداً. فإذا كان هذا من عمل كائن فانٍ، فليست الفكرة من ابتكار إنسان، لأن الزمان نفسه قد عدها مقدسة في عالم الخلود، ولم يحل غدائرها إلى تراب؛ إنها تتلوث بغبار السنين، ولا تزال تتنفس اللهيب الذي أشرف على تكوينها.

-١٦٤-

لكن، أين هذا الرحالة الذي أتغنى به في أشعاري هذه، هذا الذي أعان إلهامي في الماضي؟ يخيل إليّ أنه قد تورك وأتى متأخراً. لقد مضى، وهذه آخر أنفاسه. لقد انتهت جولاته وتبددت رؤاه، ولم يعد بعد شيئاً مذكوراً. لئن كان قد كان شيئاً آخر غير خيال، وإذا كان من الممكن عده واحداً من الأشباح التي تحيا وتتألم. فليكن هذا، ولكن شبحه يفنى الآن في هاوية الخراب والعدم.

-١٦٥-

هنا حيث تلتقي الظلال والجواهر والحياة وكل ما نرثه منها في صورتها الفانية؛ وحيث نُشِرَ قناع شامل من خلاله يصير كل شيء شبحاً؛ والسحابة التي تفصل بيننا قد زالت فيها هي وكل ما برق وتلألأ حتى يأتي المجد نفسه فيصير أصيلاً وغروباً، ناشراً هالة من الحزن على شفا الظلام، هي شعاع أشد كآبة من أشد الليالي كآبة، لأنه يلهى أنظارنا.

-١٦٦-

ويرغمنا على تأمل أعماق الهاوية، نشداناً لما عسى أن نصير إليه يوماً ما، حينما يُلقى بنا إلى ما تحت وجودنا البائس. ومع هذا، فلا نزال نحلم بالمجد! ونود أن يضيء هذا الاسم الزائف الذي لن نسمعه بعد. يا لها من فكرة مواسية! ليس في وسعنا أن نصير ما نحن عليه في جوهرنا. أفلا يمكن أن نكون قد احتملنا مرةً الأثقال التي أبهظت نفوسنا؟ نفوسنا التي فاض عليها العذاب، وقلوبنا التي كان عرقها دماً جاسداً.

-١٦٧- [١]

صه ! فإن صوتاً قد ارتفع من أعماق الهاوية، إنه زمزمة بعيدة رهيبة، كأنه صوت أمّةٍ أصابها جرح بالغ مميت. وفي وسط الزوبعة والظلام، تنشق الأرض وتنتحب؛ والهاوية غاصة بالأشباح: منها ما يتبدى في صورة ملكةً، على الرغم من أن جبينها لم يعد بعد مكللاً بالتاج. وعلى الرغم من شحوبها، فلا تزال جميلة، تضم إليها طفلها بألم أمومي، وعبثاً تحاول أن تقدم إليه ثديها.

-١٦٨-

أيها الفرع الأخير لأصلاب من الملوك، أين أنت؟ أيها أنت؟ أيها الأمل لعدة أمم، هل توقفت عن الحياة؟ أو لم يكن في وسع القبر أن ينساك، ويختار بدلاً منك رأساً أقل عظمة وأضأل مكانة! أيتها الأم للحظة عابرة، وا أسفاه! في وسط هذه الليلة الحزينة: بينما كنت تنوحين على طفلك، أتى الموت فأنهى كل آلامك! وبموتك ماتت سعادتنا الحاضرة، وتلك التي أملت فيها في المستقبل الجزر الأمبراطورية.

-١٦٩-

إن الفلاحة تلد دون أن يقتضيها الميلاد فقدان الحياة. أما أنت فقد كنت سعيدة يعبدك شعبك؛ وهؤلاء الذين لا يبكون على الملوك [٢] سيبكون مع ذلك عليك أنت؛ وإن قلب الحرية الدامي قد توقف عن تكديس أحزانه على فرد واحد؛ لأن الحرية قد أطلقت دعواتها إليك من أجلك، ورأت قوس قزحها قائماً فوق رأسك. وأنت أيضاً، أيها اللورد المتوحد، أيها الزوج البائس المكروب! هل بنيت بها عبثاً! لقد كنت زوجاً لعام، وأباً لطفل لم يعش!

-١٧٠-

أواه! لقد كان ثوب زفافك رداء حدادك؛ وثمرة زواجك لم تكن إلا تراباً. آه! لقد رقدت في التراب، تراب اللحد، يابنة الجزر الشقراء، محبوبة ملايين رعاياها! كم من

(١) هنا يبدأ بيرن رثاءه للأميرة شارلوت، التي توفيت في نوفمبر سنة ١٨١٧ ؛ وكانت ابنة الوصي على العرش، الذي صار من بعد جورج الرابع. وكانت محبوبة من الشعب الانجليزي حباً كبيراً، بعكس أبيها. وتزوجت الأمير ليوبولد، أمير ساكس كوبرج (الذي أصبح فيما بعد أول ملك لبلجيكا) ؛ غير أنها توفيت وهي تلد، بعد ثمانية عشر شهراً.

(٢) من أمثال بيرن.

الثقة وضعنا بين يديها، الثقة بمصيرنا ومستقبلنا! وعلى الرغم من أن هذا المستقبل لم يكن عندنا غير ليلة القبر، فقد لذ لنا أن نفكر أن أبناءنا سيبذلون لابنها طاعتهم وقيادهم، وسيباركون الأم بذريتها المطلوبة. لكن! ويا أسفاه! قد كان هذا الأمل لنا مثل نجمة الرعاة المحبوبة - ولكنها لم تكن إلا شهاباً.

-١٧١-

واحسرتاه علينا، لا عليها، لأنها ترقد ناعمة بأطيب رقاد. فماذا كانت سترى على العرش؟ الدخان الواهي الناشئ عن نفخ الحماسة الشعبية، والنصائح الخداعة تسديها عصبة من المتملقين، وهذا الوحي الزائف الذي يلقى في آذان الملوك والأمراء منذ أن قامت الملكية، إلى أن تتسلح الأمم المحمومة بحماسة جنونية. يا له من مصير عجيب يثل عروش أكبر الملوك، ويضع في الكفة المضادة ثقلاً مخيفاً لا يلبث أن يحطم هؤلاء، إن عاجلاً أو آجلاً[1].

-١٧٢-

لقد كان من الممكن أن يكون هذا مصيرنا. لكن كلا، فإن قلوبنا تأبى أن تصدق هذا. فقد كانت شابة، جميلة، طيبة من دون تكلف، عظيمة من غير أن يكون لها أعداء. ثم صارت عروساً ثم أماً. واليوم! كم من روابط مزقتها تلك اللحظة الرهيبة الكالحة؟ من قلب أبيك حتى قلب أحقر رعاياك، تمتد السلسلة الكهربية لذلك اليأس الذي كانت صدمته زلزالاً، حتى ساد الحداد هذه البلاد التي تنافس أبناؤها في حبك.

-١٧٣-

سلام عليك يا نيمي[2]! لقد قبعت في وسط الروابي المجللة بالغابات، إلى حد أن الريح الصرصر العاتية التي تستأصل شجرة البلوط من جذورها والتي تحمل المحيط

(١) "قتلت مارية على المقصلة، واليصابات ماتت غماً وكمداً؛ وشارلكان مات راهباً؛ ولويس الرابع عشر مات مفلساً من المال والمجد؛ وكرومويل مات من القلق؛ وأعظمهم جميعاً، نابليون، يحيا سجيناً. وفي وسع الإنسان أن يضم إلى هذه القائمة من الملوك والأباطرة قائمة طويلة بأسماء أخرى شهيرة وشقية بائسة معاً" (بيرن).

(٢) "كانت قرية نيمي بالقرب من خميلة إيجريا، وقد احتفظت إلى اليوم باسم الخميلة، نظراً إلى الأشجار التي كانت تظل معبد ديانا. ونيمي لا تبعد عن ألبانو الفاخرة إلا مسافة قصيرة تُقطع على الخيول" (بيرن).

على تخطي حدوده، وتقذف بأمواجه المزبدة إلى أعلى السماء ـ تضطر إلى احترام المرآة البيضاوية لبحيرتك البلورية. إن سطحها الهادئ هدوء الكراهية المنافقة، يحمل مظهراً من البرد العميق الساكن الذي لا يستطيع شيء أن يعكر صفاءه؛ وأمواهها تدور حول نفسها، كأنها حية راقدة.

-١٧٤-

وبالقرب منها، تشع من الوادي المجاور أمواج ألبانو الساكنة؛ ومن بعيد ينساب تيار التفره، والمحيط الواسع يرحض شاطئ لا تيوم حيث قامت الحرب التي تحدثت عنها الملحمة [١] التي تبدأ بهذا المطلع: "السلاح والرجال..."، التي طلع نجمها على أمبراطورية؛ وعن يمينك مكان التجأ إليه شيشرون نشداناً للراحة من ضوضاء روما؛ ومن تلك الناحية التي تحول فيها الجبال دون الرؤية الواضحة، كانت تفلح مزارع السابين، التي تفيأ فيها الشاعر (هوراس) ظلال الراحة.

-١٧٥-

ولكني نسيت أن رحالتي قد بلغ غايته، وعليه وعلي أن نرحل فيفترق كلانا عن أخيه. لقد انتهى كلانا من أداء واجبه أو كاد. لكن دعنا ننظر مرة أخرى إلى المحيط. إن أمواجه ترف أمام عيوننا المشدوهة؛ وها نحن نبصر الآن من فوق جبل ألبانو صديق شبابنا، ألا وهو المحيط الذي تتبعناه من قبل منذ صخور كاليه حتى المنطقة التي فيها يحيط البحر الأسود بسمبليجادس الزرقاء.

-١٧٦-

لقد مرت سنوات طوال ـ طوال، وإن لم تكن عديدة ـ منذ ذلك الحين، وأنتجت أثرها في كلينا. وبعض من الآلام والعبرات قد خلّفتنا في نفس المكان الذي منه بدأنا تقريباً. ومع هذا فإننا لم نقض أعمارنا عبثاً؛ بل حظينا بجزائنا، حظينا به في هذا المكان. أجل، ما أجمل هذه المكافأة، ألا وهي أن نستشعر الغبطة في شعاع الشمس، ونحصد من الأرض والبحر ثمار سرور له من النفاسة ما يجعلنا ننسى أن ثمة أناساً لتعكير صفوه علينا.

(١) هي الانيادة لفرجيل، التي تروي مغامرات انياس، الأمير الطروادي الذي أبلى في حرب طروادة وذهب إلى صقلية وإيطاليا؛ ثم قتل في معركة مع الأتروبين.

-١٧٧-

آه! ألا ليت الصحراء مقامي، ومعي روحي ملائكية تشاركني في وحدتي، حتى أستطيع أن أنسي جميع الناس، ولا أعشق غيرها، دون أن أكره أحداً. وأنت أيتها العناصر! أليس في وسعك أن تهبيني مثل هذا الكائن، أنا الذي أشعر بأسمى الوجد في حضرتك النبيلة؟ أواهم أنا حين أظن أن أمثال هذه الأرواح تسكن أكثر من مكان؟ وإن كان من النادر جداً أن يتاح لنا التحدث وإياهم.

-١٧٨-

في الغابات الطاهرة (التي لم يدنسها إنسان) إغراء، وعلى الشاطئ المهجور سحر وفتنة، وعند البحر العميق جماعة لم يعكر صفوفها قدم ثقيل، وفي هدير أمواجه موسيقى عذبة. لكن هذا لا يقلل من حبي للإنسان؛ إنما أعشق الطبيعة أكثر منه في هذه اللحظات التي أخلو فيها إليها وأجاذبها أشهى الحديث، ناسياً كل ما يمكن أن أكونه، وكل ما كنته من قبل كيما أتحد بهذا الوجود، فأشعر بما لا أقدر على التعبير عنه، وإن كنت لا أقوى على إخفائه كله.

-١٧٩-

ألا فلتهدر بأمواجك، أيها المحيط الأزرق الداكن العميق! إن آلاف الأساطيل تجوب طرقاتك الطويلة دون أن تبلغ أطرافك. وهذا الإنسان، الذي يملأ الأرض بآثار تخريبه، يقف سلطانه عند الساحل، لا يستطيع تجاوزه إليك؛ وما يجري على سهلك المائي من كوارث إنما أنت فاعله، ولا يبقى عليه أدنى ظل لتدمير الإنسان، اللهم إلا ظله هو حينما يسقط في لحظة كأنه قطرة مطر في أعماقك وهو يعوي ويصيح، يهوي فيك، دون قبر ولا كفن ولا تشييع ناقوس، منسياً من الجميع.

-١٨٠-

لا أثر لأقدامه فوق طرقاتك، ومساحاتك ليست من ممتلكاته وغنائمه، إذ لا تلبث أنت أن تنهض وتردّه عنك. والقوة الدنيئة التي يستخدمها من أجل تخريب الأرض لا تثير عندك إلا الاحتقار والازدراء. إنك تقذف به من أحضانك إلى أعلى السماء، وترسلُ به، وأنت تلهو وتمزح، إلى آلهته في تلك الأماكن التي وضع فيها أعز آماله، ثم تلقي به على الأرض مرة أخرى ـ وهنا تدعه يرقد.

-١٨١-

ما هذه الأسلحة الرهيبة التي تصعق أسوار المدن المبنيَّةِ من الصخر، وتخيف الأمم، وتجعل الملوك في عواصمهم يرتعدون؟ وما هذه القلاع المتحركة، الشبيهة بالحيتان الضخمة، والتي يصل الزهو بأصحابها وبانيها إلى حد أنهم يتخذون لأنفسهم لقب سادة البحار، سادتك أنت أيها المحيط، والمتحكمين في مصائر الحروب؟ ما قيمة هذه الأشياء كلها في نظرك؟ إنها مجرد ألعوبة في يديك، تذوب، كما يذوب زبدك الأبيض، في مرارة أمواجك، التي قضت إن على كبرياء الأرمادا أو على غنائم طرف الغار.

-١٨٢-

إن سواحلك أمبراطوريات، كلها تحول وتفنى، وتظل أنت باقياً أبداً. فأين ذهبت آشور واليونان وروما وقرطاجنة؟ لقد كانت أمواجك ترتطم على حدودها في أيام الحرية، ومن بعد إبان الطغيان؛ وإن سواحلهم اليوم لتذعن للغريب، وشعوبها من عبيد أو برابرة. وإن مصيرهم البائس قد أحال ممالك إلى صحراوات. أما أنت، فلم يصبك من هذا شيء. لقد بقيت ثابتاً لم يتغير فيك شيء؛ اللهم إلا ألعاب أمواجك الوحشية هنا وهناك، وكنت أداعب غدائرك بأناملي ـ كما أفعل الآن.

-١٨٥-

الآن أديت رسالتي، وانقطع انشادي، واستحالت ألحاني إلى أصداء. وقد أنى أن يُقطع هذا الحلم الطويل؛ ولا بد من إطفاء المصباح الذي أضاء لي إبان الليالي. وما قُدِّرَ، قُدِّرَ. ألا ليتني أحسنت عملي! لكني لم أعد بعد من كنته قبل؛ ورؤاي ترنق الآن أمام عيوني بوضوح أقل؛ والشعلة التي أضاءت روحي تترنح وتضوى ويغذ إليها الهمود.

-١٨٦-

وداعاً! يا لها من كلمة لا بد أن تقال، يرن فيها رنين الأسى والحزن. وداعاً مع هذا! وداعاً إليكم يا من قصصتم أثر رحَّالتي حتى آخر الشوط! إذا كانت ذاكرتكم تعي فكرة من أفكاره، وإذا كانت إحدى ذكرياته تطوف بنفوسكم، فإنه لم يلبس إذن في غير طائل نعال الطريق وقلنسوة السفر المزينة بالقواقع والأصداف. وداعاً مرة أخرى! ولندع له وحده الأسف، إن كان له منه نصيب؛ ولكم أنتم العظمةُ الحسنة من هذه الأناشيد.

جورج جوردون بيرن
لوحة حياته

١٧٨٨: ولد جورج جوردون بيرن في لندن في ٢٢ يناير سنة ١٧٨٨ من أسرة عريقة في النبالة، إذ ترجع نبالتها إلى أيام وليم النورمندي، المعروف بوليم الفاتح (١٠٢٧-١٠٨٧)، كما ترجع في أصلها إلى النورمنديين الذين كانوا يقطنون في المقاطعة المعروفة باسمهم في شمال فرنسا. وكان من أسلافه من اشترك في الحروب الصليبية. ولما امر هنري الثامن (الذي حكم سنة ١٥٩٠-١٥٤٧) بحل الأديرة، منح أحد آل بيرن دير نيوستد في مقاطعة نونتنجهام. ونظير ما أسدوه من مساعدة للملكة إبان الحروب الأهلية في انجلترا، منح شارل الأول (١٦٠٠-١٦٤٩، وتولى الحكم في سنة ١٦٢٥) لقب اللوردية إلى أحد أبناء الأسرة، فكان أول لورد بيرن. وخامس لورد، كان معروفاً بسوء الخلق، وعلى العكس من ذلك كان أخوه الأونورابك جون بيرن، الذي كان بحاراً مغامراً، وارتفع إلى مرتبة أميرالبحر. وكان له ولدان، أكبرهما كان وسيم الطلعة كثير الإغراء، ولكنه لم يكن صاحب مبادئ، حتى كان يسمى باسم "المجنون جاك بيرن" وقد تزوج مرتين؛ وزوجته الثانية هي أم شاعرنا، وهي من أصل اسكتلندي، ومن أسرة عريقة تحمل في شرايينها دم آل استيوارت الذين حكموا انجلترا لعهد طويل، غير أنها كانت شرسة الطبع قليلة الحظ من التهذيب.

١٧٩١-١٨٠٩: في سن الثالثة فقد أباه؛ ولما بلغ السادسة توفي ابن عمه، فأصبح وارث اللقب، فمنحه وهو في سن العاشرة.

وتلقى تربيته الأولى على يد أمه، وهي على ما ذكرنا من غرابة الطبع؛ فأساءت إليه، لأنها كانت تارة تد لله إلى حد الإفساد، وتارة أخرى تزيد في تعنيفه إلى درجة تعييره بالعاهة التي ولد بها، ونعني بها أن كعبي قدميه كانا سيئي التكوين إلى حد

أنه لم يكن في وسعه أن يرتكز بهما على الأرض، إنما كان مضطراً إلى المشي على مقدم القدم، مما كان يصور في مشيه شيئاً من العرج القليل. كما تلقى تربيته أيضاً على يد مربيته الأسكتلندية، وقد كانت بروتستنتية متطرفة، حببت إليه "العهد القديم" من الكتاب المقدس، مما سيظهر أثره في "أشعاره العبرية".

ثم لما بلغ الخامسة التحق بمدرسة أولية في أبردين، ثم في دولوتس. ولكنه تلقى دراسته التي أثرت فيه أكبر التأثير في مدرسة هرو؛ فقد أمضى بها سنوات، وإن كانت الأولى منها بائسة، فإن الأخيرة كانت أسعد شطر في حياته، حتى إنه فكر في أن يسمي هذه الملحمة التي بين يدي القارئ باسم "اتشيلد أف هرو"، وأخيراً اتخذ اسماً أقرب هو "اتشيلد هارولد".

وبعد أن أتم دراسته في هرو، التحق بكلية الثالوث (ترنتي كولدج) في جامعة كمبردج. وهو إن لم يكن قد أعجب كثيراً بالدراسة فيها، فإنه استطاع الاطلاع بحرية إبَّانَ هذه الفترة؛ واستمر في قرض الشعر (الذي بدأه في هرو)، وسرعان ما نشر ديواناً صغيراً بعنوان: "ساعات الفراغ، تأليف لورد بيرن، القاصر". غير أنه هوجم في " مجلة ادنبره" مهاجمة قاسية؛ فرد على الهجوم بقصيدة بعنوان: "الشعراء الإنجليز والنقاد الاسكتلنديون"، سنة ١٨٠٩ .

وإبان هذه الفترة التي تعد عهد الطلب بالنسبة إلى بيرن، وقعت له مغامرات غرامية مبكرة جداً في سن الثامنة، والثانية عشرة، والسادسة عشرة؛ وكان حبه فيها عنيفاً عنف طبيعته في كل شيء.

١٨٠٩-١٨١١: ولما بلغ الحادية والعشرين دخل مجلس اللوردات؛ غير أنه قوبل مقابلة باردة أثرت في نفسه إلى درجة أنه عزم على الرحيل من انجلترا فغادرها بعد بضعة أيام من دخوله المجلس. وهنا بدأ عهد التنقل، إذ ارتحل أولاً إلى اسبانيا، حيث كان الإنجليز بقيادة ولسلي (دوق ولنجتون فيما بعد) يساعدون الاسبان على طرد نابليون من شبه الجزيرة الإيبرية. ومن أسبانيا ارتحل إلى بلاد اليونان وألبانيا. وهذه الرحلة إلى أسبانيا واليونان وألبانيا هي التي وصفها في النشيدين الأول والثاني من هذا الكتاب الذي بين يديك. ثم سافر إلى تركيا، حيث زار أزمير واستامبول، غير أنه لم يضمِّنْ هذه الرحلة في هذا الكتاب إلا إشارة؛ إنما استعان بها في قصيدته الكبرى: "دون جوان".

وقد استغرقت هذه الرحلة قرابة سنتين، فكان لها في شعره ونفسه أكبر الأثر، مما هو ظاهر بوضوح في هذا الكتاب.

١٨١٢-١٨١٦: وفي سنة ١٨١٢ نشر بيرن بعد عودته إلى انجلترا النشيدين الأول والثاني من "اتشيلد هارولد"، فلقيا رواجاً هائلاً، حتى قال هو: "لقد استيقظت ذات صباح فوجدت نفسي مشهوراً". وهذا النجاح العظيم يُعزي أولاً إلى روح العصر التي كانت روح روسوفي "هوليزا الجديدة" و"أحلام التريض المتوحد"، وجيته في "فرتر" قد أثرتا فيه؛ وثانياً إلى كون البلاد التي وصفها في قصيدته هاتيك كانت هدف انتباه العالم آنذاك؛ وثالثاً إلى الروح الجديدة الغريبة التي ظهرت فيها.

ثم تلاها بنشر "عروس أبيدوس"، في سنة ١٨١٣؛ و"القرصان" و "لارا"، في سنة ١٨١٤؛ "وحصار كورنثوس" و "بريزينا" في سنة ١٨١٦ . وهي أقاصيص شعرية تدور غالباً حول الشرق وبلاد اليونان؛ وفيها هذه الألوان الشرقية الزاهية التي استهوت روح العصر كله في ذلك الحين.

وفي مستهل سنة ١٨١٥ تزوج بيرن مس إيزابلاً ملبانك، وكانت فتاة باردة، متزمتة، متحذلقة، تغلب عليها نزعة إلى التقوى المغالية، وإن كانت مهيبة الطلعة والجمال؛ وهي صفات على النقيض تماماً من صفات بيرن، فكان طبيعياً أن يكون الزواج غير موفق إطلاقاً. فافترقت باختيارها عنه، بعد أن ولدت منه ابنة هي أدا، في ١٠ ديسمبر من نفس العام؛ وكان فراقها في منتصف يناير سنة ١٨١٦ . ولكي تبرر انفصالها عنه، راحت، شأن لداتها من النساء، تكيل التهم لزوجها: فاتهمته بأنه مجنون؛ ولما ثبت أنه عاقل، ادّعت أنَّ بينه وبين أخته غير الشقيقة، أوجستا، صلات غير شريفة؛ وذهبت تعلن هذا الاتهام في المجتمع الإنكليزي، دون أن يزعها وازرع من شرف أو ضمير، أو حتى من عطف حتى لو افترضنا أنه اتهام صحيح؛ ولكنه انتقام المرأة الرهيب قد جاريها عن كل سبيل قويم. فأثارت بهذا ثائرة المجتمع الإنكليزي، المتزمت بطبعه، الناقم على بيرن لأسباب أخرى؛ فلم يستطع بيرن البقاء بانجلترا، فغادرها إلى غير رجعة في ٢٥ أبريل سنة ١٨١٦ .

ومسألة هذا الاتهام من المسائل التي أثارت من حولها أكبر الجدل، ولا زالت تثيره، حتى بعد نشر "مراسلات لورد بيرن، خصوصاً مع ليدي ملبورن وغيرها" سنة

١٩٢٢، التي اتخذ منها البعض وسيلة لترجيح صحة الاتهام، بل حتى لتوكيده. لكن السر لا يزال يكتنف هذه المسألة من كل نواحيها. وعلى كل حال فليس المجال هنا مجال تفصيل القول فيها والإدلاء برأي قاطع، وإن كنا نميل إلى نفي هذا التهام.

١٨١٦-١٨٢٤: غادر بيرن انجلترا إذن إلى غير رجعة؛ فارتحل إلى بلجيكا أولاً، حيث زار ساحات القتال فيها، خصوصاً ساحة معركة ووترلو، بعد أن مضى على هذه المعركة سنة. ثم غادر بلجيكا إلى جنوب ألمانيا، حيث تمتع بمناظر الرين الرائعة التي أبدع وصفها في النشيد الثالث من "أتشيلد هارولد"؛ ومن هنا تابع هذا النهر حتى منابعه في سويسرة، حيث أقام مدة عند بحيرة جنيف (ليمان). وهنا التقى بشلي، طريد المجتمع الإنجليزي هو الآخر، فنعما سوياً بصحبة الطبيعة الفاتنة في هذا الإقليم الساحر؛ مما كان له أثره في شعر بيرن وحبه للطبيعة، خصوصاً بتأثير شلي فيه.

ولما قضى من سويسره وطره ارتحل إلى إيطاليا. فسافر أولاً إلى البندقية، حيث أمضى هنا حياة مطلقة من كل قيد، فيها من العربدة والمجون وانتهاب أعنف اللذات شيء كثير. ثم سافر من بعد إلى رافنا، حيث أقام في صحبة الكونتيسة جويتشيولي، وقضى عهدا عامراً بأعنف الغرام وأعمق الشهوات والاحساس؛ ولم يقتصر تأثيرها فيه على الناحية الفنية، خصوصاً في اختيار موضوعاته، بل امتد أيضاً إلى الناحية السياسية، فشارك في الحركات السياسية التي كان يقوم بها الزعماء الوطنيون في إيطاليا من أجل طرد النمساويين، حتى لفت إليه أنظار رجال الشرطة.

وفي تلك الأثناء نشر النشيد الثالث من "اتشيلد هارولد" في سنة ١٨١٦، والنشيد الرابع في سنة ١٨١٨؛ كما نشر "سجين اتشيلون"، سنة ١٨١٦؛ و"منفرد"، سنة ١٨١٧؛ و"بيو"، سنة ١٨١٨؛ "ومازبا" سنة ١٨١٩؛ وابتدأ "دون جوان" الذي أكمله في الفترة ما بين سنة ١٨١٩-سنة ١٨٢٤؛ كما نشر في سنة ١٨٢١ "نبوءة دانته"، وفي سنة ١٨٢٣، "الجزيرة"؛ كما كان قد نشر "شكاة تسو" سنة ١٨١٧. ثم نشر مسرحياته: "قابيل"، و"مارينو فلبيرو" و"سردانابال"، و"الفوسكاريان" سنة ١٨٢١؛ و"فرنر" سنة ١٨٢٣؛ و"السماء والأرض"، سنة ١٨٢٤.

وتنقل في ربوع شمال إيطاليا، مقيماً في بيزا وجنوة، وهو على اتصال مستمر بشلي الذي كان يقيم في إيطاليا في ذلك الحين أيضاً، وشهد احتفال موته، هذا الاحتفال شبه الوثني.

وكان قد شارك في السياسةِ كراديكاليٍّ ضد الهوج، لأنه كان يميل إلى الجمهورية ضد ملكية بيت هانوفر؛ كما كان معجباً بنابليون كل الإعجاب، إلى حد التقديس، بينما كان يبغض دوق ولنجتون، فلا يكاد يدع فرصة تمضي دون مهاجمته والنيل منه. وحين سقط نابليون رثاه بهذا الرثاء الرائع الموجود في النشيد الثالث من هذا الكتاب. ولما يئس من السياسة في وطنه شارك، كما قلنا، في السياسة الإيطالية، لأنه كان يدافع عن قضية الحرية في كل مكان. فلما أخفق الكاربوناري، هذه الجمعية الإيطالية السياسية، في كفاحهم ضد النمساويين، انصرف عن قضية إيطاليا إلى قضية اليونان في كفاحها ضد تركيا طلباً للاستقلال. فعاون زعماء اليونان ـ وإن اختلف مع بعضهم ـ مادياً أو أدبياً؛ وأخيراً ذهب بنفسه إلى بلاد اليونان لكي يحارب هو نفسه في صفوفهم ضد الأتراك، في مدينة مسولنجي؛ غير أن الحالة الصحية في هذه المدينة كانت سيئة، فأصيب بالحمى، ومات في ١٩ أبريل سنة ١٨٢٤، شهيداً من شهداء الحرية والاستقلال لوطن غير وطنه.

نشرات ومراجع

نشرت مؤلفات بيرن عدة نشرات لا سبيل إلى حصرها. وأهمها:

Poetry, ed.by H. Coleridge. 1905

Letters and Juurnal, ed. By Prothero, 1898-1904.

أما أهم نشرات "اتشيلد هارولد" فهي:

J- Darmesteter: Childe Harold, avec des notes en franeais, par J. Dramesteter, Paris,1882;

A. Mommesn: Childe Harold, erlautert von August Mommsen, Barlin, 1885;

W. Rolfe: Childe Harold, wiht notes by william J. Rolfe, Boston, 1886;

H.F. Tozere; Childe Harold, with notes by H.F. Tozer, Oxford, 1885

E.E. Morris: Childe Harold, ed. With notes and an introduction by Edward E.Morris. London, Macmillan, 1903; 4th ed. 1908

أما عن حياة بيرن فيراجع:

Thomas Moore: The Life, Letters and Journals of Lord Byron, London 1831.

.كما يراجع حياته بقلم Galt، سنة ١٨٣٠؛ ونويل Noel، سنة ١٨٩٠؛ وا . ماين E.C.Mayne، سنة ١٨٩٢؛ وم.بلامي M.Bellamy، سنة ١٩٢٤؛ وأندريه موروا A. Maurois، سنة ١٩٣٠؛ ويراجع أيضاً:

Medwin: Conversaltion with Byron, 1824;

Trelawny: Recollections, 1858.

أما عن قصة بيرن مع زوجته فيراجع:

Harriet B.stowe: Lady Byron Vindicated, 1870;

Lord Lovelace: Astarte, 1905;

Edgcumbe: Byron, the last Phase, 1920;

Sir J.Fox: The Byron Mystery, 1924;

Lord Byron's Correspondance, Chiefly with lady Melbourne, etc., 1922.

وكدراسات عن بيرن، يراجع:

W. Hazlitt: The spirit of the age, 1825;

Swinburne: Essays and studies, 1875;

Matthew Arnold: Essaays in criticism, 2the series, 1888;

G. Brandes: Hauptstromungen, Vol. IV;

Otto Schmidt: Rouseau and Byron, Leipzig, 1890;

وعن تأثير بيرن:

Otto Weddigen: Lord Byron's Eintluss auf die europa i schen Litteraturen der Neuszeit, Hannover, 1884;

W.Axon: Stray chapters in Literature, London, 1888

Ed. Esteve: byron et le romantisme francais, 1907;

S.C.Shew: Byron in England, his fame and after- fame, 1924.

منهاجنا في الترجمة

هذا الكتاب هو في الأصل ملحمة مقسمة إلى فترات مرقومة بالأرقام كما هنا؛ وكل فقرة مكونة من ثمانية أبيات، على طريقة فقرة اسبنسر spenserian stanza، لأنه حاول تقليد اسبنسر في طريقة نظمه وفي لغته أيضاً، لذا جاءت لغته عتيقة، فيها كثير من الإهمال وسوء نظم الكلم والانحراف عن قواعد النحو والصرف، بل وسوء أو عدم فهم الألفاظ.

وقد فضلنا في هذه الترجمة أن تكون نثراً، اللهم إلا الأغاني، فقد ترجمناها نظماً؛ وذلك إلى أن نتوصل إلى إيجاد فقرة كفقرة اسبنسر في الشعر العربي. كما حاولنا أن نجعلها أوضح ما يكون حتى نزيل غموض الأصل، كل هذا مع التقيد بالأصل الإنجليزي قدر المستطاع، اللهم إلا فيما يستلزمه الوضوح وسلامة التركيب وجمال الإسلوب.



لورد بايرون

أسفار شيلد هارولد

أعمال خالدة ٧

الكون سفر لم يقرأ منه غير الصفحة الأولى من لم ير إلا وطنه، وأنا قد تصفحت منه قدراً وافراً، فوجدته رديئاً تافهاً، ولكن هذا الامتحان لم يكن عقيماً، فقد كنت أبغضت وطني، ولكن ألوان العنت الّتي سامتني إياها مختلف الشعوب التي عشت بين ظهرانيها هدتني إلى محبة هذا الوطن، فإذا كنت لم أظفر من أسفاري إلا بهذه الفائدة وحدها، فكفى هذا كي لا آسف على ما حمّلتني هذه الأسفارُ من متاعب ونفقات.






ISBN:2-84305-867-X
9 782843 058677